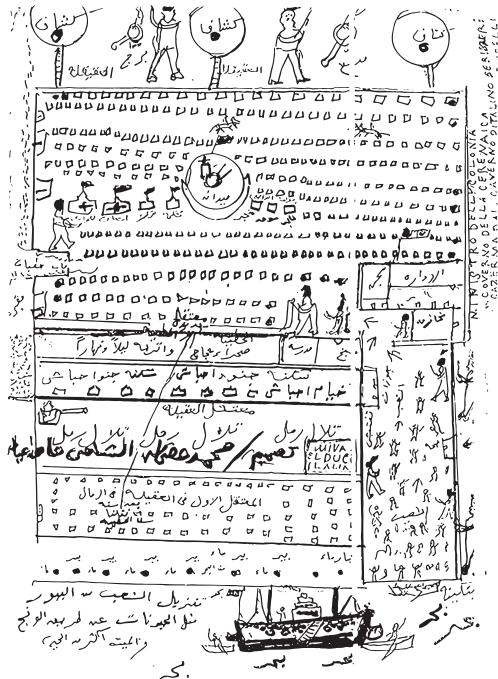


العدد (ب) 2023

الغرفة 211

كتاب دوري يعنى بالثقافة والفنون في ليبيا



الإبادة الجماعية ومستقبل تاريخنا

صورة الغلاف خريطة لمعتقل العقبة رسمها الحاج محمد عصمان الشامي، أحد المعتقلين هناك.
الصورة مأخوذة من كتاب "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي"

الغرفة 211

كتاب دوري يعنى بالثقافة والفنون في ليبيا
العدد ب، 2023

يصدر عن مؤسسة أريتي للثقافة والفنون
طرابلس - ليبيا

البريد الإلكتروني : alghurfa211@gmail.com

المحرر المسؤول
خالد المطاوع

مدير التحرير
حسام الثنبي

تم نشر هذا الكتاب بمنحة من الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)



AFAC ARAB FUND FOR
ARTS AND CULTURE
الصندوق العربي
للثقافة والفنون

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون
الحصول على الموافقة الخطية من الناشر، باستثناء حالة الاقتباسات المختصرة
التي تجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

جميع الحقوق محفوظة - مؤسسة أريتي للثقافة والفنون © 2023
ISBN 979-8-9887298-0-8

مؤسسة أريتي للثقافة والفنون
Arete Foundation for Arts & Culture



الفهرس

مقدمة

1 ذاكرة الاستعمار، ومستقبل تاريخنا. (فريق التحرير)

نصوص

6 مقتطف من رواية الهروب من جزيرة أوستيكا. (صالح السنوسي)

24 مقتطف من رواية صندوق الرمل. (عائشة إبراهيم)

38 الرحلة. (مروان جبودة)

57 مقتطف من رواية بنغازي. (صلاح المنصف. ترجمة: ميرنا فكري صبحي حنا) عن

79 المقرنون والبَرَاح وشوق سيدي رافع. (حسام الثنبي).

ملف خاص

86 عن كتاب "الإبادة الجماعية في ليبيا"، للدكتور علي عبد اللطيف حميده.

90 مقدمة الطبعة العربية لكتاب الإبادة الجماعية في ليبيا.

(علي عبد اللطيف حميده/ ترجمة: محمد زاهي بشير المغيري)

97 مقتطف من كتاب الإبادة الجماعية في ليبيا (الفصل الثالث).

(علي عبد اللطيف حميده/ ترجمة: محمد زاهي بشير المغيري).

128 إعادة تشكيل تاريخ الإبادة الجماعية. (فؤاد مغربي/ ترجمة: نافع الطشاني).

136 في نقد المعرفة الاستعمارية والنخبوية: عن التاريخ الاستعماري في ليبيا، وما

بعد الاستعمار/ حوار مع الدكتور "علي عبد اللطيف حميده"

توثيق

- 156 أمي حين تسرد التاريخ. (أحمد يوسف عقيلة).
- 160 ما تيسّر من سير المقاومة. (فاطمة غندور).
- 171 مرايف عليهم خاطري ولهان. (حسام الثنبي).
- 177 ميثاق الحرabi.

قراءات

- 184 العساكر وذاكرتهم، مساران للحياة بين ليبيا وإيطاليا. (أنطونيو إم مورون/ ترجمة: خالد المطاوع)
- 221 ليبيا خلال الاستعمار من منظور إثيوبي. (سعد العشة)
- 234 ما تعلمه لورانس الدنماركي في ليبيا. (فريديريك ويري/ ترجمة: سعد العشة)
- 250 دلالة غامضة هائلة- عن رواية بنغازي، لصلاح المنصف (ستيفين وات/ ترجمة: نافع الطشاني)

إدراكات

- 260 الصعود من الشر: تأملات مشكالية في مستقبل تاريخنا. (خالد المطاوع)
- 314 المساهمات/ون (سير ذاتية موجزة)

ذاكرةُ الاستعمارِ ومستقبلُ تاريِّخنا

يعتقدُ كثيرون من الناس أن التاريِّخ هو مُجمَّل أحداثِ الماضي، وهو اعتقاد، كما يخبرنا عبد الله العروي، واضح البطلان؛ الواقع أن التاريِّخ (في أحسن الأحوال) "يسرد ما تبقَّى من الماضي محفوظاً في الذاكرة"¹. على هذا النحو فكتابة التاريِّخ (أي ما يسمى "التاريِّخ")، هي استحضار لواقعِ الماضي وليس تسجيلاً دقيقاً لها، فنطاق التاريِّخ، ليس الطبيعة، إذ لا يمكن أن نجدُ فيها بسهولة، بل نطاقُه هو الإنسان وذاكرته. على هذا النحو يغدو التاريِّخ، الذي هو ماضٍ (يحدِّثنا عن وقائعِ سالفة)؛ حاضراً في الوقت ذاته، في ذهن من يروي تلك الواقائع أو يتأنَّ لها، وهكذا فالماضي (الماضي المطلق) يخرج عن نطاق التاريِّخ ليدخل حيز الطبيعة، أما التاريِّخ فيجعل ذلك الماضي (الذي بطبعته مخفِي ولا يمكن الرجوع إليه)؛ متاحاً لنا بطريقة ما، يجول في عيناً و يؤثِّر في سبل حيائنا.

وبما أن التاريِّخ شيءٌ نصنعه، فمن العسيرة أن يكون محايداً، ولا يمكن له أن يخلو من غرائزنا وأمالنا. وعليه، فعملية استحضارِ الماضي هي عملية ذاتية مرتبطة بالحاضر، حسب من يقوم بها وكيف يجري ذلك. ولا مناص من القول، إن عملية استحضارِ الماضي لا بد أن تخضع بطريقة أو بأخرى لاعتبارات معقدة تحكمها دوافع نفسية وأيديولوجية متداخلة، وتحكم إلى مدى كفاءة الأدوات المعرفية والمنهجية والتقنية المتاحة للمؤرخ. ولأن التاريِّخ

1. عبد الله العروي: مجمَّل تاريِّخ المغرب، (الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافي العربي، 1996)، ص.13.

لا يحدث في فراغ، فلا بد للمؤرخ أن يتعامل بشكل ما مع الاتجاهات المنهجية السائدة وسلطتها في عصره، ويقرّ إلى أي مدى سيتمكن بها أو يتحداها. ما نريد قوله هنا، إننا -إذ نقرأ تاريخنا في كتابات المؤرخين- نحن نستحضر "ما رسب من ماضينا في أذهان المؤرخين" ليس أكثر. وإذا ما أردنا أن نقرأ التاريخ بوعي لا بد أن نعي خيارات المؤرخ من الماضي والأوضاع والسياقات الفكرية التي وجّهت خياراته.

ولا بد أن تقودنا معضلة كتابة التاريخ، التي طرحتنا جوانب من تحدياتها هنا، إلى تاريخنا الليبي على وجه التحديد، وتشير لدينا الأسئلة العصيرة حول الإشكالات التي صاحبت عملية التاريخ (الم المحلي والاستعماري) لتاريخنا الوطني: ما دوافع السلطات السياسية والعلمية التي أنتجت تاريخنا؟ كيف أثّرت سطوة الاتجاهات المنهجية السائدة على المنجز التاريخي؟ كيف وظفت السلطات الاستعمارية أدوات التاريخ لكتابه تاريخ يتماهي مع همومها؟ وكيف تتبعت السلطات الوطنية لاحقاً على كتابة تاريخ يشبه في كثير من ملامحه "الأساطير التربوية"؟ وماذا عن المعتقدات الجماعية والإبادة؟ كيف يمكن أن يختلف حاضرنا، ومن ثم مستقبلنا باختلاف طرائق التاريخ للإبادة؟ بل يمكن المضي قدماً إلى أسئلة المشترك الهُوَوِي: كيف يمكن أن نؤسس سردية تكون رافداً لهوية المستقبل بإعادة النظر في الماضي الاستعماري؟ ما مستقبل الماضي إذن؟ كيف يمكن لنا المضي قدماً انطلاقاً من مراجعة التاريخ وأدوات التاريخ؟ هذه الأسئلة، إذن، دعوة تسير جنباً إلى جنب مع مطالبات السير في مسار ثالث، مسار مخالف من جهة لمسار (التاريخ التقليدي) المعتمد على المفاهيم الثلاثة: الحقبة، الحدث، الوثيقة. حيث يتم التعامل مع الواقعية عبر اللجوء

إلى شاهدة مكتوبة أو شفاهية، وبعقلية محدودة الحس الناقد، لا تتجاوز إنتاج الدرس التربوي، وهو مخالف في الوقت ذاته لمسار (التاريخ الاستعماري)، حيث إن المنهج لا يbedo أنه يعيد النظر في أدوات التاريخ، ولا يتتجاوز كونه توسيعاً للمفاهيم الثلاثة للتاريخ التقليدي، عبر سرد تقلبات مؤسسات الدولة وتحولات بنى الإنتاج وغيرها من الاتجاهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بطريقة كثيراً ما تتض� فيها الأحكام السابقة المستعارة من التاريخ الأوروبي وسرديات الأمم الأخرى.²

المسار الثالث، بخلاف المسارين (التقليدي، والاستعماري)، يدعو إلى نبذ الامتثال الكسول إلى السردية البطولية القائمة، وتجاهل جرعة التعويض التي تمنحها ملاحم الأبطال، جنباً إلى جنب مع نبذ سوء تقدير الذات، والارتكان الهامشي إلى متن المركزية الأوروبية، كما يدعو إلى إخراج التاريخ الليبي من العزلة المحلية، ووضعه ضمن إطار عام للتاريخ الإنساني للشعوب. ولا يخفي علينا أن التاريخ الغربي للعالم شابته أيديولوجيات الاستعمار والاستشراق والتفوق العنصري التي وجّهت كتابته إلى تاريخ الآخر، وأسهمت في تبرير هيمنته الدموية على العالم، وحيث ما زلنا نجد تلك التأثيرات حتى عندما يحاول الآخر (الأفريقي والآسيوي والهندي الأحمر) كتابة تاريخه.

تحديداً، ومن هذا المنطلق، يبدأ العدد (ب) من مجلة الغرفة (211) بالدعوة إلى إعادة النظر إلى التاريخ الليبي، الاستعماري الإيطالي على وجه الخصوص،

2 . على سبيل المثال: في التاريخ لشمال إفريقيا، كثيراً ما يُقحم المؤرخ الاستعماري ما يعرف بـ"التحقيق الثلاثي"، ليجعله مرجعاً أساسياً لتحقيق تاريخ المنطقة، حيث يقسم المراحل التاريخية لشمال إفريقيا إلى ثلاث حقب تمثل (الازدهار - الانحطاط - الازدهار)، (حقبة قديمة = رومانية)، (حقبة وسيطة = إسلامية)، (حقبة حديثة = استعمارية).

ليس على أنه مُعطَّى مأخوذ من الرواية، بل بوصفه حدثاً مرَّكباً داخلاً في أبستمولوجيا عامة تؤسّس إلى نقد مزدوج، كالذي نادى به عبد الكبير الخطيبى. نقد لا يكتفي بتوظيف الأدوات الناقلة في عملية مراجعة الذات والتراث؛ بل إضافةً إلى ذلك، وفي الوقت ذاته نقد يضع أدواته الناقلة موضع مساءلة دائمة، ويعيد البحث في الإشكالية عوضاً عن الاكتفاء بالتحقيق في الوثيقة التاريخية، وهو مَسْلَك الدكتور علي عبد اللطيف حميد، الذي نخصص له في هذا العدد، من الغرفة (211)، ملفاً عن كتابه "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشّر، تاريخ استعماري مخفي". الذي يسعدنا أن نقدم جزءاً منه للقارئ.

ولقد سعينا، في هذا العدد، إلى فتح المجال للنقد المزدوج وإعادة القراءة وتوظيف أدوات ناقلة جديدة، عبر المواد المتضمنة في جزأى التوثيق والقراءات، حيث يسلط الكتاب الضوء على جوانب منسية أو مخفية من حقبة الاستعمار الإيطالي لليبيا. ولعلَّ أكثر المواد إثارة في هذا العدد هي الأعمال الإبداعية السردية التي نرى فيها المبدع الليبي يعيد بشكل مؤثر ودؤوب قراءة الماضي بجعله حاضراً معنا، وبعمق يوازي مأساة الحاضر الذي تعشهه ليبيا الآن.

وختاماً، نأمل أن يرى القارئ المواد التي نقدمها هنا دعوة إلى إعادة النظر في تاريخنا، وإعادة رتبه عبر إنتاج سردية موثقة ومنصفة. وإن كان هذا مشروعًا طموحًا يتجاوز دافع الفضول المعرفي، ويتمدّل ليستجيب إلى حاجة وطنية وإنسانية تقتضيها ظروف انحلال الشعور بالانتماء، وسوء تقدير الذات، وتفكير الهوية الوطنية.

فريق التحرير

مُصوّص



الهروب من جزيرة أوستيكا (مقططف من رواية)

صالح السنوسي

كانت بداية التحول في حياة سالم البراني هي تلك الفرصة التي أتاحتها إدارة السجن لمن تبقى من السجناء على قيد الحياة، فقد عرضت إدارة السجن على هؤلاء فرصة العمل في المزارع القريبة، وفي مصانع السردين من السابعة صباحاً حتى الخامسة مساءً في مقابل وجبة الغداء وفرنك واحد يومياً.

لقد جاءت هذه الفرصة بعد مضي ست سنوات من السجن في الأقبية والكهوف المظلمة.

كان رأي معظمهم هو رفض هذا العرض لأنه نوع من أعمال السخرة تحت سياط الجلادين.

قال الشاعر حسين الفضيل إنه يفضل أن يجلدوه في السجن من أن يجلدوه بالسوط على مرأى من الإيطاليين والإيطاليات في المزارع والمصانع.

لم يكن خالد الكيلاني متحمّساً لهذا العرض، ولكنه فضل الصمت لكيلا يؤثّر في خيارات رفاقه، بينما أبدى سالم البراني تحمسه قائلاً: نحن مستعدون في بلادنا وليس في هذه الجزيرة فقط، ولهذا فقد رأيت الخروج والعمل في المزارع بين الهواء والشمس مهما كانت طبيعة هذا العمل، فذلك أفضل من البقاء كثيّراً داخل هذه الكهوف المظلمة الرطبة.

كان سالم البراني أصغر السجناء في الخامسة والعشرين من عمره حسب المعلومات الواردة في ملفه الشخصي بالسجن، فهو يبدو شاباً فارعاً القامة قوي البنية مليح التقاطيع، ضاحكاً مقبلًا على الحياة رغم قسوتها.

لم يتحمّس لهذا العرض إلا اثنان آخران، أحدهما إدريس التايب، الذي أتت به المقادير من منطقة مرتفعات الرجمة إلى جزيرة "أوستيكا"، كان من الأغنياء المعروفين في منطقته، له زوجتان ولم يبلغ الأربعين بعد، محكوم عليه بخمس عشرة سنة بتهمة تقديم الأموال إلى العصابة المتمردين على الدولة الإيطالية.

أما الثاني فهو رمضان الجالي الذي جاءت به من منطقة أجدادها تهمة أنه كان يقوم بشراء البضائع والسلع وتهريبها إلى من تعتبرهم الحكومة الإيطالية عصابة متمردين، فنان عقوبة مماثلة لعقوبة إدريس التايب بعد أن تمت مصادرة حيواناته وما يمتلكه من أراضٍ.

قال رمضان الجالي معلقاً على العمل في مزارع جزيرة "أوستيكا": لقد تعوّدنا على حصاد القمح والشعير تحت حرارة شمس الصيف الحارقة، فما بالك بالعمل في مزارع الطليان تحت سماء باردة!

أخذ هؤلاء الثلاثة يررون بعد عودتهم من العمل تفاصيل حياتهم اليومية في مزارع البطاطس والخضراوات والمعاملة التي يلاقونها تحت رقابة الحراس.

ولكن بعد بضعة أشهر أصبح أكثر الموضوعات إثارة في هذه التقارير اليومية هو ما يرويه سالم البراني لصديقه خالد الكيلاني والشاعر حسين

الفضيل، عن تطويرات العلاقة بينه وبين هذه الفتاة التي التقاهما بعد أن انتقل هو ورفاقه الثلاثة من مزارع الخضروات إلى مزارع البطاطس.

كان سالم البراني بحكم صغر سنّه وقوّة بنيّته هو أحد المكّلفين بحمل جوالات أو أكياس البطاطس من الحقل إلى مكان التجميّع، وكانت الفتاة تقوم باستقبال هؤلاء الحمالين والإشراف على تسليم حمولتهم وتسجيلها تمهيداً لنقلها إلى المخزن الرئيسي بالقرب من الميناء.

تتكرّر رحلاته عدّة مرات في اليوم بين الحقل ومكان التجميغ محاولاً لفت نظرها إليه، بل أخذ يقوم بنقل حمولات رفاقه بدلاً عنهم لكي يزيد من عدد مرات اللقاء بها، فكان رفيقه إدريس التايب يتندّر بهذا الجميل الذي يسدونه له قائلاً: نحن نضحي بهذه الأحمال فنحرّم منها ظهورنا لكي نتنبّرّع بها لظهورك!

كان سالم يعود كل مساء ليعرب لخالد الكيلاني عما يساوره من إحباط بسبب عدم اهتمام شقراء حقول جزيرة أوستيكا به بينما يحاول النبي خالد أن يشجعه على الاستمرار في محاولاته ولا يدع اليأس يتسلّب إلى نفسه، لأنّه يرى في ظهور هذه الفتاة في حياة سالم بارقة أمل يجب أن يتثبّت بها في مواجهة القنوط والقهقهة والإذلال والأفق المسدود في جزيرة معزولة، وفي أقبية مظلمة باردة رطبة تحوم فوقها غربان الموت كل يوم.

يحاول خالد الكيلاني دائمًا إلا يجعله يفقد الأمل فيقول له: الأمل في النصر هو الذي يجعل المجاهدين رغم قلة عددهم وضعف سلاحهم يتحدون الجيش الإيطالي الكثير العدد والقوي التسلیح.

ذات مساء يدخل سالم صائحاً: لقد ابتسمت لي عصر هذا اليوم، نعم لقد ابتسمت لي.

يرد خالد: ألم أقل لك، لا تيأس.

كانت ابتسامتها خجولة ولكنها صافية تألقت معها عيناهما الخضراء وازداد وجهها الطفولي براءة.

قال خالد معلقاً على الأوصاف التي أوردها سالم: لا بد أنها تستحق هذه الأوصاف، ولكنها محظوظة أيضاً، لأن الذي عشقها أستاذ موهوب في اللغة العربية وشاعر.

يعود سالم إلى وصف تفاصيل ما ححدث عصر ذلك اليوم، فعندما وصل إلى مكان التجميع وجد اثنين يحاولان رفع جوال ثقيل فلم يتمكنا من ذلك، وكان ذلك المشهد يجري أمام الفتاة، فقام سالم برفع الجوال وحمله إلى أن وضعه فوق آلة الميزان العالية، ثم صاح تشجيعاً لنفسه باللغة الإيطالية: برافو.

والتفت فجأة فاللتقت عيناه البارقتان ذات الحاجبين الكثيفين عينيهما الخضراءين فعلت محياتها ابتسامة خجولة استدارت بعدها إلى الناحية الثانية بينما غادر هو المكان مردداً بصوت مسموع وبلغة إيطالية: خلقنا الله لنساعد بعضنا البعض ولنحب بعضنا البعض.

لكنه عندما عاد في المرة الثانية لم يجدها فقد انتهت دوريتها بالنسبة لذلك اليوم.

يقول له خالد: ستتجدها في انتظارك غداً، ولكن كن حذراً من الحراس.

وتتوالى لقاءات سالم مع الفتاة وتتواصل تقاريره المسائية، فقد ظلت تبتسم له من بعيد عدة أيام إلى أن انتهز الفرصة ذات صحبى كان فيها الحراس يتناولون إفطارهم، فتحدى معها وعرف أن اسمها "لورينزا"، وسألته عن اسمه وعن وطنه ولم يبدُ عليها أنها عرفت المكان الذي ذكره لها ولكنها فهمت أنه مسلم وعربي.

قال سالم في إحدى رواياته المسائية لخالد الكيلاني: في البداية وجدنا صعوبة في التفاهم لأنها تتحدث بلهجة أهل الجزيرة المختلفة عن اللغة الإيطالية التي تعلّمناها، ولكننا تغلبنا على ذلك بالإصرار والتعود، ولأن ما بيننا أقوى من لغة الكلام.

أراها أحياً تتحدث مع بعض النساء العاملات وهي تشير نحوه، فلما سألتها عن ذلك قالت إن النساء يعتقدن أنكم من المجرمين العتاة الذين يأتون بهم إلى سجن الجزيرة، ولكنني أوضحت لهن إنكم أسرى من المسلمين الذين بينهم وبين الحكومة الإيطالية حرب في أرض المسلمين.
يعلق خالد:

لقد اكتشفت "لورينزا" عالماً آخر خارج جزيرتها، ومع مرور الوقت سيصبح لها رأي و موقف حول ما يجري فيه من أحداث.

مع مرور الأيام بدأت علاقات سالم البراني تتشعّب مع العاملين في هذه المزارع، وأصبح شخصية تحوز على استلطاف الكثرين ولا سيما في وسط النساء اللائي يساعدهن في رفع ما يحملن من جوالات فينال نظرات الإعجاب منهن و يمازحنه بعبارات لا يفهم بعضها لأنها بلهجهن الريفية،



المصدر: أرشيف مركز الدراسات والتوثيق بجزيرة أوستيكا.

ولكنه يحس بفحوها، غير أنه لا يطيل الوقوف معهن خوفاً من الحراس، ومراعاة لمشاعر "لورينزا" التي لم تعد تخفي غيرتها عليه.

اقترحت عليه "لورينزا" أن ينتقل مع ثلاثة من رفاقه الأصحاء إلى المخزن للعمل في ترتيب وتحميل العربات بجولات البطاطس والخضراوات، وأنها ستكون معهم لأنها مكلفة بالإشراف على عملية النقل وتسجيل كل ما يخرج من المخزن، وهناك ستكون الفرصة أمامهما أكبر ليكونا معاً أطول وقت ممكناً بعيداً عن رقابة الحراس، فأجابها ممازحاً بأنه عندما يكونان معاً بعيداً عن الحراس لا يهم المكان حتى ولو كان جهنم.

تضحك "لورينزا" على سجيتها ثم تقول: أليست لديكم جنة مثلنا نحن المسيحيين؟

يرد عليها سالم: جنتنا واحدة، ولكن للأسف الحروب هي التي تقودنا جمياً إلى جهنم.

نظرت إليه بنهم قائلة: أنت تقول أشياء تعجبني ولكنها تخيفني. ينسحب سالم دون أن يرد عليها لأن الحراس الذين كانوا منشغلين بالإفطار عادوا إلى أماكنهم.

كان انتقال سالم مع رفاقه الثلاثة إلى المخزن مرحلة أخرى في تطور العلاقة بينه وبين "لورينزا"، فقد أتاح لها ذلك قضاء وقت طويل معاً، فيختليان بعضهما في ملحقات المخزن بينما يقوم رفاقه نيابة عنه بتحميل نصيبه من الجولات ويقومون بتحذيره إذا ما حضر أحد الحراس ليقوم بجولة داخل المخزن.

كان أحد رفاقه إدريس التايب يصبح مشجّعاً سالم البراني: "يا بو البراني، قرعتك شوري، غير استرنا مع الطليانيات" أنا أتكفل بنصيبك من الأحمال، ولكن عليك أن ترفع رؤوسنا لدى الإيطاليات.

إدريس التايب في الأربعينيات من عمره كان متزوجاً من امرأتين، غنّيّاً، ضخم الجثة، اتهمه الطليان بتقديم الأموال إلى المجاهدين وإيوائهم لينصبوا كمائن للدوريات الإيطالية في مرفعات الرجمة، ولكنهم لم يقبضوا عليه متلبساً فاكتفوا بمصادرة حيواناته وأملاكه والحكم عليه بالمؤبد وبالنفي في جزيرة "أوستيكا".

فتاة جميلة تعيش في قريتها الصغيرة المعزولة في جزيرة بركانية تائهة خلف أمواج وعواصف البحر، وشاب لا يشبه سكان القرية في شيء، غريب قادم من المجهول.

تشاء سخرية الأقدار أن تجعل من الغزو والاستعمار والجهاد والنفي ظروفاً موضوعية تصنع لقاء بين شاب وفتاة، ما كان لهما أن يلتقيا لولا حمامات البشر وجنونهم، فمن رحم الوحشية والمأسى، ولدت ظاهرة نبيلة تتحدى العبث والعدمية مثل الزهرة اليانعة العطرة التي تتحدى الصخور الصماء السوداء وأملال السبخ، ورمال الصحراء القاسية.

حينما تلتقي مشاعر الظلم والاضطهاد والظلماء مع الحنان والبراءة والاشتاء، يتحرّر الحب من كل القيود والحدود.

احتسى سالم البراني و"لورينزا" كأسيهما حتى الثمالة وأصبحت إحدى الحجرات الملحقة بالمخزن هي ملجأهما معظم الفترة الصباحية، بينما تقوم السنيورة "كارلا" بمهمة "لورينزا".

”كارلا“ تجاوزت الخمسين من عمرها، وتقول عنها ”لورينزا“ إنها بمثابة أمها، وأنها خرجت من الجزيرة وهي فتاة صغيرة وطافت جميع إيطاليا وعاشت في عدة مدن من بينها روما وتزوجت عدة زيجات ولم تنجو ثم عادت إلى القرية وأحضرت معها كتباً كثيرة وزارها راعي الكنيسة فلم يجد في خزانة كتبها نسخة واحدة من الإنجيل، فحضر الناس منها، فأصبحت لعدة سنوات شبه منبودة رغم ما تقوم به من أعمال خيرية في القرية.

يقول لها سالم: لو كنت مكانك لقرأت كل ما في خزانة ”كارلا“ من كتب. تجيبه ”لورينزا“: أخذت في قراءة هذه الكتب بتشجيع من ”كارلا“ فعندما علمت أنني تعرفت على بعض الغرباء في العمل، أخذت تزودني ببعض الكتب وتطلب مني قراءتها لكي أرى العالم بعيون أخرى غير عيون القرية.

يقبلها سالم في عينيها وهو يسألها ما إذا كانت قد بدأت ترى أشياء جديدة؟ تخبره بأنها توقفت في دراستها عند الصف الثامن، وهذا مستوى لم تصل إليه أيٌ من بنات القرية، ولكن الآن أخذت تقرأ كتباً من خزانة ”كارلا“ عن تاريخ الأمم الأخرى وعن الديانات والأفكار والطبقات الاجتماعية وبعض الصحف والمجلات التي لدى ”كارلا“.

يقول لها سالم وهو يرفعها بين يديه: لقد بدأت أنا أيضاً أتعلم منك. تشك ”لورينزا“ يديها خلف رقبته وقدميها خلف ظهره تاركة كفلاها يتذلّى في حضنه وهو واقف فيحيطه بذراعيه ويضممه حتى يستقر داخل حضنه ثم يدور بها دورة تامة داخل الحجرة قبل أن يسقطا فوق فراش القش الذي ينتظرهما دائمًا.



سجناء مدنيون ليبيون تحت الحراسة الإيطالية في جزيرة اوستيكا.

يقفزان إلى الخارج عندما يسمعان طرقات السنيورة "كارلا" على باب الحجرة حين تسمع هذه بدورها إدريس التايب رفيق سالم البراني يصبح في الخارج: "جاك السيل يا بو البراني" خذ حذرك، هناك شخص قادم.

ورغم أن السنيورة "كارلا" لا تفهم ما يقوله إدريس التايب، إلا إن "لورينزا" أفهمتها بأن صياغه يعني تحذيرًا من خطر قادم.

ولكن هذه المرة بعد أن سقطا فوق السرير أخذتهما النشوة وقوه الاشتلاء فلم يسمعا طرقات "كارلا" رغم شدة صياغ إدريس التايب الذي كان يرى حارسين يقتربان من المخزن في جولة روتينية ولم ير سالم البراني يخرج إلى ساحة المخزن بينما رأى "كارلا" ما تزال تطرق على باب الحجرة وتندادي، وأمام خطر اكتشاف الحارسين لما كان يجري داخل المخزن الذي لم يعد يفصلهما عن الدخول إليه سوى بضع خطوات، أطلق إدريس التايب صرخة قوية وهجم على رفيقه رمضان الجالي مفتعلًا شجاعًا معه أخذًا بتلابيه مردداً: "الراجل ما زال في المخزن جوة" الرجل ما يزال داخل الحجرة (يقصد سالم البراني). فهم رمضان الجالي الحيلة على الفور فأخذ يصرخ في وجه إدريس التايب ويصارعه.

فغير الحارسان خط سيرهما وهاجما المتشاجرين وأخذوا يضربانهما بالعصي ليخلقي كلّ منهما سبيل الآخر، ولكنهما ظلا متشابكين ويتصارعان، رغم المطارق التي تنهال على ظهريهما إلى أن رأيا سالم البراني يخرج مهرولاً نحوهما فتوققاً وأخذ سالم يترجم بينهما وبين الحارسين فاختلق سبياً لشجارهما وهو اختلافهما حول فتاة كان كلّ منهما يحبها عندما كانوا في بلادهما.

فأخذ الحراس يقهقحان بينما قام إدريس التايب بتقبيل رأس رمضان الجالي الذي قام بدوره بتقبيل رأس رفيقه تاركين لسالم مهمة توضيح هذا التصرف على أنه يعني التسامح والمصالحة حسب تقاليد بلادهما.

أصاب أحد الحراس بمطربته رمضان الجالي بجرح في فكه الأسفل، فأخذ سالم البراني يمسح بقايا الدم المتجلط حول فوهة الجرح الصغيرة، وهو يعتذر لرفيقه عما أصابه بسببه، بينما انصرف الحراس دون أن يولوا اهتماماً بالأمر، فقد اعتادوا عدم الالكتراش بما تركه قسوتهم واعتداءاتهم من آثار على أجساد السجناء.

عندما ابتعد الحراس غمست "كارلا" قطعة من القطن في زجاجة عطر معها وتناولتها لسالم ليقوم بتنظيف الجرح وتعقيمه في حين أخذ رمضان الجالي يضحك ساخراً وغير مبالٍ وهو يقول: كنت أتمنى أن تقوم هي وليس أنت بوضع البلسم على الجرح.

عندما يترجم سالم البراني ما قاله رمضان الجالي، تبتسم "كارلا" قائلة: أنت ما تزال في عز شبابك وأنا امرأة تجاوزت خريف العمر.

يطلب رمضان من سالم أن يقول لها: "ما زلت درس أجواب" رغم خريف العمر فما تزالين امرأة جميلة.

تضحك "كارلا" وهي تهز سبابتها في مواجهته وكأنها تتوعّد: يا لك من ثعلب ماكر! ولكنني لست الدجاجة التي تبحث عنها.

ينفجر سالم ضاحكاً وهو يترجم فحوى ما قالته لرمضان الذي لم يتمالك نفسه هو أيضاً من الضحك ثم قال لها: أنا لست ثعلباً وقد أكون رجلاً غير

جذاب، أما أنت فقطَّا امرأة رائعة ولست دجاجة.

ترد ”كارلا“ وهي تخطو عائدة إلى المخزن:

”لو التقىتك في زمن شبابي لتزوجتك أيها الرجل الشجاع، ولكن أتمنى أن تنتصروا قريباً على الاستعمار فتعود إلى حضن من تحبك وتنتظرك؟“
تعود ”كارلا“ دون أن تنتظر ردًّا من رمضان، الذي رأى فيه إنسانًا مقهورًا يحلم بما لا تستطيع أن تشاركه فيه.

يعلق إدريس التايب ساخراً بعد أن ظل صامتاً طوال الوقت: ”هذا عجوز أمنبرة ما شافت غير أنت“ هذه عجوز عركتها الحياة، فلا يستطيع أمثالك أن ينال إعجابها.

يرد عليه رمضان الجالي بسخرية مماثلة:

أن تعجب بي أفضل لها من أن تعجب بمن يريد أن يجعل منها زوجه ثلاثة.
كان إدريس التايب قد ترك خلفه زوجتين وعددًا من الأطفال وكثيراً ما كان رفيقه رمضان ينافسه من هذا الجانب.

كانت مثل هذه الأحاديث والمناكفات غذاءهم اليومي للتغلب على شقاء العمل البدني، لكن هذا اليوم انتهى في المساء بمفاجأة محزنة، فقد كانوا يحصلون في بعض الأيام على قليل من البطاطس المشوية ضمن وجبة الغداء، فيحتفظون بها ليعودوا بها إلى رفاقهم في السجن، ولكن نظراً إلى تفتيشهم عند عودتهم في المساء وعند خروجهم في الصباح لمنع إدخال أو إخراج أي شيء معهم، فقد اتفق سالم البراني مع ”ماتيوي“ أحد الحراس بأنه في اليوم الذي يحصلون فيه على نصيبهم من البطاطس

يدفع له ثلاثة فرنكات وهو أجراهم اليومي- في مقابل أن يقوم "ماتيوتي" بإدخال البطاطس إلى السجن.

بعد أن جمع سالم نصيبيهم هذا اليوم من البطاطس وحضر الحراس ليعودوا بهم إلى السجن اكتشف أن "ماتيوتي" قد غادر مبكراً قبل نهاية الدوام دون أن يخبره بذلك، فنصحه رفيقه أن يتخلص من كيس البطاطس فيلقي به على قارعة الطريق ولا يحاول الدخول به إلى السجن، غير أن سالم البراني أصر على المحاولة، لأن في بعض الأيام يتذمرونهم يدخلون دون تفتيش، ولأن رفاقهم في السجن أصبحوا ينتظرون هذه الوجبة مرة في الأسبوع ولا يريد أن يخيب انتظارهم هذا المساء.

وقد وقعت الواقعة في بوابة التفتيش وقبضوا على سالم البراني متلبساً بإدخال كيس صغير من البطاطس المشوية إلى داخل السجن.

نجح سالم البراني، في إقناع إدارة السجن بأن رفيقيه لم يكونوا على علم بما كان يخبيه من البطاطس، فتركوهما يعودان إلى عنبر السجن، ولكن رغم دفاعه عن نفسه بأن ما يحمله من البطاطس هو نصيبيه من وجبة الغداء، فأراد أن يدخلها للعشاء، إلا إن إدارة السجن اعتبرته مذنباً وقررت معاقبته بإحدى عقوبتين، يختار أحدهما.

كانت العقوبة الأولى هي الحبس في زنزانة انفرادية لمدة ثلاثة أيام، أما العقوبة البديلة فهي الحبس لمدة يومين مع حلق شعر رأسه.

اختار سالم البراني العقوبة الأولى لكي لا يفقد خصلات شعره التي تحبها "لورينزا" فأثار ذلك الخيار قريحة الشاعر حسين الفضيل، فنظم ليتها

عدة أبيات من الشعر يشيد فيها بوفاء سالم البراني لحبيبته، وقبوله بأن يقع لمدة ثلاثة أيام في زنزانة مقلفة في الليل والنهار ولا يزيد عرضها عن متروطلها عن مترين، وذلك من أجل أن يحتفظ بما تحبه وتعشقه “لورينزا”.

عندما وصل إدريس التايب ورمضان الجالي إلى عملهما في صبيحة اليوم التالي ولم يكن برفقتهم سالم البراني، أصاب ”لورينزا“ الهلع وأخذت تسألهما محاولة فهم ما حدث، وكان الاثنان قد تعلماً الكثير من الجمل والعبارات بفضل تبادل تعليم اللغة الإيطالية والعربية بين السجناء الإيطاليين والمنفيين العرب.

فهمت ”لورينزا“ من إدريس التايب أن سالم يوجد في زنزانة بينما استطاعت أن تفهم من رمضان الجالي أن البطاطس لها علاقة بموضوع الزنزانة. سقطت دموع ”لورينزا“ من مقلتيها الخضراوين وهي تجهد نفسها من أجل الربط بين هذه الجمل التي تفوه بها محدثها، بينما أخذ إدريس التايب يحاول طمأنتها مردداً جملة يحفظها على ظهر قلب: ليس ميّتاً، ليس ميّتاً.

فهمت ”لورينزا“ أن سالم على قيد الحياة وذلك كان مطمئناً لها، ولكنها لم تستطع أن تفهم علاقة الزنزانة بالبطاطس، وخشيت أن تكون هي السبب بعد اكتشاف ما حصل بينها وبين سالم في اليوم السابق، فأخذت تستفسر من إدريس التايب مستعينة بلغة الإشارة إلى جانب الكلام مشيرة بسبابتها نحو نفسها وهي تقول: هل أنا سبب ذلك؟

فهم إدريس سؤالها فأخذ يردد كلمة، السبب التي يفهمها ويشير نحوها

بسبابته راسماً علامة النفي.

حسمت "كارلا" هذا اللبس فأبلغت رئيس الحرس بأن أحد السجناء غائب عن العمل وما إذا كان هو على علم بذلك فأجابها بأن هذا السجين يقضي عقوبة مدتها ثلاثة أيام في الحبس الانفرادي لأنه حاول إدخال كيس من البطاطس إلى السجن.

لم تتمالك "لورينزا" نفسها فانخرطت في البكاء عندما نقلت إليها "كارلا" الخبر، فأخذت هذه الأخيرة تواصيها وتحفف عنها قائلة: عليك أن تعودي نفسك على هذا الوضع، فقد أحببتي سجينًا أتى به أعداؤه من وراء البحر ليمارسوا عليه كل ما يخطر لهم من أشكال القهر والإذلال.

فتساءلت "لورينزا" بمرارة وعباراتها ما تزال تطغى على صوتها: لم أكن أتصور أن الاحتفاظ ببعض حبات بطاطس من وجبة الغداء لأكلها في وجبة العشاء يمكن أن تكون جريمة تستحق العقاب.

تحمل ابتسامة "كارلا" خليطاً من الأسى والشفقة وهي تربت على كتف "لورينزا" قائلة: سأعطيك الليلة كتاباً وستتعلمين منه أن الرأسمالية الاستعمارية لكي تطوع من تستعمرهم، لا بد أن تجرّم كل أفعالهم التي لها علاقة بالدفاع عن أنفسهم.

ظل سالم البراني أيامًا ثلاثة لا يرى النور إلا لحظة انفتاح نافذة صغيرة في أعلى الباب الحديدي، ليتسلم منها وجبيه اليومية المكونة من قطعة من الخبز الأسود وحساء الحمص، وظل كل من إدريس التايب، ورمضان الجالي يذهبان كل صباح ليواجهها سؤال "لورينزا" اليومي عن سالم فيجيبها

رمضان الجالي إجابة مركبة من اللغة والإشارات تفيد بأن سالم ما يزال في الزنزانة، ثم يشير بسبابته اللاثنتين نحو عينيه ويرسم إشارة النفي، فتفهم “لورينزا” بأن لا أحد يراه، فتعود أدراجها منكسة الرأس وعيناها مبتلّتان، بينما تقف “كارلا” عند باب المخزن تحتضنها عن بعد بنظرات مؤهّلها الشفقة والحنان.

تضع “كارلا” يدها على كتف “لورينزا” لتقودها إلى الغرفة الملحة بالمخزن حتى لا يسمعهما أحد ثم تجلس في قبالتها وهي تقول لها: لقد قاسيت مثل هذا الوجد في أول تجربة حب، ولهذا أستطيع أن أستشعر الحالة التي تمررين بها، ولكن يجب أن تستفيدي من تجربتي، فأنت أحببتي رجلاً سجينًا لا يملك من أمره شيئاً، فإن لم تكوني قوية في مواجهة المفاجآت، فستنهارين من أول صدمة كهذه.

ترد عليها “لورينزا” لأول مرة منذ أن عرفتها بلهجة استنكار: وهل تريدين مني أن أتخلّ عنك؟

تجيبها “كارلا” بصوت حان: لا يا بنيتي، لا أطلب منك ذلك، فالحب الذي بينكما يعد حالة تحدّ فريدة جديرة بالدفاع عنها والحرص على استمراريتها، ولكن عليك أن تكوني متماسكة في حالة حدوث الأسوأ.

كانت “لورينزا” تحاول طوال الأيام الثلاثة التماسك أمام أول تجربة فراق بينها وبين سالم الذي عاد في اليوم الرابع ليروي لها تفاصيل الأيام التي قضتها في الزنزانة دون أن يشعر بالقسوة نفسها التي عانها في تجارب الحبس الانفرادي السابقة.

تنتفض ”لورينزا“: كيف لا تحس بقسوتها، بينما كنت أنا أتعذب طوال هذه الأيام؟

يجيبها سالم: لقد خف عني قسوتها حضور طيفك معي ليلاً ونهاراً، وكانت بداية كل يوم تقرّب من موعد لقائنا هنا.

تتعلق ”لورينزا“ برقبة سالم فيرفعها ويضمها إليه ليعيشَا لحظة لا تحفل بالزمن، في حب يولد كل يوم وغده مجهول على الدوام.¹

1 للمؤلف عدة روايات، منها رواية ثانية تدور أحداثها فترة الحقبة الاستعمارية، وتحديداً 1920 إلى 1930. بعنوان ”أزهار بيضاء على تخوم المقبرة“، صدرت عام 2022، عن منشورات إببidi، مصر.

صندوق الرمل (مقططف من رواية)

عائشة إبراهيم

كان الصباح بهيجاً والهواء خفيفاً برائحة النعناع وحلقت حمائم قمرية فوق أشجار النخيل، ومن بعيد ارتفع ضجيج السقائين وهم يحملون الماء على الحمير من سبالة بومليانة إلى البيوت، شاهد ساندرو الحمير تسير بانسجام في المقدمة، ومن خلفها تتضاحك فتيات بملابس رثة وجدائل طويلة، سرعان ما تفرقن واختفين واحدة تلو الأخرى في الأزقة الضيقة وبين طوابي الصبار، لم يبق إلا حمار وحيد تتعقبه الفتاة بائعة الحليب برفقة شقيقها، ما إن رأته حتى أشاحت بوجهها وزمت شفتيها بعبوس مثير، كانت تقترب منه بخطوات ثابتة، وهو يقف على ناصية الطريق مرتجعاً مثل طائر بلل المطر، فكر أن يلقي عليها تحية الصباح، (بونجورنو سنيورينا) همس في سره فتسارعت دقات قلبه كأنه مقبل على عملية انتحارية.. اقتربت.. اقتربت أكثر حتى لم يعد يفصلها عنه إلا خطوات.. تأملها باندهاش وهي تسير برصانة ملكة: جدياتها الراقصتان، شفاتها الشقيتان المزمومتان، نظراتها المثبتة باتجاه الحمار أمامها، كانت المرة الأولى التي يحسد فيها حماراً، وتمنى لو تحدث معجزة من نوع ما، أن يسقط الحمار في الخندق.. أن يهطل المطر.. أن يفيض الخندق بالماء فتصرخ به مستنجدة.. أن يقفز إلى القاع الموحل ويحمل الحمار فوق كتفيه.. وكانت المرة الأولى أيضاً التي يتبادل فيها الدور مع حمار، لكنها مضت.. دون أن تشكره.. دون أن تحفل

بأمنياته.. دون أن تكترث بالوحل أو بثقل الحمار على كتفيه.. فَكَرْ بَكْل
أمنياته السابقة.. حبياته اللاتي يفضل بينهن فيتوارى خجلًا من أوهامه،
لكن هذه الفتاة الصغيرة عاقدة الحاجبين المتمالكة نفسها باقتدار جعلت
قلبه يرتجف رعبًا وحبيًا، وقبل أن تتوارى وجد نفسه يردد بيًّا من قصيدة
دانتي: ”الجمال هو ما يشعل الروح“، ولما أوشكت أن تختفي عند نهاية
طابية الصبار استدارت وقالت شيئاً بلغتها لم يستطع أن يفهمه، شيئاً ظل
يتردّد في الفضاء الشاسع من حوله دون أن يستطيع التقاطه مرة أخرى.

تنكّب ساندرو بندقيته الكارcano وجراب أمنتنته وقربة ماء شبه فارغة، وفيما
هو على وشك مغادرة الخندق والتوجّه إلى المعسكر مع بقية فصائل
المشاة، اندلعت زوبعة من الرصاص الكثيف من خلف الكثبان الرملية
التي تطّوّق المدينة من الجنوب، بدا الأمر محيرًا، حتى أن أكثر الضباط
حنكة احتاج إلى بعض دقائق لاستيعاب فكرة أن يكون هجومًا من الأتراك
أو العرب، سارع بالقفز إلى الخندق، وتكدّس فوقه أربعة جنود خمّن أنهم
مثله يخوضون مواجهتهم الأولى، بدا ذلك من طريقة ارتمائهم على الأرض
كدجاج خانع، ضاربين بعرض الحائط كل قواعد (دريل) لتدريب المشاة،
تلك التي خضعوا لها طيلة عام كامل حول كيفية الانبطاح أرضاً بقرار واعٍ.
لقد تذكّر الآن أنه ارتكب خطأً جسيماً لا تغفره قوانين الجنديّة، مثبّتاً أنه
كائن عفوي يتحرّك وفق ما تملّيه غريزة البقاء. ولما سمع الأمر من القادة
بإطلاق النار تمنّى للحظات أن يفقد وعيه، كانت أمنية سخيفة وليس هذا
وقت البوح بها، كان أيضًا مندهشًا من سرعة تنفيذ الجنود لأمر الإطلاق،
وخارمه إحساس بأنهم كانوا مدربين أكثر منه وضالعين في مهمتهم

الجديدة بتفانٍ عجيب، وفيما هو يقلب عينيه في الجدار الرمادي الذي تشكّل من الغبار والدخان والزوابع الرملية الناتجة عن انفجار القذائف في الأرض، مرت قذيفة مدوية فوق رأسه مثل العاصفة دفعت قبعته من مكانها وأوّقتها أرضاً، صاح فيه قائد الموقع بحده:

- ماذا تنتظر أيها الجندي الوغد؟

أُسند بندقيته على أكياس الرمل، ألقّمها بأصابع مرتبكة وسحب الزناد متّجاهلاً الصدمة القاسية لارتداده البندقية على عظام كتفه، كرر ذلك بطريقة آلية وسرعان ما اندمج في مهمته وتخلّص من رهبة الاتصال الأول بالنار وتلك الهوة المخيفة ما بين المتوقع وال حقيقي، صار يطلق من دون ارتباك، ويشاهد بانبهار مخلفات الرصاص الفارغ وهي تتكوّم بين قدميه. بعد لحظات لم يعدي يشعر بشيء، حتى ذلك التردد اللولي الذي يحيط بكتلة الرأس ويعظام طنينه في الأذنين، كان قد اختفى تماماً وأصبح رأسه فارغاً كما ينبغي لجندي زائل، ولا يزال الضابط يصبح فيه بإصرار: فوكو!

كان قد أطلق ثمانى رصاصات دفعة واحدة لكن شيئاً لم يتحرّك على المدى باستثناء حفر صغيرة تتفتّح في الرمل مثل زهور من النار، صاح فيه ثانية: - فوكو! اضرب! اسحق.. أطلق من أقصى اليمين إلى اليسار، لا تترك أي ثغرة.

بعد قليل انضمت إليهم وحدات من الفوج الثاني والأربعين بمدافعهم الرشاشة، ليتحوّل الخندق إلى تنين كبير بآلاف الأقدام ينفث النار فتنصره الأنفاس في رائحة البارود، من الجهة المقابلة تنهرم القذائف، تقلع الحشائش المحيطة بالخندق، تثقب أكياس الرمل وتستقر بين حين وآخر

في رأس جندي تعِس، تناقل القادة أن الهجوم يمتد على هيئة قوس من أقصى شرق المدينة إلى غربها، وأن لواء قناصة البارساليري الذي يسيطر على خط واحة المنشية في وضع حرج بعد اختراف سريته الخامسة إثر هجوم عنيف من المقاتلين العرب والأتراك. جاءت التعليمات إلى الضابط شافيز أن يتقدّم مع جنوده لنجدة لواء البارساليري في تل الهاني، حيث يتحصّن العقيد فارا قائد لواء البارساليري هناك.

- الوضع حرج جدًا هناك، إنها حرب شوارع.

قال الضابط شافيز فصعدوا إلى الشاحنات المخصصة لفرق الإسناد. انحشر ساندرو مع دستة من الجنود في المقاعد الخلفية لشاحنة مغطاة بقمash مشمع، وحاول تهدئة التوسكاني الذي استغرق في حالة هلع هستيرية خوفاً على شقيقه في لواء قناصة البارساليري، كان الطقس قد أصبح رماديًّا وتساقطت زخات صغيرة من المطر فوق القماش المشمع غمرت المكان برائحة التبن المبلول، فجأة وبنظرة ساهمة في اتجاه البساتين البعيدة شاهد ساندرو جموع أهالي حي المنشية وشارع الشط ينسلون من كل مكان من الأرض، كأنهم يخرجون من الأجداد، حفاة بثياب رثة وقبعات باهتة بلا لون، مسلحون بحراب وبنادق صيد وأخرى من طراز ألماني حديث، صاح الضابط مخاطبًا السائق:

- فورساً! (اسرع)، سيلتهموننا!

- هي السرعة القصوى في الرمل، المقاومة عالية. أجب السائق.
- يجب أن تفعل شيئاً، سوف تُحاصر، ثم صاح في الجنود، أطلقوا في جميع الاتجاهات.

جثا الجنود على أرضية الشاحنة، وأطلقوا بعشوانية في اتجاه البساتين، لكن الرصاص كان ينهمر عليهم من أماكن لا يمكن التكهن بها، وشعر ساندرو أن شيئاً كريهاً سيحدث لا قبل لهم به، ولم يُطل الوقت بهاجسه إذ سرعان ما غرقت الشاحنة في الرمل، ومن دون انتظار للتعليمات قفز الجميع متترسين خلف إطاراتها، وانهمكوا في حشو البنادق بالرصاص وإطلاق النار ثم إعادة حشوها والإطلاق ثانية، ومن بين قعقة البنادق وأزيز الرصاص والأصوات البدائية التي يصدرها الجنود بلا معنى، يصرخ شافيز بنفاد صير:

- تابعوا الرماية سوف نحاصر.
- الذخيرة على وشك النفاد، صاح أحد الجنود.
- أين بقية الشاحنات؟ صاح آخر.
- يجب أن يرسلوا إلينا الدعم، تابعوا الإطلاق، صاح شافيز.

لم يكن الوقت مناسباً لأي مشارع، لكن ساندرو شعر بالشقة على الضابط وهو يمارس دوره بمثالية في الاستنزاف ضالعاً في قيادة جنوده نحو الموت، إذ إن أي أحمق سيقول إنه يتعمّن عليهم الإبقاء على بعض الذخيرة، فكر أن يرتكب خيانة صغيرة للبقاء حياً، بعد قليل صاح بعضهم مثيراً إلى صندوق الرصاص:

- انتهت الذخيرة!

تسمر شافيز وابتلع ريقه بصعوبة، مسح حبات الرمل الملتصقة بالعرق على جبينه، وأمر الجنود بالانتشار، ركضوا في مجموعات صغيرة باتجاه الأحراش الشائكة، كانت مجموعة ساندرو تضم الجندي التوسكاني

والضابط شافيز وجندىا ضحى من أوغستا مدجّجا بالوشم، توّلى توفير غطاء من نيران بندقيته، لكنه أول من سقط برصاصة في الرأس، وتدحرج خلفهم على كثيب من الرمل، كانت الصدمة الأولى للقتل مريعة، مخزية ومقرّزة، وكل المبرّزات التي تسبق فعل الجريمة بدت لساندرو أكثر تفاهة عند مشاهدة لحظة الاحتضار، ركضوا من دون حزن متوجّلين بين النباتات الشوكية المتبرعمة في الرمال بعد قليل شهق الضابط شافيز وهو يتحسّس كتفه المضرّج بالدم لكنه تابع الركض، وبين الطوابي، في جوف سيقان الصبار الخضراء المفلطحة انحشر ثلاثة باستماتة فوق الشوك المدبّب، ومن بين الفجوات شاهدوا جنود البرسالييري وقد أطبق عليهم السكان وذبحوهم بسلاسل العظام، صرخ التوسكاني وعاد إلى حاليه الهمستيرية مردداً اسم شقيقه بهلع، ثم نهض من قعدهه عازماً على اللحاق به، ارتمى فوقه الضابط شافيز وأطبق على فمه بيديه:

- هل جننت؟ سنموت جميغاً!

- إلى الجحيم!

- أنت تعصى الأوامر!

- دعني أذهب، ذلك أخي.

- تقول القوانين ليس مسموحاً للجندي أن يتخذ قرارات خاطئة، كما أنه ليس مسموحاً له بأن يموت.

- ليس مسموحاً للجندي أن يموت ولكن على معجزة ما أن تحدث كي يظل حياً.

- لن تتمكّن من إنقاذه، ابق هادئاً؛ هذه أوامر عسكرية.

- اغرب عن وجهي.. لن أتركه.

تمسّك شافيز بذراع التوسكاني، استجمع قوته وطرحه أرضاً على الشوك، هدّده بلهجة حاسمة:

- لن تتحرّك من هنا، إذا اكتشفوا وجودنا س甯موت جميعاً بسببك.

لكن التوسكاني لم يأبه للتهديد، استدار وسدّد لكمّة قوية إلى وجه شافيز، فانقلب الآخر عليه بكمال جسده محاولاً كتم صرخاته، وللمرة الثانية يشاهد ساندرو خطأ جسيماً لا تغفره القوانين ليثبت الجنود أنّهم يتحرّكون وفق ما تملّيه أهواء العاطفة، لوهلة بدا له وهو ينكمش في جحّره بين السيقان المسنّنة، أن التوسكاني سيموت خنقاً تحت ذراعي شافيز، لكن التوسكاني سحب سكينه بيده الطليقة وسدّد طعنة في ظهر شافيز جعلته يقفز من هول الصدمة ثم يرتمي مضرّجاً بالدم.

- قتلتني أيها الوغد!

تأوه شافيز، وانطلق التوسكاني باتجاه خندق البرساليري، وقبل أن يصل، شاهده ساندرو من بين ثنایا طابية الصبار الهندي وهو يقع بين يدي السكان الحفاة ذوي الثياب الرثّة، يطبقون عليه الخناق، ويطرّحونه أرضاً، ينزعون ثيابه ويقطّعون بسكين البقر شيئاً من بين ساقيه ويطّحونه بعيداً، ثم يربطون ساقيه بالحبال ويجرّونه على الأرض المرصوفة بالحصى، وهناك عند فوهة البئر يدحرجونه بأقدامهم إلى القاع، ثم يلتقطون جنوداً آخرين، تنتظّرهم نفس النهاية المحتومة.

انتاب ساندرو الهلع وأيقن أن كل ما حدث قبل هذه الساعة هو حقاً نزهه صغيرة له وللحملة الإيطالية على شواطئ ليبيا، وأن الأوّان كي تنقلب الموازين إلى أسوأ ما يمكن توقّعه، لطالما تسأّل: لماذا جئنا إلى طرابلس؟

وبعيدها عن أحالم القوميين، وبروباقاندا الظهور كدولة عظمى، ونزعه الكنيسة لمحق الإسلام، وأطماع الجماهير البرجوازية الصغيرة بامتلاك حدائق الفاكهة، بعيداً عن كل ذلك، جثمت أمامه ذكرى معركة سولفريينو قبل أربعين عاماً، المعركة الأكثر بشاعة ودموية في تاريخ إيطاليا، صاحب بمراة من فكرة النصر المؤزر الذي قاده نابليون الثالث بالتحالف مع الملك عمانويل الثاني، ضد قوات النمسا، النصر الذي يحتفلون به كل عام، وقد كلف ستة آلاف قتيل وأربعين ألف جريح في نصف نهار، النصر الذي احتاج إلى أسبوع كامل لإزالة الجثث المتعرّضة عن الأرض، ولما شاهد جنود البرسالييري يتقدّمون كالفيران المذعورة، يطاردهم أهالي طرابلس في شوارع المنشية ويخصّونهم بسلاكين البقر، أيقن أن انتصار سولفريينو الأسود هو مصير محتمٍ يطارد تاريخ إيطاليا بظلمامية مقيدة، كان الوقت قد تأخر ليستوعب ما قاله مؤرخ روما العظيم تيودور مومن، عندما سُأله السياسي كويينتينو سيلا، ما الذي تنوون فعله بعد أن تحرّرت إيطاليا من الاحتلال النمساوي؟ بالنسبة إلى مومن كان يتصرّر أهداً حضارية سامية، إلا إن كويينتينو أجاب: استعادة أمجاد روما. حاول ساندرو أن يخفّف عن نفسه وطأة الشعور بالوعي، لكنه لا يستطيع أن يدفن رأسه في صندوق الرمل، ويتجاهض عن جنون روما الثالثة وريثة روما الإمبراطورية، ثم المسيحية، روما الاستعمارية ذات الجرائم المخجلة والطموح المخزي، تمّحط وبصق شيئاً مِّرّاً على ألواح الصبار، وتنبئ إلى شافيز وقد استغرق في نوبة من الأنين بصوت مرتفع، حاول تهدئته، لكنه بدا غير واعٍ بنفسه، زحف نحوه بحذر، فلّأربطة الحذاء الطويل، نزع جوريه من قدمه وحشره في فمه، لكن ذلك لم يجدي نفعاً، إذ أصبح أنينه مثل خوار ثور تشتعل من تحته النيران، حينها

جاء الوقت لارتكاب خطأ ثالث لا تغفره القوانين، متصالحًا بسلام تام مع الفكرة التي تقول: "المصلحة السياسية تبرّر الحرب"، لتصبح وفق الحالة الراهنة: "المصلحة الذاتية تبرّر القتل"، موقئًا أنّ القاطنين في صوامع الفلسفة لا يعرفون على وجه الدقة ما يحدث في خط النار، لقد جاءت اللحظة الحاسمة للكفر بكل الأحلام الوطنية، والتبرؤ من كل النزعات الطموحة التي ألقى بهاهم في صندوق الرمل الكبير، الصندوق الحارق مثل ثور صقلي ينفث الدخان، ما إن دوّت زوبعة أخرى من رصاص كثيف متواصل، تراجع إلى أبعد مسافة ممكنة في الجحور الشوكية، سدّد الفوهة وأطلق الرصاصية الوحيدة التي احتفظ بها، كانت إصابة موفقة، إذ إن جسد شافيز انتشر من مكانه بضعة سنتيمترات عن الأرض، ثم همد إلى الأبد.

كل ما يعرفه، وما سيقصُّه لاحقًا في مقاهي المحاربين القدامى الذين فقدوا أطرافهم وأسنانهم وأجزاء أخرى مهمة لحياتهم، أنه حدثت معجزة أسهمت في بقاءه حيًّا يوم واقعة شارع الشط، وباستثناء الخدوش الغائرة التي حفرها الشوك على جسده وتلك القفزات الهلعة التي تنتابه خلال النوم، إضافة إلى سلس البول الذي لازمه طوال الحياة، فإنه لا شيء يوحى بما كان هناك، فعندما جاءت شاحنات الدعم قفز باتجاهها بهستيرية ملؤًّا بفردة جورب الضابط شافيز، ملقىً بالبندقية وراء ظهره وبأطنان من المقولات عن الشرف العسكري الذي يرقد على قنطرة الزناد.

في المساء أحصى الضباط أعداد القتلى، جمعوا الجنود في باحة المعسكر ونادوا الأسماء من قوائم مكتوبة، لما سمع اسم ساندرو كومباريتي من ميلانو، غصَّ الصوت في حلقه، تلمس أطرافه ليتأكد أنه لم يكن هناك في

البئر مع التوسكاني التعيس. كرر الضابط النداء متهيئاً لوضع علامة (X) أمام اسمه، أخيراً أجاب بصوت مخنوق:
- حاضر.

رمقه بنظرة تبرُّم ونادي الاسم الذي يليه: فرانش فيليس من توسكانة، خيم الوجوم على الجميع، كرر الاسم ثانية، ثم رشم العلامة المحتومة.
- فقدنا خمسمائة جندي وواحداً وعشرين ضابطاً.

قال الضابط لرئيسه وهو يسلمه القائمة، عاد ثانيةً ووجه حديثه إلى الجنود:

- بإمكانكم كتابة رسائل الليلة إلى ذويكم استباقاً لما يمكن أن تسبّبه الأخبار المروعة لهم من قلق.

كان يريد أن يكتب رسالة إلى الآنسة كريستين، ثم تجاهل ذلك، فكل التقارير الإخبارية التي أرسلها إليها وجدها منشورة، في نسخ الصحفية التي تصل مرة كل ثلاثة أيام، بمعلومات محرّفة ومكتظة بمخالفات انتقائية، وبشيء من الخيبة تراجع عن التفكير بإرسال رسالة إلى جيا جارسيندا حيث لم يصله رد على رسالته السابقتين، وهي التي كتبت له عنوانها بخط يدها في تلك الليلة السعيدة ودعته إلى مراسلتها قائلة: اكتب لي بكل ما في قلبك.

في القلب لم يكن هنالك شيء سوى الخواء، وشعور بالتفاهة والانحطاط، لطالما كان تقديره لنفسه عالياً ويعتقد أنه مشروع رجل صالح، يلبي أوامر الواجب بكل إكبار ويقهر بصبر قديس كل ما في نفسه من نزعات الأنانية، وعندما استدعته قيادة الجيش للتجنيد الإلزامي والالتحاق بالحملة

العسكرية على طرابلس، تجنب مغالتة القوانين أو التشكيك في نقاها، وعَدَ هذا النداء صورة أخرى لمعاني المواطن، أما اليوم وهو أمام ما يمكن أن يسميه صفعة أخلاقية أطاحت بشرف الدولة والجيش والصحافة والبرلمان والحكومة لم يعد راغبًا إلا في الانزواء بعيدًا أو الموت، شريطة ألا يُكتب اسمه على الأنصاب التذكارية للجنود الأغبياء الذين ظنوا أنهم ماتوا في سبيل الوطن. لقد بات من الواضح الآن، صبيحة اليوم الثاني لمعركة شارع الشط، أن الموت الذي نجا منه بأعجوبة عند طيبة الصبار الهندي هو أقصى ما يتمناه اليوم، ذلك أن الموت وكما في كل الأزمنة هو السبيل الوحيد لمسح العار. بدا الصباح فاجعًا منذ أول خيوط الفجر، في منتصف الباحة، عند سارية العلم الذي كان حتى تلك اللحظة منكسًا حدادًا على أرواح البرساليري، غنى الجنود نشيدهم الصباغي:

أمامه صلٌ ولا تبكِ، بل اضحكِي وتأملي

ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني ؟

وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسرورًا

لأنزل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة

ولأحراب الديانة الإسلامية

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن

ليس للجد من لم يمت من أجل إيطاليا

تحمّسي أيتها الوالدة

وإن سألك أحد عن عدم حدادك علىَ

فأجيبه مات في محاربة الإسلام.

في تلك الأثناء ظهر الجنرال كانيفا محاطًا بضباط آخرين قضوا الليل وهم يعلقون الدبابيس والنجمات وشارات النصر على كل مكان من قباعتهم وملابسهم العسكرية، لقد بدوا أكثر وجاهةً ومنعةً من أن تتبادر إلى الأذهان فكرة الإحباط أو الهزيمة، وأمام بريق الكتفتين الضخمتين المقصبتين بخيوط الذهب اللتين ارتداهما كانيفا، أصبح بالإمكان التغاضي عن كل ما حدث في الأمس المشؤوم، كانت المرة الأولى التي يوجّه فيها حديثاً مباشراً إلى الجنود، والمرة الأولى التي يعطي فيها مبرراً لقرار عسكري اتخذه دون العودة إلى الحكومة، مع الوقت وبعد أن عاين الطليان قسوة الطبيعة الرملية في موقع القتال سلّموا أن كانيفا، وخلافاً لاتهامات جوليتي له بالتخاذل، كان محقّاً لأنّه لم يسمح بنحر سرية سلاح الفرسان في صندوق الرمل الحارق، لقد سمح فقط بنحر الطرابلسين. وعندما طلعت الشمس كان الجنود يركضون كالجاموس الهائج باتجاه واحة المنشية، يطلقون النار على كل من يصادفهم، ويتفوّهون بتلك النداءات المهولة "من لم يسلم سلاحه سوف يقتل رمياً بالرصاص"، وكان الضابط ذو العنق الأحمر الذي تولّى قيادة سرية ساندرو بديلاً عن شافيز: يصرخ بعروق نافرة دفعت المزيد من الدماء إلى عنقه: اقتلوا الخونة الملاعين، ومن بعيد تأتي أصوات الهلع والضجيج والرصاص وقطّعة النيران في البيوت المحترقة، وصرخ النساء والأطفال، والشهقات المروعة للقتلى الذين ذبحوهم بين أهاليهم، ركض ساندرو متوجّهاً من صلابته في مقاومة الرمل ملامساً حقيقة اندماجه الجديد، أطلق النار كما ينبغي، سمع حشارة قتلاه في لحظات احتضارهم، ألقى الأغلال في معاصم المشتبه بهم لاقتيادهم إلى ساحة الإعدام، وللمرة الأولى يستذكر بدقة قواعد دريل دون أن يكفر بشيء منها:

لكي تكون جندياً لا بد أن تنصرف مع الآخرين فيما يؤدون من مهام، لا بد أن تخضع للدوران الجماعي كي لا تنسحق أمام الركض المعاكس، مضيفاً قاعدته الخاصة: لكي تكون جندياً لا بد أن تتحرر من غائمة الوعي.

كانت الجثث مكونةً أمامه على امتداد البصر، ورائحة الدم الساخن تتغلل في حلقة، يملؤه صرخ الفتى اللاتي اقتادوهنَّ من بيوتهم إلى وجهة غير معلومة، وأمام البيت الحجري المسamt لمزرعة شبه جراء وقف الضابط ذو العنق الأحمر بعيداً وأمر الجنود بالاقتحام، ركل ساندرو الباب بقدمه وقبل أن يخطو إلى الداخل سحبt امرأة عجفاء تلتحف رداءً أسود عموداً المنساج من نولها، وهوت عليه بصرية غير موققة، ذلك لأنه سبقها فأطلق النار. شاهد الدم يتدفق من حزامها، في اللحظة ذاتها وثبت الفتاة بائعة الحليب وشقيقها الصغير من مخبئهما يصرخان ويرغنان وجهيهما على جسد الألم المسجّى على الحصى، وقف مشدوهًا بلا حراك، متحطّماً كتمثال من الرمل، مصروغاً بنظرتها الغامضة وبوعي انكساره الأبدى، أدرك في اللحظة التالية أنه كائن بائس، محكوم بقدريّة العار، كان دائمًا يخاف من أهوال المعركة، من الرصاص والنار والخنادق والدم، ومن السقوط جريحاً ويتخلى عن الرفاق، إنه بمعنى آخر يخاف من الخذلان، نعم الخذلان، وخزت الفكرة رأسه مثل إبرة مسمومة، مثل طعنة، أو بالأحرى، مثل نظرة الفتاة الآن، داهمه إحساس أن نظرتها تدحرجه إلى قاع البئر حيث ذهب التوسكاني من دون رجولته، وتمني أن يتحطم سريعاً في القاع كنهاية رحيمة لسقوطه المريع، كانت الفتاة ما زالت تصرخ وتتلمس حزام أمها النازف وتلطم وجهها بالدم، حين دخل الضابط وصاح مشياً إلى

الفتاة بالعنف ذاته الذي يتدفق من عروقه النافرة:
خذها إلى الشاحنة.

ذهل وهو واقف قبالتها، تجمد للحظات في محاولة للاستيعاب واستقبال فكرة مشوشهة حول كيفية أخذ فتاة إلى مكان ما بطريقة صحيحة غير حملها مستلقية على الذراعين، شعر بالدم يهرب من رأسه ومن عروقه ومن فراغات عينيه ونظر كما تنظر فزاعة من القش فاجأتها صاعقة، صاح الضابط الثانية بزمرة مدوية: الفتاة، خذها حالاً، ماذا تنتظر أيها الوغد؟ انحنى عليها من الخلف، مطوقاً خصرها بقبضتيه من الفولاذ، وسمع في اللحظة ذاتها شهقة نَرَت عنها بمزيج من التقرُّز والوجع والصدمة والاحتقار، ونشبت أظافرها تمزق ظاهر كفيه وهي تصرخ محاولة الافتراك، ومع ذلك تابع مهمته بسرعة قصوى مختصرًا قدر الإمكان اللحظات السمسجة لاحتراك رأسها على صدره وهو يجرجرها على الرمل، راسمة بقدميها الحافيتين أحاديد كبرى على خريطة وعيه الحضاري، في اللحظة ذاتها سمع آخر نداءات الأُم من بين حشرجاتها، كانت تهتف باسمها: حليمة، حليمة، هكذا سمعها تنادي اسم الفتاة وتقول شيئاً يبدو مهمًا جدًا بالنسبة لأُم في آخر لحظاتها، ولفتاة تساق إلى مصيرها المجهول.

الرحلة

مروان جبودة

1. للحكاية

لحكايات جدّي تأثير كبير في قلبي، فمنذ الصغر وأنا أراه أمهر الحكائين، أسلوبه في السرد ساحر ومتين، يشعرك أثناء حديثه أن القصة تحدث الآن في زمن تلاوته لها، يتقمّص شخصياتها ويلبسها، فيعلو صوته تارة وينخفض تارة أخرى. تتغضّن جبينه وتنفج، ترتعش شفاتها وتتهذّل، وعيونه تتبدل، كأنك ترى الشخصية نفسها في الحكاية، ويظل يمسك بخيط السرد بمهارة الفنانين فلا تكاد تلتفّت أنفاسك وراءه، وإذا صمت قليلاً فإنه يرى وراءك ذلك الزمن الذي عاش فيه وتلك الوجوه الكثيرة التي عبرت أمامه.

تشغل وجديني مع حكايات جدّي، تعلّقت به، وكنت ملاصقاً له دائمًا في النهارات الصحوة، أتبعه وأرافقه، منبهراً بقدرته على نسج كل هذه الحكاية وبذاكرته الفتية، وفي تلك الليلة الشتائية التي نسي فيها ذكري ما، قرّرت أن أكتب، سأكتب رواية تؤرّخ لذلك الزمن بتنقلّاته وتناقضاته، سأكتب انتصاراً للذاكرة، ذاكرة جدّي.

2. تلك الظهيرة 1933

كان بلقاسم يشرف على العمال في حقل الرومي ويتابع حركتهم وهم يميلون

بأجسادهم النحيلة بطريقة رتبة أثناء حفرهم الأرض، وقد رموا وراء ظهورهم كل آلامهم، ورغم وهن أجسادهم فهم يقومون بهذا العمل الشاق دون أي شكوى أو ملل، فلولا تلك القروش الزهيدة التي يتحصلون عليها نهاية النهار، سينتهي بهم المطاف موتى من الجوع، أو مهاجرين بحثاً عن الماء والغداء، فلذلك تراهم لا يشتكون من التعب مطلقاً، فمن يعمل أكثر يعيش أطول.

يمتطي بلقاسم جمله معتدلاً بنفسه على المكانة التي اكتسبها عند صاحب الأرض، يحسده عليها الجميع، وقد وصل ليكون كبير العمال أو "الكيران" كما يقولون، وصل إلى ذلك بسرعة وهو لم يتجاوز الثلاثين عاماً لما يحظى به من بصيرة وذاكرة وقادة، فهو يعرف الشخص من آثار أقدامه على الرمال، فإن سرق أحدهم شيئاً يكفيه نظرة واحدة على تلك الآثار حتى ينطق باسمه.

عند الظهيرة عندما بدأ الخدر يتسلل إلى رقبته وهو يخطو ذهاباً وإياباً، علم أن وقت الراحة قد حان، راحته هو وراحة هؤلاء العمال، ولقد شعر بتباطؤ العمال وتکاسلهم فقرر أن ينتظر ساعة أخرى قبل أن يصرفهم، ثم قرر أخيراً أن يوقف العمل تحت وطأة النعاس، صاح بهم ليتوقفوا وغادر عائداً إلى بيته.

وصل إلى الخيمة وقد وجد حصاناً بالقرب منها يجتر العشب بسكينة وامرأته خارجاً جالسة على قدر غدائها، وكلبه الأعور ينظر في غير اكتراش، تجاوزها ودخل. وجد ابن عمه محمد الذي خرج مع القافلة قبل عام نحو الجزائر، عانقه محمد الذي كان أقل منه طولاً، بكى كأنه احتفظ بدموعه ردحاً من الزمن، نزلت حارة على خديه، اختلطت دموعهما معًا.

قبل أسبوع وهو في السوق يشرب الشاي، سمع الأخبار حول انتشار مرض

غريب بين الناس وقد أرداهم موتى بالآلاف، لم يكن يشعر بأن لذلك أهمية لديه.

لن تصدق الأمر، الموتى بالآلاف، هربنا من الرصاص فاجأتنا الحمى.
ماذا عن البقية؟

مات أبي وأمي وكذلك أبناء أخيك المختار وزوجته، وحالك عبد الله يتهدى في الركب وكاد يموت، القافلة خلفي مسافة يومين.
لنأكل ثم نتصرف لاحقاً.

خيème بلقاسم كانت قرية من خيمة الرومي، صاحب الأرض وهو مزارع إيطالي أحضرته السلطات مع عائلته إلى ليبيا مع انتهاء الحملة الإيطالية الأولى لاحتلال البلاد والتوجه نحو خطط التنمية ومنها استصلاح الأراضي، مكث عشر سنوات في طرابلس ونجح في تنظيم الأراضي الزراعية خارج العاصمة، وكذلك في تقوية الحزام الأخضر المحيط بالمدينة، والذي يمنع عنها رياح القبلي الساخنة المحمّلة بالأتربة، وعلاوة على كونه ماهراً في عمله فقد كان يحظى بصداقه الليبيين ويتعاطف معهم، وكان يردد دائمًا: "أنا هنا لا أحمل البندقية، بل أحمل فأساً لأجل أرضكم، فكروا في أن هذه الأرضي التي نصلحها، ستكون لكم في نهاية الأمر"، ومع نجاح الحملة الإيطالية الثانية مطلع الثلاثينيات نُقل إلى الجبل الغربي (نفوسة)، وقد راق له ذلك كونه كان على اعتاب مرض صدرى لولا أن ذلك الهواء البارد الذى كان يستنشق كل صباح ويدخل إلى أعماق صدره أسهם إلى حدٍ كبير في انحسار المرض.

بعد الغداء مباشرة غادر نحو الرومي وقد وجده مستلقياً في خيمته الكبيرة ذات المعدات والأشياء التي لم يعرف يوماً كنهها، وقف أمامه ثم نظر إليه بعينيه الصغيرتين، الرومي يعرف ماذا تخبي تلك النظرة، ولذلك التفت إليه ليسمع وقد تحدث:

يا سي جيوفاني، لقد حدثتك منذ زمن عن أهلي الذين غادروا للتجارة وأنا رفضت وقررت العمل هنا، إنهم على مسافة يومين، جاءوني رسول منهم وقد حذّنني عن المرض الذي انتشر في البلاد القريبة، أعتقد أنهم مصابون به، وربما البعض.

نهض جيوفاني وقطع قيلولته، خرج مع بلقاسم، سارا قليلاً تحت أشعة الشمس الدافئة، من يراهم من بعيد لا يميز بين من هورب العمل ومن هو الأجير، مرّ كلاهما خلال الحقل، مسح الرومي بعينيه الأرض ثم التفت إلى بلقاسم: ”يبدو أن العمال نشطين هذا اليوم“، بعد قليل توقفاً عند الأرض اليابسة قرب الهضبة، كانت تقع خلف البيدر شرقاً بالقرب من بئر المياه غريبة الطعم.

هنا يا بلقاسم. هنا تجلب بعض العمال يبنون خمسة خيام ثم تحيط هذه الخيام بعيدان الخشب، واحرص على تزويد الخيام ببراميل كبيرة من المياه الحلوة.

غادر الرومي وظل بلقاسم واقفاً ينظر إلى التراب؛ إلى السراب، ومن السراب تنبثق البيوت وتشتد العيدان.

خمس قطع من القماش جنباً إلى جنب والحبال تربطها، ثم يؤخذ من

أطرافها بحبال أكثر قوة وأقصر طولاً، وعند نقطة ما في الأرض يرتفع عمودان صلبان من الخشب مبعدين من الأسفل ثم يقتربان من الأعلى حيث يلتقيان في ركiza يوضع عليها القماش وهكذا كظهر الإبل، الخيمة تفتح ناحية الشرق ناحية القبلة، قبلة الصلاة التي لم يتذَّكر متى اتجه إليها آخر مرة، ربما في العيد السابق، وفي الطرف الغربي تهبط ستارة من قماش أقل كثافة، وهكذا بنى البيوت الخمس قبل أن تحيطها العمدان، عندما رفع العمال رؤوسهم وانتهى العمل آخر النهار، فجأة شاهدوا الحياة تدب خلف البider.

3. قبل الهروب

فتح المختار عينيه في الظلام إثر رذاذ رطب أصاب وجهه، في تلك اللحظة غرس يديه في خصر زوجته ثم انقلب إلى الناحية الأخرى.

نهضت زوجته وخرجت وهي تحمل الرزام (عصا صغيرة ذات رأس دائري)، توجّهت ناحية شجرة السرو واختارت العيدان الصلبة ثم قبضت على كومة من القش الجاف، ربطت العيدان ووضعت القش تحت لباسها، رمت الكومة داخل البيت، الريح كانت شرقية، أنزلت ستارة الأمامية للبيت ورفعت ستارة الخلفية، ومَرَّت على قطع القماش من الخارج، شدتها أكثر وضربت على الأوتاد، كانوا خمسة، تنهَّدت ثم عادت للنوم، الفجر لن يطلع قبل ساعتين.

4. الحمى

يدخل الخريف وقد يتأخر المطر، فيخرج الناس إلى الأراضي الواسعة ومعهم الأطفال والعجزة، ولا يسمح بالحضور لمن عليه دين أو مخاصمة مع أحدهم، ولكن من هو ذاك صاحب حجر الخطيئة، تقلب الألبسة وتتهلل الشفاه، وترفع الأكف إلى السماء طلباً للمطر.

في ذلك العام تغيّر الحال.

هطلت الأمطار بغزارة، حتى اضطر الأمر إلى زيادة الأغطية فوق البيت، وتحصينه بأكواخ من الرمال حتى لا يعوم، استمر المطر لأيام، تحركت الأودية وتكونت البحيرات وغمرت السوادي وكشط السيل كل شيء أمامه، وتوقف المطر، وركدت المياه ومن المياه فقتست بيوض البعوض.

كان الأمر شائعاً أن يصاب أحدهم بالحمى وآلام المعدة، ويكثر ذلك بسبب تقلبات الجو، وما يحدثه، حتى قرصات البعوض أمر اعتيادي، ولكن الدملة الصغيرة فعلت بالجسم كما تفعل الجمرة في القش، ارتفعت حرارة الأجسام وذابت الأعین في حرق الدموع، وتشققت الشفاه وذبل الجسم رغم منقوع الأعشاب والدهانات الكثيرة، وتكرر الأمر مع كثirين.

سمع المختار أخبار الموت بينما يعبر الدروب الضيقة خارجاً من السوق، قبض على الأوراق اليابسة في غيظ وأسرع خطاه.

رمى الصرة أمام زوجته الجالسة أمام الأطفال المرضى، لم يعلم كيف حدث هذا، ومن هو أول المصابين؟ وأين أصيّب؟ وضع يده على جباههم الواحد تلو الآخر، وكأنه اقترب من النار، "ضع هذه الأوراق في ماء ساخن واتركها

لفترة حتى تبرد ثم أزل هذه الأوراق واجعلهم يشربون منها كأساً كبيرة“
صاحب الدكان قال ذلك.

مرّ على عمه وأخيه وهو في طريقه إلى هنا، طلب منهم اللقاء هذا المساء،
المبروك لم يكن موجوداً.

كانوا ثلاثة وضوء الفنان يحاول مجازاة الحديث، المختار وعلي وعبد الله،
رأى أنه من الحكمة تحمل المسؤولية أمام أمر كهذا، ولذلك لم يضع اعتباراً
لكونهم أكبر سنّاً منه وعليه دائمًا طاعتهم، قد تحدث معهم منذ أيام عن
مغادرة هذا المكان المسكنون برائحة الموت، قال ذلك: ”الموت يقترب منا،
 علينا المغادرة“ حاله عبد الله رفض ذلك بينما يحاول صف أوراق التبغ بعناية
على الورق، عمه علي صامت طوال الوقت وينظر في غير اكتراث، وهو يعلم
مدى تأثير عبد الله في علي، لكنه قرر بالفعل المغادرة.
عند الفجر سأنطلق.

صمت وأخذ بيده كوب الشاي محاولاً الانشغال به عن أعين خاله الذي قال:
اسمع يا ولد، هنا مكان أفضل للحياة، ثم إن تجارتنا تتعافى يوماً عن يوم،
هذه الحمى تأتي كل عام وتزول مع شمس الربيع.
وعندما تزول هذا العام تكون قد أخذت كل شيء.

في نهاية السهرة اقتنع خاله، سيفادرون بعد الغد حتى يعود الأبناء من
الحرث، قال لهم إنه سيسبقهم وألا يستعجلوا في المسير، لكنّ خاله أمره
بأن يتناول قليلاً ما دام الجميع اتفقوا، وهذه الرحلة الطويلة تحتاج أن يكون
الجميع في ركب واحد.



ليبيون داخل الحجر الصحي، بداية الاحتلال الإيطالي بسبب وباء الكوليرا الذي
تفشي بطرابلس سنة 1911.

ينقسم البيت إلى نصفين بواسطة ستار، مكان حيث العائلة تنام وتطبخ في الشتاء وتأكل وفي الجهة الأخرى يجلس الضيوف، وبينهما عند المنتصف تماماً بين الركائز يتم تخزين الطعام وما يلزم تخزينه، زوجة المختار في الركن الآخر من البيت وقد سمعت كل شيء، هو لم يستشرها في الأمر ولكنها فكرت أنه القرار الصحيح، فالأولاد المرضى قد يجدون علاجهم عند الابتعاد من هذه المنطقة.

كانت دائماً لا تناقشه في شيء ولا هو كذلك يسألها، هي تعلم أنه هكذا منذ الصغر نشأ كقط بري، ومن الصعوبة أن يرضخ لأحد، دائم السفر والترحال، ويحسن دائماً أنه الأقل شأناً بين إخوته وأقلهم حظاً.

بدأ الجميع في تحصيل ما لديهم من رزق، رؤوس من الغنم والإبل وبعض الدجاجات، أكياس من الشعير والقمح، والحبوب التي من المفترض أن يتم بذرها هذا العام، ومستلزمات البيت وأدواته.

نام المختار تلك الليلة وكأنه يوشك أن يطير من الخفة، هكذا رأى نفسه في المنام أنه يطير بجناحين ضخمين، كان يرى كل شيء من فوق كما في السنين البعيدة وهو يتسلق الشجرة الضخمة أعلى الوادي ويشاهد المنحدر.

حينما يغيب عن الأعين وتهبط الشمس وراء الأفق، وتبدأ حياة الليل بكل وحشتها، يصعد والده بالمشعل والكلب، يعلم أنه سيجده هنالك غارقاً في تأملاته فوق الشجرة لا تحتها.

5. أحمد الجبالي

في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، دخلت بقرة إلى مزرعة أحدهم وأحدثت ضرراً بها، خرج صاحب المزرعة وقتل البقرة وعاد إلى بيته.

لم يعلم أحد أن تلك البقرة كانت ناقوس خطر ينبيء بما هو أخطر، الحرب الأهلية في الجبل الغربي (نفوسه) أو الفتنة تلك الكلمة التي ستجري على الألسن في ما بعد، لكنَّ الجميع استهان بالأمر وظنوا أن الأمر عادي، لكن ماذا حدث؟ انتشرت نيران الحرب مرة أخرى في كافة القرى العربية والأمازيغية والمختلطة منها، عادت من جديد بعد ستة أعوام عن حادثة صغيرة تم تجاوزها، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن إلا فترة للاستعداد، فبعد أن عاش الناس لفترة طويلة متراطرين ومنسجمين كأحجار صغيرة في تلك الفسيفساء، كان لا بد من حرب ما تتعش تلك النفوس التي كانت تتغذى على القصص البطولية وتحيي ما كان غائراً لوقت طويل.

الابن الأكبر لأحمد الجبالي يدعى محمد، وقد كان متعطشاً لدخول هذه الحرب رغم اعتراف والده الشيخ الكبير، هذه الحرب التي كانت فرصة لأولئك الصغار الذين أرادوا إثبات رجولتهم أمام أعين الصبايا وزغردتهن، الابن خرج إلى الحرب والأب قرر الخروج من الجبل والاعتزال عن هذه الفتنة، فلم يدُر بخلده البتة أن يأتي ذلك اليوم الذي يحمل فيه السلاح ضد جاره وصديقه.

قرر أحمد الجبالي المغادرة إلى الجنوب إلى ابنته المتزوجة من أحد الأقارب، وفي صبيحة ذلك اليوم مشى قليلاً في الأراضي المحيطة، يتفقد

المكان كأنه لن يعود مَرَّةً أخرى، يقولون إن الإنسان يشعر بأنه يموت قريباً، أنت ورقة في شجرة ضخمة، في فترة ما تكون شديد الاخضرار مزهواً بقوه بدنك وعافيتك، ثم ما تلبث أن تتلّقى هذه الورقة الرياح والغبار وصروف الدهر حتى تمتص و تستنزف ما استطاعت من الحياة، ثم تبدأ في الخفوت، في الذبول، حتى تصير يابسة هشة، هو هكذا يحس الآن أنه أصبح هشاً، قابلاً للكسر، مشى حتى وصل إلى منزله الأول وقد بدأ النهار في الانسلاخ وتوارت تلك العباءة النورانية تحت الجبل، أضناه التعب، دخل إلى الداموس الذي قام بحفره قبل نصف قرن، شعر بارتفاع بدنـه، أحسّ كـم هو ضعيف، عندما حاول أن يقف خـذلهـ قـدـمـاهـ، ظـلـ يـرـدـدـ بـعـضـ الأـورـدةـ وـالـأـذـكـارـ، وـلـكـنـ لـمـ يـمـتـ، دـخـلـ عـلـيـهـ اـبـنـهـ مـحـمـدـ وـهـ يـحـمـلـ بـارـوـدـتـهـ فـيـ يـدـ وـفـيـ الـأـخـرـىـ الـفـنـارـ، تـلـاقـتـ الـأـعـيـنـ، اـقـرـبـ مـحـمـدـ.

ـ العائلة قلقة عليك، قالوا إنك خرجت منذ العصر.

ـ وأنت يا ولدي ألسـتـ قـلـقاـ علىـ أـبـيـكـ الشـيـخـ.

ـ أنا أكثرهم.

ـ ألم تفـكـرـ فـيـنـاـ إـنـ قـدـيـتـ فـيـ هـذـهـ الـفـتـنـةـ؟

هـذـهـ حـربـنـاـ فـهـلـ نـتـرـكـ غـيرـنـاـ يـقـومـ بـهـاـ، وـإـنـ لـمـ أـكـنـ قـاتـلـاـ سـأـكـونـ قـتـيـلـاـ.

في الظلام شـعـرـ الشـيـخـ أـنـ هـذـاـ المـوـقـفـ وـالـحـوـارـ قـدـ تـكـرـرـ قـبـلـ سـنـوـاتـ فيـ تلكـ الـحـرـبـ الـبـعـيـدـةـ، وـابـنـهـ الـآنـ كـأـنـهـ يـتـحـدـثـ بـلـسـانـهـ، يـقـولـ تـلـكـ الـكـلـمـاتـ التيـ خـرـجـتـ مـنـهـ وـقـتـذـاكـ.

عادـ الشـيـخـ أـحـمـدـ الجـبـالـيـ إـلـىـ الـعـاـيـلـةـ وـغـادـرـوـاـ جـمـيـعـاـ مـعـ فـجـرـ الـيـوـمـ التـالـيـ،

لكن الشيخ لم يصل إلى ابنته، ومحمد لم يصل إلى نهاية حربه، فقد تعب الشيخ في الطريق وخارط قواه بعد ثلاثة أيام، وابنه محمد تلقى رصاصة في رقبته، زارهم الموت في ليلة واحدة، الشيخ كان يهذي بكلمات، ومحمد لم يستطع تحريك لسانه، في الصباح خرجت أرواح كليهما بعيداً.

6. في الطريق

الرحلة استمرت أسابيع طويلة، من أقصى الغرب الجزائري نحو الشرق حتى جبال ليبيا الغربية، وقد قضى نحو عشرة أفراد من عائلة الجبالي موئاً بالحمى، مقابل ولادة ذكر صغير ستكتب له الحياة.

أثناء الطريق كانت المشاهد مروعة، حيث كثيرة مرمية تحت الشمس وتحت أنظار الطيور الجائعة، بطون مبقورة تتدلى منها الأمعاء وعيون مفقوعة، لم يكن الأمر كذلك أثناء إقامتهم بالقرب من المستنقعات، أشبه بالمناعة المكتسبة لمن عاشوا هنالك طوال عمرهم، فقد كان من الملاحظ ندرة الإصابة بين سكان تلك المناطق.

منذ اليوم الأول مات أطفال المختار الثلاثة، نزل عن جمله وحفر لهم حفرة واحدة ومضى في طريقه بينما كانت زوجته تبكي، هو ظل صامتاً طوال الوقت ووجهه لا يحمل أي إشارة، بعد أسبوع سقطت زوجته من راحلتها أثناء النهار، أحس أنه فقد كل شيء، قبل أسبوع كانت له عائلة؛ زوجة وأطفال، أما الآن فقد أصبح وحيداً، لم يستمر الأمر طويلاً، زوجة عمه علي ماتت أثناء نومها.

يتم التعامل مع الموت كأن توقن ناراً للعشاء، حدث عادي يمر كغيره من

الأحداث الأخرى، فلم يكن الفرق عندهم واضحًا بين الموت والحياة، فهل كونك تستطيع التنفس يعني أَنَّك حي؟! ما قيمة الحياة حين لا تجد دليلاً على وجودها؟

مرض عبد الله خلال نصف الطريق، طلب من القافلة التوقف، فقد أحس بدنو أجله، كان يتنهَّس ببطء وأولاده يحيطون به، تقدَّم منه علي ابن عمه الذي لطالما كان بالنسبة له عجينة رخوة يشَّكلها كيَفَّما يشاء، أخذ قطعة صغيرة من الصوف وغمَّسها بالماء، وبدأ يقطر بها على شفتيه، لا يقوى الميت على البلع ويشعر بالعطش كأنه أكل ملح العالم، أصبحت الصوفة تفرغ قطرة قطرة، ومع كل قطرة كانوا يشعرون بروحه تغادرهم. لكنَّه لم يمت.

مات علي، الأمر أشبه بمعجزة، استعاد عبد الله شيئاً من عافيته، وعند ظهيرة اليوم الثاني استيقظوا على أَنَّين علي، الآن عبد الله هو الذي يقطر الصوفة في فم علي، لكن الروح هذه المرة خرجت.

اضطروا إلى عبور مسالك ودروب صغيرة ووعرة، هرِيًّا من الحجر الصحي الذي فرضته الحكومة حينها، عندما غادروا أخبارهم صديق أن الحكومة بدأت في منع الأهالي من مغادرة القرية خوفاً من انتشار المرض، فلم يعد الركب يسير كوحدة واحدة، فذلك الأمر لم يعد ممكناً، تأخَّر محمد بن علي عنهم، وضعوا له إبريق فخار من الماء البارد حتى يشرب ويأتي به، وجد الإبريق أمامه بعد نصف نهار، فرغ منه وتركه ومضى، عاتبوه بعد ذلك على تركه له، لكنَّه بدأ يفقد عقله، لم يحافظ على رباطة جأشه كغيره، فقدُ أبيه وأمه أَثَرَ فيه كثيراً، بينما ظل المختار صامداً طوال تلك

المدة، وكان أكثرهم حرصاً على وصول الركب مكانه، أصبح يتقدّمهم ثم يعود بحصانه وراءهم ليتأكّد من عدم تخلّف أحدهم إلا لطارئ ما، الموت كان يسّير معهم ويعيّط بهم وفي كلّ مرة كان يخطّف منهم، والمختار قرّر عدم الاستسلام.

عبروا الخطر واستقرّوا قرب العجیلات وأرسلوا محمداً ليسبّقهم ويخبر بوصولهم.

7. اللقاء

خيام منتصبة ومحاطة بعيان يابسة، نجع قائم لا ينقصه إلا أن تدبّ الحياة فيه، المكان أشبه بقرية مهجورة في أغوار الزمن رحل ساكنوها على حين غفلة.

كان لبلقاسم ما أراد، إلا إنه بالترتيبات التي أراد مسيو جيوفاني أن تكون، كمشفى ميداني ومعزول، وذلك لسلامة الجميع، فاستطاع مرض هنا كفيل بإضاعة شهور من العمل، فكّر جيوفاني للحظات أنه لن يستطيع الوفاء بكلمته تجاه رئيس عماله الوفي، لكن شيئاً ما جعله يتحرّك في الاتجاه الآخر، دفعته رغبة عميقه لإظهار شيء من مشاعره التي يكثّها لأهل هذا البلد، إظهار صورة مغايرة عن تلك التي رسخت خلال هذه السنوات عن البطل الإيطالي، لم يكن جيوفاني حقيقة مهتماً بسياسة بلد يوّماً ما، كان دائماً يقنع نفسه أن يؤدي عمله كمزارع، ذلك شغله الدائم خلال كل الأماكن التي استوطنها، لكن الأسى الذي شعر به في أعين الناس الذين تعامل معهم جعله يتتساءل لأول مرة: لماذا تفعل إيطاليا ذلك؟!

بينما كان الأفق يتوجه لأن الشمس تُقيّت وسال كل شيء، ظهر الموكب من بعيد، الأرض واسعة ونظر المرأة يمتد إلى بعيد، امتنى بلقاسم حصانًا نحوهم، سار يخترق الهواء البارد حتى ظهر له المختار في المقدمة، مسح بعينيه الجميع، وجوه أرهقهها طول المسير، أجساد خاوية ترتجح قابضة على الحياة وتعتصرها.

”سلامتكم كبيرة يا مختار“.

”كDNA نهلك جميًعا لو ظللنا يوماً آخر.“.

أحكم بلقاسم اللثام وتعانقوا واختلطت الدموع التي نزلت حارة بحرارة الموقف، شعروا بالحزن، بالفقد، بمن غادرهم في وصولهم إلى هنا، ذلك السفر وتلك الرحلة ستبقى ماثلة أمامهم وغاية في ذاكرتهم، لا يتم حساب السنوات بدقة متناهية، إنما برد ذلك إلى أحداث وواقع، ولذا فإن هذا العام سيؤرخ بعام ”الوخم“.

قادهم بلقاسم إلى الخيام.

”ستمكثون هنا لمرة، يجب ألا يغادر أحد منكم، وسيتم جلب كل شيء إليكم“.

”نحن هربنا من الكرنطينا هناك تودُّ أن تقييمها لنا هنا“.

”يا خالي المرض لا يزال بينكم وسيتم نزعه بعون الله ومساعدة صاحب الأرض“.

كان السينيور جيوفاني واقفًا على مقربيه منهم، مبتسمًا رغم بعض الآلام التي يشعر بها في صدره منذ الصباح، هو الستيني الذي أرهقه المرض في

وقت مبكر في حياته، ورغم انحساره وشفائه لكن هذه المدة يشعر أنه قد يداهمه هذه المرة.

تقَدَّم حيث الرجال، وقال: ”السلام عليكم“ ضحك الصالحين، ابن عبد الله، الصالحين ابن الحادية عشرة. أسكنته نظرة حادة من أبيه، ردَّ عبد الله السلام ثم شكر هذا الرومي على صنيعه.

خلفهم أحد الخدم ينحر خروفًا سمينًا، راقبوه وهو يقبض على رأس الخروف بركبته اليسرى، ثم يمرر السكين على رقبته اللحمية في حركة واحدة ذهاباً وإياباً، خرج الدم ساخناً على التراب، مُسح السكين على ظهر الخروف ثم ترك يتَشَنج حتى تدلَّى لسانه خارجاً.

غابت الشمس أخيراً والتمعت السماء بنجوم متذكرة، وألسنة اللهب تصاعدت من الحفرة الكبيرة تحت القدر الضخم الطافح باللحم. همس جيوفاني في أذن بلقاسم: ”لا تبق معهم لوقت طويل“، ثم غادر.

8

أثقلهم الخدر، أطبق عليهم النعاس، كُلُّ في خيمته مستلقٍ بعد عشاء دسم، رائحة الزعتر اخترقت أنف المختار، كأنه ينام تحت عيدان الزعتر، ”الزعتر مطهّر للفم وطارد للبلغم، يرطب الحلق ويُخفّض الحرارة، يقضي على الاحتقان ويزيل السعال“. تذَكَّر تلك الكلمات التي قالها له التاجر الكهل محدودب الظهر، عندما ذهب إليه لعلاج أطفاله، لكنَّهم رحلوا الآن، غادرت أرواحهم ثم تبعتهم أمُّهم إلى مكان آخر.

الهواء الخريفي يدخل من الباب ويمُرُ إلى الاتجاه الآخر، يبُرُّ جبهته النديّة بالعرق، يستيقظ كل لحظة على صوت بكاء أطفال، ينهض وقلبه يكاد يقفز من صدره، وتتلّصّص عيناه في الظلام، يبحث عن الأطفال ولا أحد.

هكذا طوال الليل، يطارد الكوابيس ويشتبك معها، يشتبك مع مخلوقات غريبة، يسقط في النوم وقبضاته مغلقتان وأسنانه تقطّق، كأنّها تتكسّر ويبعلها، حتى سمع الأذان.

خاله المبروك لم يعطس عطسة واحدة خلال الرحلة كلها ولم يسعل، ولم يكن غريباً، فلطالما اعتبروه من المرابطين وقد كان الوحيد بينهم الذي يداوم على صلاة الأوقات.

المبروك سعيد الجبالي

هو الابن الأكبر لسعيد الجبالي، من مواليد 1887، جاء بعد ابنتين، ماتتا قبل بلوغهما الشهر، أمه ذهبت إلى قبرولي صالح وهو في أحشائهما، بكت كثيراً وأخذت من التراب ونشرته على مقدمة رأسها وبلغت منه حفنة، جاء إلى الحياة أبيض البشرة ممتلئ الجسم وكفاه كبيرة، علقت في رقبته الأحgebung، وبعد شهرين سُمي المبروك.

ضخم الجثة لكن تلك الضخامة كان خلفها قلب دافئ.

يقوم للصلوة قبل بلوغها يتوضأ ويقف على حجرة مرتفعة، يتوجه إلى القبلة ويرفع الأذان، وحده صوته يخترق الفراغ، يعبر سرب صغير من الطيور على مقربة منه، يجلس في المكان الذي اتخذه مسجداً، يخرج مسجنته الطويلة بلون الفحم، بعد مرور الوقت يقف ويلتفت لعل أحد هم يمُرُّ ويصلّي معه،

كانوا يراقبونه من بعيد.

بعد أن يفرغ من صلاته يصبُّ عليهم اللعنات بأعلى صوت ويصق: "كيف لا تشكرن الله على نعمة وجودكم!".

خرج المختار، أخذ إبريقاً من الماء البارد واقتعد حرجاً وتوضأ، دقات قلبه الفزع تقل مع الوقت، بعد أن انتهى مسح وجهه بكم قميصه وجلس وراء الرجل الخمسيني، بعد قليل قام وصَلَّى ركعتي الفجر، خاله طلب منه أن يقيم الصلاة، كلما أغمض عينيه رأى الأطفال وأمهم، لم يشعر إلا وخاله يطلق السلام، يتحرك بلا روح، عاد إلى خيمته دون أن يقول حرفًا واحدًا، وجلس خاله يتلو بعض التسبيحات والأوردة، حفظها من كتاب سميك أصفر الورق، معنون بلون الذهب "سفينة البحور" كتاب لتوسلات وتضرعات وتسبيحات وأقوال جمعت من كلام الشيخ عبد السلام الأسمري، صاحب أكبر مزار في البلاد، هذا الكتاب يعد مقدساً عند المشايخ، وصَلَّى عليه أحد التجار المارين إلى طرابلس، يحتفظ به في قماش أزرق مزركش.

نهض بلقاسم من نومه على رائحة الخبز الطازج الآتية من الخارج، كانت زوجته نشيطة هذ الصباح، أخبرها في الليل عن عودة الركب، طلبت منه أن يحضر والدها، خاله عبد الله، تحدث معها عن المرض والمخاطر، سيدهبون صباحاً إلى خيمة السينيور جيوفاني حيث سيحضر الطبيب من القرية، ويعطيهما المصل المضاد وسيداوم على الحضور إلى الكرنتينا التي أقاموها.

دخلت وهي تضرب الأرغفة الساخنة ببعضها فيسقط الرماد منها، وضعتها أمامه وأحضرت الإناء الصغير وسكتت الزيت من الغalon الحديدي، التفت

ناحية الأطفال الذين لا يزالون في النوم، أمسك بالرغيف وأخذ من أطرافه قطعة وغمسها في السائل الأخضر اللامع وقدفها إلى جوفه، عادت زوجته بإبريق الشاي الذي تتصاعد من فوّهته الأبخرة الدافئة في هذا الصباح الخريفي، جلست أمامه ومدّت يدها إلى الخبز، نظر في عينيها وفَكَرَ ماذا سيحدث لو أنه ذهب مكان المختار ذلك اليوم؟

بنغازي (مقططف من رواية)

صلاح المنصف

ترجمة: ميرنا فكري صبحي حنا

توفي والدي إثر أزمة قلبية في الخامس والعشرين من مارس، عام 1939. كان عمه هو أول من عثر عليه ميتاً - ذلك الرجل الذي كنا جمِيعاً ندعوه "العم إبراهيم". كان قد مرّ بمخزن البيع بالجملة الخاص بنا للدردشة، فعثر على أبي في إحدى غرف التخزين، منهاجاً وملقّى على وجهه فوق أحد أكياس القهوة. لقد توفي أبي بعد أربعة أيام من إتمامي لعامي الثاني عشر، وهكذا فقد وجدت نفسي يتيمّةً في نفس السن التي تيّمَّ هو بها. تم التخطيط لزفاف أخي زينب ليكون في صيف عام 1941. لم يعيش طويلاً لكي يسلمها بيده إلى زوجها. كانت هي في عامها الخامس عشر، وهو كان في الخامسة والأربعين.

حتى ذلك اليوم، كنا نعيش كعائلة بنغازية عادية قوامها المحبة الكونية، التسامح والمسالمة اللذين تميّزت بهما عقidiتنا (فنحن صوفيون في غاية التحفظ والالتزام الأعمى)، عائلة ما زالت قادرة على عيش حياة مسالمة وغير مضطربة، على الرغم من كل الأعمال البشعة التي قامت بها فاشية موسوليني في دولتنا. كنا نعيش آنذاك في شارع "مهدي"، ليس ببعيداً عن أجمل الموانئ وأروع سوق سمك في العالم، لا يفصلنا سوى بابين

عن إبراهيم مهدي، القناص الشهير، القائد الأسطوري الروحاني، والعم الذي أرسلته العناية الإلهية ليصبح بمثابة أبي لوالدي عندما تَيَّّمَ صغيراً. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه أبي عامه الخامس عشر، كان الاثنان بالفعل شركاء في التجارة، واسميهما مطبوعين ب أناقة على قرطاسية وأغلفة المشروع؛ إبراهيم مهدي وأحمد خلدون. أدار الرجلان المستوردان شركة ناجحة من المبني العثماني الذي أنشأ في القرن التاسع عشر، والذي كان يُلَقَّبُ، بكل مودة "الحوت" - ذلك المتجر الضخم للبيع بالجملة القائم بشارع "شاشير"، والذي ورثه أبي وأمه عقب وفاة جدنا.

وبحلول العشرينات، أصبح اسمَّا الرجلين المسؤولين عن إدارة "الحوت" مقتربين محلّياً بالبضائع المستوردة عالية الجودة، والمنتجات الغربية الرائعة. وفي غضون بضع سنوات، تمكّنا من بناء سمعة مهنية فائقة، باستيراد القهوة من اليمن وإثيوبيا، والشاي من سيلان والصين، والتواجد والمنسوجات من كل مكان. كان أهم شريك تجاري لديهما هو ابن عم أبي "كريم أكرم"، تاجر استيراد وتصدير كبير ورئيس شركة مهمة كان يديرها من الإسكندرية، مصر.

في كل ربيع، كان أبي والعم إبراهيم يستأجران حافلة من المنطقة التعليمية بينغازي، ويقومان بتحميل إحدى شاحنات الشركة بالطعام ولحم الشواء، ويصطحبان عائلتي "مهدي" و"خلدون" إلى الجبل الأخضر؛ للتنزه وإقامة حفلة شواء في مدينة "قورينا"، المدينة اليونانية الرومانية القديمة التي تقع بالقرب من مدينة "شحات" حالياً. ما زلت أحافظ بأعذب الذكريات عن تلك النزهات التي قضيتها مع إخوتي وأبناء عمومتي في ثلاثينيات

القرن الماضي. كان آباؤنا يسمحون لنا –نحن الأطفال آنذاك– بلعب الغموضة في المعبد، والركض وسط الأطلال والتماثيل القديمة. كنا نلعب بإعطائهم أسماء وسمات شخصية من مخيّلتنا. كانت "الصيادة الوحشية" هي المفضلة عندي، امرأة رخامية مقطوعة الرأس برمح يستند إلى خصرها الأيمن، وأصابع يدها اليسرى متغلغلة في لبدة أسد مهزوم تحت قدميها.

كان أحد أهم الأنشطة التي نقوم بها في نزهاتنا تلك، طقساً عزيزاً على قلب العم إبراهيم: زيارة مَنْحَل متaramي الأطراف يديره راعٍ صوفي، كان دائماً ما يرحب بالعائلتين بحفاوة بالغة، مُعَالِّاً عمي كما لو كان بطلاً قومياً. وبجلوسهم معاً، كان الرجال الثلاثة يستذكرون ذلك التقليد القومي الشامخ، الذي يُعبّر عنه بكلمة واحدة متداولة بين البنغازيين المعتنقين لنفس العقيدة: "الولاء"، ذلك الالتفاف المصحوب بالبكاء، الذي كان علامه ولائهم الراسخ لـ"عمر المختار"، أبي الحركة المناهضة للفاشية في ليبيا، أسد الصحراء الذي قاتل بشرف حتى الرمق الأخير، حتى يوم إعدامه في 16 سبتمبر، 1931. وبعد ذلك كانوا يتوجهون إلى كوخ طيني، بناء الراعي السيراني، ليبعثهم ما عنده من أفضل أنواع العسل، بما في ذلك الأنواع البرية النادرة والباهظة الثمن التي تُحصد من الأشجار.

..

كان شعار "الولاء" يمثل لنا –نحن عشر عائلة خلدون– أكثر من كونه رمزاً سياسياً، فقد كان أيضاً أسلوباً عقائدياً، وممارسة يومية ساعدت عائلتي على التكافف والحفظ على وحدتها في وجه تلك الأيام العصيبة. وقد تمكّن شعار "الولاء" المغروس فينا من إحكام الوثاق بيننا تحديداً لأننا

تعلّمناه بالاقتداء، حيث كان أبي وأمي متمسّكين به للغاية في علاقتهم معاً. فعلى سبيل المثال: كان لـ”الولاء” دور كبير فيبقاء والدي مترباطين عندما تعلّق الأمر بطريقة تنشئة بناتهما؛ بمساعدتهما على توحيد أهدافهما، على الرغم من الاختلاف الشاسع بين رأي كلّ منهما بشأن تعليمنا، حيث لم نكتشف -أنا وأخيتي- هذا التباين الهائل بين رأي أبي وأمي في هذه المسألة إلا عندما كبرنا، فأمي نشأت في عائلة تؤمن إيماناً وثيقاً بالمساواة في تعليم الفتيات، فقد كان آل أكرم، كالعديد غيرهم من أفراد العائلات التركية الأرستقراطية في الإسكندرية، متمسّكين بالعقائد العلمانية الكمالية بقوّة.

أما بالنسبة لأبي فإن اعتماده للصوفية جعل منه رجلاً تقدّمياً سابقاً لعصره بالنسبة لرجلٍ ليبيٍ من جيله، إلا إن سياسته المناهضة للفاشية كانت تمثّل إشكالية كبيرة، ونظرًا إلى أنه تم إخفاء معتقداته السياسية، بشكل رسمي، عّي أنا وزينب، فلم تُشك للحظة في أنه يمكن أن يكون قد شعر بذلك الامتعاض الشديد لالتحاقنا بـ”مدرسة موسوليني”， أو أنه حبّذ أيمما تحبيذ أن نتلقّى تعليمًا منزليًا، بالإضافة إلى درس اللغة الإنجليزية الذي كنا نحضره أسبوعيًّا في نادي الكتاب المحلي مع زوجة صاحب مطعم مالطي، ولكن -وفي مرحلة متقدمة جدًا من حياتها- أخبرتنا أمي أن الشكوك كانت تساورها بأن أبي قد استاء منا -أنا وزينب- لحصولنا على تعليم فاشي، حتى على الرغم من حرصه على الظهور مع أمي برأي مُوحِّد، ولكن أمام الضرورة الملحّة تلك الأيام، لم يكن هناك مجال متسع للشكوك، فقد ساد ”الولاء“ على كل شيء آخر.

وكان أيضًا بداعي "الولاء" أن كرست نفسي لتقبّل فتوى أبي، بعثةً وبدون أي مقدمات، بأن زينب كانت الابنة ذات الشخصية القوية، وأنّا كنّا ذات القوة البدنية والتحمل.

أتذكر بوضوح شديد تلك اللحظة من حياتي تحديداً: كنا في شتاء عام 1936. كانت لحظةً من الانتظار، في خوف، وفي أمل؛ لحظةً من رهبة الترقب المتبوعة بألمٍ غامض لم يترك لي خياراً سوى الاحتفاظ به في صدري، لا سيما أنني لم أكن أعرف كنهه. كنت قد شارفت على التاسعة من عمري، وكانت قد طلبت من أمي قبلها أن تسمح لي بمرافقه زينب في جولاتها حول الربع، لدعوة السيدات من حينها إلى حفلات الشاي التي كانت تعدها. كانت زينب دائمًا ما تقوم بجولاتها تلك في يوم الأربعاء، يوم عطلتنا الأسبوعية من المدرسة.

"سوف أتكلّم مع أبيك بهذا الشأن" قالت لي، " فهو من يقرّر هذه الأمور".

وعلمت القرار بعد ذلك بعده أيام، فور رجوعي من المدرسة. أذكر أنني كنت أقترب من بيتنا سالكةً الزقاق الخلفي عبر الباحة الخلفية، كالعادة. فتحت الباب المفضي إلى الفناء، ورأيت الخالة مني واقفةً تسحب بعض الماء من البئر الموجود في الجهة المقابلة، بجوار الجدار الحجري الفاصل بين بيتنا وبين المبني الملحق الذي قمنا بتأجirه. أنزّلت الخالة دلوها عند رؤيتي. قطعت الفناء باتجاهي، وأخذت بيدي وقادتني نحو النافورة القائمة في المركز. كنا في فصل الشتاء، ولم نكن نقوم أبداً بتشغيل النافورة خلال الأشهر الباردة، ولذلك فقد جلسنا على حافة الحوض. أذكر لهائي والرعشة التي أصابتني عندما أحسست بوخزة الرخام البارد أسفل تُورتي. أحكمت

لف ردائي حول خصري وعدت للجلوس مجدداً.

أمسكت بيدي مرة أخرى، وجلسنا في صمتٍ لبرهة، ولكن بمجرد النظر إلى وجهها، استطعتُ فهم الأمر برمته بدون تبادل كلمة واحدة معها. كان يعلو وجه الخالة مني تعبير كثيف كالظلال الباردة التي تعلو الجدران المحيطة بنا. كانت حدقاتها المتسعتان تشبهان قرصين من العقيق يتتوسّطان عينيها العسليتين، واتخذت بشرتها العاجية المتوجهة ظلاً فاتراً من الرمادي الشاحب. ولولا غطاء الرأس المليء بالألوان، لحسبتُ للحظة أن مدبرة منزلنا الجالسة أمامي هي امرأةٌ في فترة حداد، في قلب ذلك الصمت المُقْبِض.

عندما بدأت في الحديث، كانت كلماتها ثقيلة -وربما خجولة قليلاً أيضاً- كما لو كانت تكشف عن سر شخصي تشمئز من فكرة مشاركته معي. "طلبت مني السيدة نور أن أخبرك. أبلغها أحمد باشا بقراره هذا الصباح". صمتت الخالة مني لبرهة، وأبقيت عينيها مثبتتين على وجهي، ويديها محضنتين ليدي، ووجهها ملطخاً قليلاً بالكحول. "أعلم أنك محبطة"، تابعت، "ولكن، يا حبيبي، أبوك يعرف طبيعتك كظاهر يده. وهو مُحقٌ عند قوله إن العمل خارج المنزل مناسب لك. فأنتِ، على حسب قوله، تملكين قدرًا كبيرًا من التَّحَمُّل والقدرة. هذا هو ما قاله للسيدة أمك؛ التَّحَمُّل والقدرة. فالعمل معي في الفناء، على حد قوله، سيساعدك على التخلص من طاقتك الزائدة عن الحد، وأنا أثق بذلك تمام الثقة. لقد رأيتُ أن هذا الأسلوب يصنع معي العجب، يا مريم. كما يقول أحمد باشا أيضًا أن العمل خارج المنزل يجعلك تنامين بشكل أفضل عندما تأتيك تلك النوبات

..... ذلك الأرق الذي يصيبك”.

لابد أنني بذوقت أمام نظراتها الممحضة كمن أصابته النكبة، أول مرة أتذوق فيها الشعور المُر بالرفض. همّتُ الحالة باحتضاني بين ذراعيها، ولكنني تملّصتُ منها: ”دعيني وشأني“، تتممّت بين طيات جلبابها عندما حاولت جذبي إليها. كانت دموعي، هي الأخرى، بدأت تناسب مني، ورغبتُ أن تنتهي تلك اللحظة.

قرأًتُ الحالة مني أفكارِي في الحال.

”اتبعيني إلى غرفة الغسيل“ قالت وهي تهمّ بالوقوف. ”فلنصل إلى سطح المنزل. يمكنك أن تقرئي لي واحداً من كتبك، أو بإمكاننا مدّ بصرنا لمشاهدة البحر، سيجعلك هذا تشعرين بحالٍ أفضل بكثير“.

ذهبَت لتلتقط لوح الغسيل الموضوع بجانب باب المطبخ.

”اتركي حقيتك هنا، وهيا بنا“ قالت مبتسمةً، متّابطةً لوح الغسيل. ”لا يزال الوقت نهاراً بالخارج، سيكون بإمكانك رؤية القوارب الجديدة وهي تُسحب إلى داخل الميناء. أنت دائمًا تحبين مشاهدة القوارب!“.

لا أتذكّر بوضوح ما حدث بعد ذلك على الدرج بالخارج، إلا إنني أذكر أن الحالة مني كانت تسبقني بدرجتين على السُّلم أثناء صعودنا، وعند لحظةٍ ما، تذكّرت الدلو الذي تركته عند البئر.

”يا إلهي! لقد نسيت الدلو“. قالت وهي تغير اتجاهها، صافعةً إياي بقوة على فمي بزاوية لوح الغسيل التي كانت تمسكه، فترنّحتُ جانبًا ووقيع إلى الخلف باتجاه الدرابزين. كانت الصدمة قاسية لأبعد حد، ولكنها كانت

أيضاً مفاجئة للغاية، وكنت بحالة من التشوش لم تسمح لي بالشعور بالألم في بداية الأمر، ثم نظرت إلى الأعلى ورأيت نظرة الهلع على وجه مدببة منزلنا، وفي الحال امتد رعبها ليشمل كياني بأكمله - إدراك أن شيئاً في غاية البشاعة قد حدث. رأيت قطرات من الدم تقطر على ردائِي، مستريحةً لبعض ثوانٍ على نسيج الصوف الأسود، كخرز مسبحة مرجاني اللون. وضعفت أصابعِي على فمي، وعندما أبعدتها كانت ملطخة.

ما ذكره تالياً هو صوت ارتظام لوح الغسيل على درجات السلم، والخالة مني جاثيةً على ركبتيها أمامي، فاردةً ذراعيها على جانبِي، ممسكةً بالسياج، ووجهها قريب جدًا من وجهي إلى درجة أنني شممت رائحة المستكة في أنفاسها، ورأيت شرائط المسواك الرفيعة بين أسنانها العاجية النظيفة.

”أرجوكِ، بحق الله“، توسلت، ”قولي لهم إنك تعثّرت على درجات السلم! سينتهي أمري إذا قُلتِ أني أنا من صفتُك..... ستكون نهايتي..... عوض سيقتلني!“.

لا أستطيع أن أتذكر بالضبط ما إذا كان الألم هو ما أثار دموعي أم منظر عذاب الحالة مني، ولكنني أعلم على وجه اليقين أنه عند لحظةٍ ما، تركتُ نفسي أجلس، لاصقةً ظهري بالدرابزين، وأبكي، محاصرةً بين ذراعي مدببة منزلنا الممدودتين بينما يزداد وجهها قرباً من وجهي، بينما أراه يكُبر أكثر فأكثر، وبينما يزداد التواءً وعداً. وقبل أن يمضي الكثير من الوقت، كنت قد شرعتُ في الأنين بألمٍ وعجزٍ وأسى، كما لو أنني تحرّرتُ، عن طريق تلك الإهانة الفائقة الأخيرة، لأنوّح بأسى وبكل ما أوتيتُ من قوة على الجملة المشوّومة التي نزلت على كالصاعقة عند النافورة.

”أتوسل إليكِ، أرجووكِ قولِي أَنِكَ تعرَّضتِ ووَقَعْتِ مِنْ عَلَى السَّلْمِ، وَإِلَّا سِيَقْتَلُنِي عَوْضٌ. لَنْ يَسَّامِحَنِي اللَّهُ أَبْدًا عَلَى ذَلِكَ، أَعْلَمُ هَذَا، وَلَكِنْ أَرْجُوكِ أَظَهِرِي رَحْمَةً نَحْوَ خَالِتِكَ مِنِي. قُولِي إِنِّي تعرَّضتِ ووَقَعْتِ مِنْ عَلَى السَّلْمِ، أَسْتَحْلِفُكِ بِاللَّهِ! سَأَعُوْضُكِ عَمَّا حَدَثَ، أَقْسَمُ لَكِ بِذَلِكَ، سَأَعُوْضُكِ مِائَةً مَرَّةً.“.

لا فكرة لدى عن المدة التي قضيتها هكذا؛ أبكي وأتحب بهدوء ملصقة ظهري بالدرازين المعدني، ووجهها الدامع الملطخ بالكحل قريب من وجهي، ولكن في النهاية، استطعت أن أتمسّك بمغزل عامودي في الدرازين وأرفع نفسي لأعلى. نهضت الخالة مني، وتنحّت جانبًا لتسَعِ لي مجالاً للوقوف، وتركتني أعود أدرجى إلى البيت، متدرجةً بجانبي على السالم، ومائلةً على مع إبقاء ذراعيها مفتوحتين حول جسدي في محاولة لحمايتي، كما لو كنتُ سأتعثّر في أية لحظة وأسقط على وجهي. كنتُ ما زلتُ أبكي، ربما ليس بكثيرٍ من الألم، ولكن بقليلٍ مفظور، كما لو كانت تلك الضربة لها صلة مشؤومة وغامضة بذلك التصريح المصيري الذي نطق به أبي.

وفي النهاية كان عليها أن تتركني أمضي وحدي، متخلّفةً عنِي بخطوات بسيطة، وهي لا تزال تلعن نفسها وتترجّاني أن أقول إنني أنا التي وقعت وحدي.

كان علي هو أول من رأني. كان في المطبخ، وأذكر أنه كان يأكل قطعة حلاوة مغلفة: شطيرةً كنا نسميهها بشغف في ذلك الوقت ”عروسة“ - بمعنى ”دمية“ أو ”جميلة“. أسقط ما كان يأكله وخرج راكضاً من المطبخ منادياً على أمي بعلو صوته.

”يا الله!“ صاحت أمي عندما رأته. ”ما الذي حدث لك؟“.

”لقد سقطت وأصبت فمي“. قلت كاذبةً، والتفت ناظرةً إلى الخالة مني لتوّكّد كلامي، والوجع في شفتي صارخ كما لو سرى فيه تيار كهربى كوجع الأسنان، والزاوية السفلية لفمي تحترق ألمًا. هذا هو الثمن الذي على دفعه مقابل التفوه بالأكاذيب، فكرت، وفطنت لحظتها أنه سيتحتم على الكلام بدون أن تتلامس شفتي، إذا أردت أن أتجنّب المزيد من الألم.

”كنت صاعدة إلى غرفة الغسيل مع الخالة مني، ووقيعت على وجهي أثناء ارتقائي للسلام.“.

لن أنسى أبداً نظرة الامتنان التي علّت وجهها بينما كان فمي الممزق ينطّق بتلك الكلمات؛ مستنشقاً ومؤمّناً إياها بطريقة خرقاء. لقد كذبت لأجلها، بداعي ”الولاء“ الأعمى، وتأثّرت هي لذلك جدّاً للدرجة أنها شرعت في البكاء مجلّداً.

”أشعر باضطرابٍ شديدٍ، يا سيدتي. يا له من أمٍ مُرّعٌ أن أرى عزيزتي الصغيرة مريم تتعرّض لأذى“.

”دعيني أرى فمك تحت الضوء“. قالت أمي، وعيناها ما زالتا مثبتتين على بعوبس، وكأنها تجد صعوبة في استيعاب قصتي.

خطّونا خارج باب المطبخ إلى المنطقة التي كنا نسمّيها ”الردهة“. في بيتنا، لم تكن تلك المساحة بهوًّا اعتمادياً للمدخل، بل بالأحرى كانت مساحة معمارية هجينة بلا اسمٍ محدّد، وُضعت في موقع وسطي بين منطقة (صالون الرجال) المُحرّمة، والغرفة الكبيرة متعدّدة الاستخدامات التي

كنا نسميهما (غرفة الرسم الخاصة بالسيدات). لم تكن تلك الردهة ذات الاسم العجيب تفضي إلى النطاق الخارجي لبيتنا، وهي مساحة محكمة الإغلاق يمكن الوصول إليها فقط عبر أبواب الحجرات الثلاث الملاصقة لها: المطبخ وغرفنا الرسم المنفصلتان. وهناك أيضاً السلالم المفضية إلى غرف النوم الخاصة بنا بالأعلى، مع ثرية كريستالية تتدلى فوقها، وهي مصدر الضوء الذي كانت تقصده أمي. أشعلت أمي مصابيحها وأجلستني عند أسفل الدرج، ثم طلبت مني أن أميل برأسني إلى الخلف وهي تمسك بذقني وتتجذب شفتي السفلي لأأسفل بإبهامها.

”أها لهو هقرة، لو تعلهين!“ صرخت.

”اصمتِ!“ همست أمي. ”أختاكِ مريضة بالأعلى. والآن أنت. ستظهر كدمة كبيرة على ذقنك لفترة، ولكن شفتيكِ... لم يصبها شيءٌ يُذكر، لقد انشقت شفتك السفلي قليلاً. ليس شيئاً لا تستطيع فتاة قوية مثلك أن تتحمّله. سندھب إلى المستوصف فوراً. سيقومون بتنقيبها لكِ.“.

أنا لست بقرة، لو تعلمين! كان هذا ما كنت أحاول قوله، ولكن مع خوفي الشديد من أن تلامس شفتاي بعضاهما، خرجت الكلمات من فمي خليطاً من فوضى غير مفهومة. ”أها لهو هقرة، لو تعلهين!“ كررّت.

”ماذا؟“ قالت أمي هاتفةً متعجّبة، ”يجب أن تتوقّفي عن استنزاف الجرح إلى أن نقطبه لكِ، مفهوم؟“.

عند سمعي لأمي تتفوه بهذا الكلام، لم أستطع أن أتمالك نفسي: خرج الرد مني تلقائياً مدفوعاً بشيء من التهكم والرعونة، مما أخافني وأثارني في

الوقت ذاته. ”ها عهيلك – هقد كان يُستهزه طيبة هترة الظهيرة.“ أجبت، متعمّدةً أن أبالغ في تشوّيه نطقي للكلام. لا عيلك، فقد كان يُستنزف طيلة فترة الظهيرة، كان هذا هو ما قُلته ولم أُقله في ذات الوقت، شاعرةً بالعزاء والمتعة لإدراكي أن بإمكاني الآن أن أَتَّخذ من إصابتي سلاحاً سريّاً، أن أُفلت من عواقب إخبارها بما كان يدور في رأسي منذ أبلغتني الخالة مني ذلك الخبر المرّّ بجوار النافورة.

لَفَّت أمي عينيها. تجاهلت كلامي وخطّت خلفي، واستدرتُ أنا مع رعشةٍ غامضةٍ من الترقب. كانت هناك كُوّة بحجم حجيرة صغيرة محصورة بين الدّرّج وغرفة الرسم الخاصة بالسيدات، وكانت تُسْتَخدَم كخزانة صغيرة مفتوحة، حيث كان بها رفٌّ عالٌ لوضع الشمعدانات ومخزوننا من الشموع، ويوجد أسفله حامل مثبت في الجدار لتعليق معاطف السيدات اللاتي كنَّ يأتين لزيارتني. وكان هذا الرف هو أيضًا المكان الذي تضع عليه أمي محفظتها؛ محفظة جلدية بسوار ذات لون أخضر قاتم، كانت تحفظ فيها بعض المال للنفقات اليومية. مددت يدها لتلتقطها، ففتحتها، وسحبت منها بعضاً من الإيصالات والعملات الورقية. ألقت نظرة على الإيصالات، قامت بعده العملات الورقية، ثم وضع كل شيء في حقيبتها، مما كان يعني شيئاً واحداً: أنها سترافقني إلى المستوصف.

”ابقىأنتما هنا مع ولدي“. قالت أمي، موجّهةً الكلام للخالة مني وعنتر عندما وصلنا إلى المستوصف الذي كان يقع أمام مدرسة ”جيوفاني جنتيل“ للمرحلتين الابتدائية والإعدادية، حيث كنا ندرس أنا وأختي.

ثم دخلنا معًا إلى المبني، وفوراً بدأت أعصابي مفرطة الحساسية وأنفي

شديد التحسُّس بإبداء رد فعل عنيف تجاه رائحة الفورمالين، إلى درجة جعلتني أترنَّح وأبدو سقية. كُنَّا بالكاد قد دخلنا إلى الرواق، ولكن شعوراً بالخوف الغامض كان قد غمرني بالفعل.

“أهجوك يا أهي” توسلتُ، “أها هريضة ها أستطيع هواصلة السير”. وبالفعل، كنت بدأتُ أدفن وجهي بين طيات معطفها، جاذبةً إياه نحو في محاولة بائسة لحجب نفسي عن الرائحة المعدنية العفنة والمنظر العاري لهذا المكان، بإضاعته الصارخة وقسوة جدرانه البيضاء الصادمة.

“هيا يا طفلتي” توقَّفت أمي وتجادلت معي بلطف. “إذا لم نتعامل مع جرحك هذا الآن، ستتشوَّه شفتوك بندبة قبيحة لبقية حياتك. عليك أن تتحلَّ بالقوة يا صغيرتي، وسينتهي كل شيء في غضون دقائق قليلة. صدقيني يا حبيبتي، سينتهي الأمر سريعاً جدًّا”.

كنت لا أزال غير متجاوبة، لا أزال متعلقة بمعطفها كما لو كان ستارة، في محاولة لإخفاء وجهي. وعند ذلك الحد، قرَّرت دفعي بالقوة إلى الداخل. وضعت أمي ذراعيها حول كتفَيَّ وقادتني نحو غرفة انتظار صغيرة، كانت فارغة بدورها وتفوح منها رائحة كحول أقوى من التي كانت في الرواق.

“انظري إلى يا طفلتي” قالت أمي فور جلوسنا. “هيا الآن بربك، انظري إلى. أنتِ تريدين الانتهاء من هذا الأمر برمته، أليس كذلك؟”.

كنت أجلس بميل في كرسيٍّ، وأنا لا أزال ممسكَةً بمعطفها، مشمئزةً من صدمة المكان. ضمَّت رأسي بيديها ذات القفازات، ورفعته برويَّة ولكن بقوة وثبات حتى تلقت أنظارنا، بعينيها الزمرديتين الشاخصتين لأسفل

نحوى بنظرة حزن أكثر منها عزيمة وتصميم؛ ووجهها البيضاوى المحوّط بعنایة بغضّاء رأس فضي - رمادي قابل للانزلاق، بدون أن تصل خصلة واحدة من الشعر العسلي - الأشقر طريقها خارجه. كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أتمّلّى فيها من طلعة أمي بإحساس من الانفصال عن الواقع، وعلى الرغم من كم البرود العاطفي في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، فإنّي لم يكُن بوسعي سوى أن أجد شيئاً من السلوى الغامضة في الجمال الأحاذ لتلك المرأة التي حملتني في أحشائهما وقامت بتربّيتي: وجهها المرمرى المثالي المتناسق، الحمرة الخفيفة على خديها، رفعة الحزن على حاجبيها الرمليين.

”أنتِ تريدين الانتهاء من هذا الأمر برمته“ كرّرت بنبرة مُلحة ولكن ليست بقاسية، والحزن ما زال بعينيها. ”هل أنا مُحِقة؟ أجيبيني الآن.“

”نعم يا أمّاه“ أجبتُ، مدركّةً بغيريّ أنّه من الأفضل لي أن أقول لها ما تود سماعه.

”حسّاً إِذًا. هناك شيءُ واحدٌ فقط يجب عليك عمله، إذا أردت الانتهاء من الأمر سريعاً وبدون ألم. بمجرد أن يأخذوك إلى الداخل ويطلبوا منك الجلوس، احرصي على إبقاء عينيك مغلقتين حتى ينتهوا. عدّيني بأن تفعلي ذلك يا حبيبي، وسيكون كل شيءٍ بخير. أتعديني؟“.

ومرةً أخرى وجدتُ نفسي مضطّرّة إلى أن أجيب أمي بما تود سماعه. وعدتها، ولبرهة شعرتُ بارتياح وبأنّي لم أُعُد ضعيفة.

ثم دخل أحد المُنظّمين إلى الغرفة، ووجدتُ نفسي أعود مجدّداً إلى

الشعور بذلك الخوف الجليدي الذي انتابني في الردهة. كان المُنظم يبدو كأي رجلٍ غريبٍ يمكنني مصادفته بين الفينة والأخرى خارج المستوصف؛ رجلاً صقلّياً، هزيلًا، شره التدخين، وبشرته مصبوغة بلون التبغ، يرتدي معطفاً أبيضَ كبيرَ المقاس، وشعراً ممشطاً بحيث يداري صلعته، ونظارة قاع كأس تحجب نظراته وتضفي عليه، بصورة مُضللة، مسحةً من الخبر، ومعظم جسده غير قابل للتمييز بالمرة تحت ذلك المعطف الأبيض غير الملائم له.

عندما لاحظ ذلك المُنظم الهلع البادي على وجهي، ابتسם لي ابتسامةً عريضةً مصبوغة بلون القهوة والتبغ، مما زاد من شعوري بالدوار والاضطراب، ثم نادى على إحدى الممرضات الإناث، اسمُ مصرىٌ، لحظي السعيد.

”رتيبة!“¹ قال صارخًا تقريرًا.

”هذا أفضل، فلتحضر ممرضاً منظماً حقاً – هذا ما أحتاجه الآن بالضبط.“ همستُ بتلك الكلمات باتجاه أمي، بهدوءٍ وبلاعنةٍ شديدةٍ على قدر استطاعتي، على الرغم من معرفتي الأكيدة بأن فمي سيؤلمني. لم تستطع أمي أن تتمالك نفسها، وانفجرت في نوبة من الضحك، نصف المكتوم.

”أنتِ ونكاتك الغريبة!“ هتفت بتعجبٍ، محاولةً أن تبدو معارضة، وأن

1 . في اللغة العربية، كلمة ”رتيبة“ تُعبر في نفس الوقت إما عن اسم شخص، أو الصيغة المؤنثة من الصفة ”منظم“ أو ”مرتب.“

تحفظ ماء الوجه أمام ذلك الرجل.

المزيج بين المتعة المصاحبة لتلك النكتة والألم الحارق في فمي، جعلنيأشعر ببطولتي فجأة، شعوراً مقارياً للابتهاج. وفجأة أدركتُ أنه، سواءً بالقاء النكات أولاً، إذا كنتُ أستطيع أن أثير ضحك أمي في هذه الظروف، فبالتأكيد يمكنني أن أسيء مع رتبة إلى غرفة العمليات المروعة لأواجه مصيبي وحدي.

بعد عودتنا إلى غرفة الانتظار، أعطت أمي بقشيشاً لرتبة وتفقدت الأقطاب، ممسكةً بذقني بين إصبعيها الإبهام والسبابة، متفحصةً لحرفة يد الممرضة بدقة، بنفس العبوس النقي الذي كان يظلّ وجهها عندما تشرف علينا في إنهاء واجباتنا المدرسية في البيت.

”شكراً لكِ، يا سرت رتبة. كيف حال جرحها الآن؟“ سألت، موجهةً نظرها إلى أعلى نحو الممرضة.

”كأنه لم يكن“ قالت رتبة بصوتها الرنان، متشدقةً أثناء حديثها بقطعة كبيرة من علقة المستكة، ثم ناولت أمي قنية يود، وعلبة صغيرة بها طبقات من القطن المكبوس. ”إنها أقطاب قابلة للامتصاص، لا حاجةً لأن تعودا مرةً أخرى. فقط لا تنسيا أن تطهرا الجرح بانتظام. ولا تثاؤب بعد الآن في الفصل لمدة أسبوعين“. قالت لي، قارصةً خدي بابتسامة خبيثة، وهي درجة من الألفة والمزاح لم تكن أمي في المزاج المناسب لتحملها.

”ابنتي ليست ممن يتثنّأبون في الفصول، ثقي بذلك. في الواقع، تكمّن مشكلتها الحقيقية في السماح لنفسها بالانتقال إلى المقاعد الخلفية وأخذ

قسط من الراحة بين الحين والآخر. وداعاً أيتها الممرضة.”.

وفي الخارج بساحة ”بيازا ديل مونيسبيو“، شعرت بسوط الرياح الباردة الرطبة، وانغمست فجأة في ذكرى تلك اللحظة المصيرية عند النافورة، وكأنني انفصلت وهجرت في العراء. كنا نسير باتجاه العربية التي تجرّها الخيول، ولا بد أن أفكاري الكئيبة قد انتقلت كالعدوى إلى علي، الذي كان يسير خلف أربعتنا مثيراً هواءً فاتراً بائساً. كانت أربعة أحصنة، أقوية أشدّاء قد رُيّطوا إلى العربية، بينما وقف الآخرون الطلقاء ثابتين كالأحجار في لجامهم، متذرين ببطانياتهم، ورؤوسهم محنية أمام الرياح الرطبة. حثّنا أمي أن ندخل إلى العربية جمِيعاً، إلا إن أخي ظلَّ واقفاً بلا حراك بجوار الأحصنة العاطلة، متوجهَهَا ومحملقاً في الفضاء، وحاكاً كعبه بمساحة فارغة بين الحصى، شارد الذهن.

هرعنا جمِيعاً إليه. ”ما الأمر يا بنِي؟“ سألهُ أمي، وهي تتحنّي عليه في حُنُّ واهتمام لم تكن تظهرهما نحوِي أبداً. كانت كل الأعين على علي الآن. كنا نقف على بُعد ذراع من الأحصنة المسترحة، وكان الهواء من حولنا يعبق بحرارة أجسادها، والرائحة الحلوة لعرقها.

”تلك السالالم الحمقاء!“. أُفْشى ما كان يدور بخلده، وهو لا يزال واقفاً جامداً ومتوجهَهَا، يعاني كي يكبح دموعه ويرسم ملامح قوية على وجهه. ”خَرَّبت وجهي كَال... كَال... كالألعاب النارية المعطوبة!“. كان صوته مرتعشاً ومحتنقاً بالدموع. أصابهه منظري وأنا أُنْزف باضطراب منذ البداية، إلا إن رؤيتيه لي الآن بالأقطاب لَهُي أصعب مما يقوى على تحمله. ولد علي في بداية شهر يونيو، ولم يكن قد وصل إلى عامه الثالث عشر في

ذلك الوقت، ولكنه كان دائمًا ينظر إلى نفسه باعتباره أخي الأكبر، ويشعر بواجهه الصميم تجاه حمایتي. كان على شفا البكاء عندما تفوه بتلك الكلمات، إلا إن أسلوبه في صياغة العبارة كان نابضاً بالحيوية إلى درجة أننا -نحن النساء- لم نستطع أن نتمالك أنفسنا، فانفجرنا جميعاً ضاحكين على كلامه، الصورة الوجيهة والمذهلة لعدم الجدوى التي يمكن للألعاب النارية أن تبدو عليها بمجرد أن تصير "معطوبة"، والأيام التالية لذلك قد أثبتت صحة كلامه، فقد تسبّبت تلك الشفة المُقطّبة في جعل فمي كله ضعيفاً ولا يمكن الاعتماد عليه، بغض النظر عن مدى محاولاتي للنطق بحذر وبشكل دقيق.

"آه، يا أخي" قلت له، "أنا حَقًّا عزيزة على قلبك، ألسْتُ كذلك؟".

"نعم، كثيراً!" ردّ. وكان صوته مرتعشاً بمشاعر ينفطر لها القلب.

"هيا، بربكما". قالت أمي، وقد أثيرت مشاعرها هي أيضاً. "غداً ستضحي تلك الحادثة ذكرى ليس أكثر، يا بني. هيا لنكافئ أنفسنا ببعض قطع من شوكولاتة "بيروجيننا" من مخبز "باتيسيريا تري ماري"، فحسيناً أسمع، لا يوجد ما هو أفضل من الشوكولاتة لعلاج أي شيء، خاصة الشفاه المجرورة، بغض النظر عن مدى فداحة إصابتها".

كانت العربية التي تجرها الخيول -والتي صُممّت لتشبه "الحافلة البيضاء" الأمريكية في العشرينيات- ممتلئة بالفعل إلى حدّ كبير عندما استقللناها، فاضطررنا إلى الجلوس باتجاه مؤخرة العربية في منطقة المقعد الخشبي، إلا إن السائق استمر في إدخال المزيد من الركاب على أية حال، ربما حتى بعد أكبر مما تستطيع العربية تحمله بأمان. فور خروجنا من ساحة "بيازا

ديل مونيسبيو”， بدأ الضباب في التكاثف على النوافذ، وأصبح الهواء داخل العربية المكَدَّسة ثقيلاً، رطباً، ومُعَبَّقاً بالرائحة القوية للصوف الرطب والتبغ الفاسد. جلست الحالة مني بجاني في مقعد مُطل على الممر. أدرت جذعي نحو اليمين، وانزلقت قليلاً، مريحةً رأسي على انحاء ذراعها، مستشيرةً نعومة بُرُنسها الأمازيغي. ظنتُ أنني إذا انخفضت أكثر في جلستي، وضيقتُ مجال رؤيتي إلى تلك المساحة الصغيرة بين جسدها المُتشَح بالعباءة وإطار النافذة الخشبي عن يميني، لربما أصبحت قادرة على تجاهل الإحساس الخانق بوجود هؤلاء الركاب المكَدَّسين من حولي، فلأحاول أن أتجوّل بنظري في الشوارع بالخارج.

في تلك الأثناء، كانت النافذة قد تحولت إلى لوح من الزجاج المتفاوت الشفافية، مُغطَّى بطبقة غير متصلة من البخار الذي شوَّه وغلَّف الألوان الطبيعية لمناظر الشوارع المارقة بجانبنا أثناء عبورنا ”بريكولا - نيبولاس“؛ مغيّراً من أنماط النقاط والقطارات، كالعمل المحموم وغير المكتمل لرسام قليل الصبر يرسم بالرذاذ. توقف السائق عند مكتب البريد الرئيسي، ووُجدت نفسي ألعب لعبة: أقوم بتضييق عينيَّ وإمالة رأسي قليلاً، وأتصوّر ذلك المبني الكلاسيكي الحديث، الموجود في نهاية الزقاق الطويل المرصوف بالإردواز، واحدة من اللوحات المائية المشوّشة التي يمكنني أن أرسمها بالاستعانة، على استحياء، بمساعدة أمي. وفي وسط خيالاتي، تحول المبني إلى لوحة مُحدَّدة برقَّة تُظْهِر قلعةً رملية نخرها المطر، وتأكل برجاها التوأمان حتى تحوّلا إلى نتوءات. صار الزقاق طريقاً مصنوعاً من مربعات العرق سوس؛ وتحوّل المرج المرضع بالتخيل والصبار

والدفل على جانبي الطريق إلى دغل ضبابي من الخربشات واللطخات، بظلال متداخلة من الأخضر والبني والوردي.

تشاركت أمي المقعد الذي كان أمامنا مع علي. اعتدلت في جلستي عندما استدارات لتحدّث الحالة مني، وشعرت فجأة بحاجتي إلى الطمأنينة التي يبيّنها ذلك الوجه المرمرى، المتوجّه بإشراق من فوق الإطار المعدنى للمقعد الرث - رغبة ملحة، حزينة ووجدانية، بأن أنفرد بها في منزلنا، أن أدفن وجهي في ظلال معطفها ذكيّ الرائحة، في حضن ذراعيها الحاميّتين. ولكن في تلك اللحظة، عادت أمي إلى طبعها العملي من جديد. كانت عينها قصيّتين ومظلمتين وجامدتين، بينما جلست ناظرة إليها وأنا ممتلئةً بالخواء والحنين الغامض. أمسكت بمظروف أبيض مستطيل الشكل من خلال الحلقة المرتبطة بمسند الرأس المعدنى. “أريدك أن تذهب إلى دار توتة”， قالت للحالة مني، “وتعيدي الخطاب إلى سكرتيرة السيد فريبورج. أخبريها أن أحمد باشا قد قرأه، وأنه كلفك بإبلاغ المدير بأنه لا يوجد داعٍ لخطاب توصية، فكلمة السيد فريبورج هي كل ما يحتاج إليه كضمان. سنقوم بإخلاء المبني الملحق بمجرد أن يعطينا السيد فريبورج خبراً باستعداد المستأجرين للانتقال والإقامة. أريد منك أيضاً الذهاب إلى ”نيكيفوراكيس“، فقد جهزت الصور الفوتوغرافية التي يحتاجها أحمد باشا لتصريح السفر. ها هو الإيصال. سنتظرك عند ساحة (بيازا كاجني)“.

توقفت العربة عند ميدان السوق. نهضت الحالة مني، وأخذت عنتر مكانها في المقعد. انزلقت قليلاً في المقعد الخشبي ومددت رأسي نحو النافذة، مريحةً ذراعي اليمنى على الجزء السفلي من إطارها. مسحت البخار

المتكاشف براحة يدي اليسرى؛ وقفَت أشجار البرتقال الكاملة الحجم، المميزة لساحة سوقنا الخارجي المرصوفة بالقرميد الأحمر، مُشرقةً كعادتها دوماً في أصصها الخشبية. كانت أوراقها النظيفة لامعة كالعادة، والبرتقال أبو سرّة متوجهاً كالمسابيح في أوراقه الزرقاء - الخضراء. أما وراء تلك الأصص المتراسدة بدقة، فكان يقع المشهد التقليدي المتناقض لسوقنا: المصروفات الرائعة للأزهار والورود أمام محلات باعة الزهور، وأروع الفاكهة والخضراوات مُرتبة بفن في الأكشاك وعلى العربات، تتألق ألوانها وتلمع في الأفق كظلال التحف البورسلينية الغربية ذات التأثير المنوم.

رأيت هيئة الخالة مني المتشحة بالسوداد تقفز من العربية وتمتزج في زحام المتسوقين، المرأة الوحيدة على الرصيف التي كانت ترتدي بُرُنُساً، بوجهٍ كوجه “نفرتيتي” مشرقاً داخل القلنسوة السوداء. تحركت العربية بينما ظللتُ أتبع الخالة مني بناظري، وأراقب مدببة منزلنا وهي تشقّ طريقها وسط الحشد باتجاه الرواق المغربي، الذي كان يأوي المجمع التجاري المعروف محلياً بين البنغازيين باسمه الغريب ”البازار الهندي“؛ وهو مجموعة من المحلات التجارية المنافضة تماماً لـ”سوق الظلام“، أصداء أراضيهم الأسطورية البعيدة وتجاربهم العجيبة.

كانت مؤسسة السيد فريبيورج؛ دار توتة، أو مولبيري؛ هي أول وأبرز متجر في البازار الهندي، وفي الواقع فقد كانت أرقى متجر يبيع المنتجات الفاخرة في مدinetنا. كان مالكها -والذي كنا نعرفه فقط بـ”السيد فريبيورج“ - سيداً فرنسياً يهودياً، هاجر أبواه إلى تونس عندما كان صغيراً جداً. وكان يتحدث الفرنسية، والإيطالية، والعربية باللهجة التونسية اليهودية. سُمي المتجر

تيمُّناً بابنته "ديبورا" التي كانت زميلتي في الصف، وكانت تُعرف بكنيتها "توتا". كان أبي يجري كل معاملاته المصرفية مع السيد فريبيورج، متوجّباً البنوك التابعة لموسوليني تماماً. في تلك الأيام، كانت جميع التعاملات التجارية في بنغازي تتطلّب دفعاً نقدّياً، وكان يجب على أبي، كغيره من رجال الأعمال المهمين في المدينة، أن يمتلك سيولة نقدية على الدوام، وقد حَقَّ له السيد الفرنسي ذلك بطريقة سريعة وفعّالة، وبأسعار منافسة للتي كانت تطلبها البنوك المحلية.

قطعت الخالة مني الرواق الموجود على جانب البazar المُطل على السوق، ودخلت من باب جانبي. تابعت العربية طريقها وسط القسم المسقوف من "فيا بريكولا"، مروّاً بالمدخل الرئيسي للخالب لدار توتة، أشكال الأرابيسك المنحوتة يدوياً والمُزخرفة لقطرته ذات الطابع المغربي، الوهج الكهرماني لمصابحه الأندرسنيين المكسوين بالنحاس المتدليين أمام الباب بسلامهما الحديدية. عما قريب سندخل إلى "فيا تورينو" – سنكون على بعد دقائق قليلة فقط من روائع ساحة "بيازاكاجني".

حسام الثنبي

عن المقرون والبرّاح، وشوق سيدى رافع

حسام الثنبي

برّاح:

يقولوله بو العكاكيز، شايب حسّه سمح وعالٍ، يطوف بين نجوع الحبس، ويبيّح. نا ببidi صغيرة ونوعى على قدامه مربّطات بخرق ذاتية يكرين فالتراب والحصى. البرّاح يقول: من عبيد الله من شاف رؤيا: (فارس، وطابور أجمال. الببل باركه وجوهاً قبالة سيدى رافع، وقادامها ثلب. والفارس يلهد من ورا على فرس سمحّة تقول ايش، وهو وين يقرب ينجز الثلب، يصيّي الثلب ويمشي في قيسه، وهو يمشي ويتبعوه الببل).

بشرة:

فيه مرابط أول الرؤيا قال: الفارس هو سيدى المهدى، والثلب هو سيدى عبد الرحمن العلواني. وأساع يجي فرج من ربى بجاه سيدى المهدى، يطلع سيدى عبد الرحمن العلواني من حبس المقرون هو لولي، ونتبعوه كلنا. استبشرو الناس خير وفرحو، التمو على البرّاح اللي ساند جنحانه بالعكاكيز، يباركوه ويباركوا لسيدى عبد الرحمن.. بعد العصر، ماتت أختي الصغيرة. كي جن الصبيا يغسلنها، لقين اللوبان مازال بين سنونها.

أمّي:

تقولي عيشة الدردفية: ”خرفيني على أمّي“.. عيشة ما توعى شي على أمّها. نقوللها أمّك كانت سمحـة مـحالـك صباحـ، تـكـحـلـ هـدـبـها بـلـيلـ طـوـيلـ طـولـ شـعـرـهاـ. وبـوـكـ يا عـيشـةـ أـوزـيـاشـيـ استـشـهـدـ فـالـحـرـبـ. وكـيـ قالـ الطـلـيـانـيـ عـيـتـ العـلـوـانـيـ يـمـشـوـ لـمـقـرـونـ معـ الـبـرـاعـصـةـ وـالـدـرـسـةـ، وـعـيـتـ الدرـدـفـيـ يـمـشـوـ لـسـوـسـةـ. وـفـرـقـوـ المـنـفـىـ وـالـقـطـعـانـ وـالـحـبـبـونـ وـالـعـبـيـدـاتـ وـالـعـرـفـةـ وـالـسـلـاطـنـةـ وـالـعـبـيـدـ وـعـقـابـ لـسـلـامـ فـيـ مـطـارـ بـيـنـ العـقـيـلـةـ وـالـبـرـيـقـةـ وـسـلـوقـ وـعـقـابـ لـحـبـوـسـ. أمـكـ كانتـ صـغـيرـةـ وـمـتـرـمـلـةـ وـكـانـ عـمـرـكـ دـوـبـ أـرـبـعـ أـعـوـامـ. شـيـابـ أمـكـ ما رـضـيـوـشـ أمـكـ تـمـشـيـ لـسـوـسـةـ معـ هـلـ دـارـهـاـ، وـقـالـوـ بـنـتـنـاـ تـنـحـبـسـ مـعـانـاـ فـ الـمـقـرـونـ، وـشـيـابـكـمـ ما رـضـيـوـشـ بـنـتـ المـرـحـومـ وـلـدـهـمـ (أـنـتـ)ـ تـنـحـبـسـ بـعـيـدـاـ عـنـهـمـ، وـقـالـوـ تـمـشـيـ مـعـانـاـ لـسـوـسـهـ. عـقـابـ فـرـقـوـ بـيـنـكـنـ، كـلـ حـدـ خـدـ بـنـتـهـ، وـمـشـاـ لـلـشـرـ فـيـ قـيـسـهـ.

عطـشـ:

نـوعـيـ عـ الطـرـيـقـ لـمـقـرـونـ، طـابـورـ بـقـرـمـيـتـ عـلـىـ حـرـفـ الطـرـيـقـ، ضـلـوـعـ ذـاـيـبـ لـحـمـهـاـ. ذـبـانـ يـزـنـ، وـسـنـوـنـ كـلـبـ.

جوع:

”عُطُونِي الحشيشة ناكلها“، يقولولي موش اليوم. نقول عطونِي شاهي، يقولولي الشاهي دوب لكتار. أختي الصغيرة بكت على لوبان في فم ولية. كي كثُرت بـكانت فيها وطوحاته لها: خذيه انعن سم.

برميسمو:

أمي صغيرة وسيدي باتي شايب كبير، بعد سنين شرّ رينا هن ف المقرنون، عطوه الطليان برميسو يطلع للسوق. سافر لبنغازي وعقبنا ف الحبس. لاقاه حد توصله عند مسؤول طلياني، قاله هذا سيدي عبد الرحمن العلواني قيم سيدي رافع، شايب كبير بالك تعفيه وتعفي عاليته. ختمله الطليان برميسو يطلعنا م الحبس، أختي الكبيرة (أختي من بوبي) ما بتتش تطلع، قعدت مع راجلها وضناها في المقرنون. طلعننا نا وأمي وباتي، بتنا ليلة في بنغازي عند عرب أمهم خادم، تعشينا طبيخة بطاطا، أول مرة نذوق البطاطا ولا نعرف، لمبادر شدinya الرحيل لسيدي رافع. شهرین ولا ثلاثة جا فرج سيدي المهدى وطلعو كلهم، أختي الكبيرة اللي اعقبت ورانا ما لحقتش ع الفرج.. ماتت في الحبس.

حرام:

بو رجعة حطّوه الطليان مشرف، عطوه مركوب وبيت وثوب جديد جا عليه
قصير، غير ذلّوه العرب، قالو: يا بو رجعة كيف أمسّيت / مبروك حصانك
والبيت / غير علينا ما بَدَّيت / وحتّى ثوبك ما وقّيت .. بو رجعة واللي معاه
يوزعو في الرسيوني، حصة تموين أسبوعية، وكانو يضربيو بالسوط ف
العرب اللي مطهوريين شوط وكل حد شايل ماطارته، السوط ناش كراع بنت
عمتي يامنة: ننت فيهم قالت: يا كلاب الشوط! كرّوها الطليان للافتيش
يأدبوها.. وغضّبواها ع الحرام.

مودير:

أم حميدة، عاشت طول عمرها في عز، تفرح بالضيف وتَكَبَّرُ بيه، عمرها ما
ترد اللي يجيها. في عقاب عمرها في الحبس رق حالها، لكن ما مدت ايدها
لحد، تحطّب في عرّة نفس، تطّبّ ظهرها على كبر سنها ونقول: اطّبّ يا
ظهري للشيل / ما عمرك ريت كوادير / ولا ريت حميدة مودير!

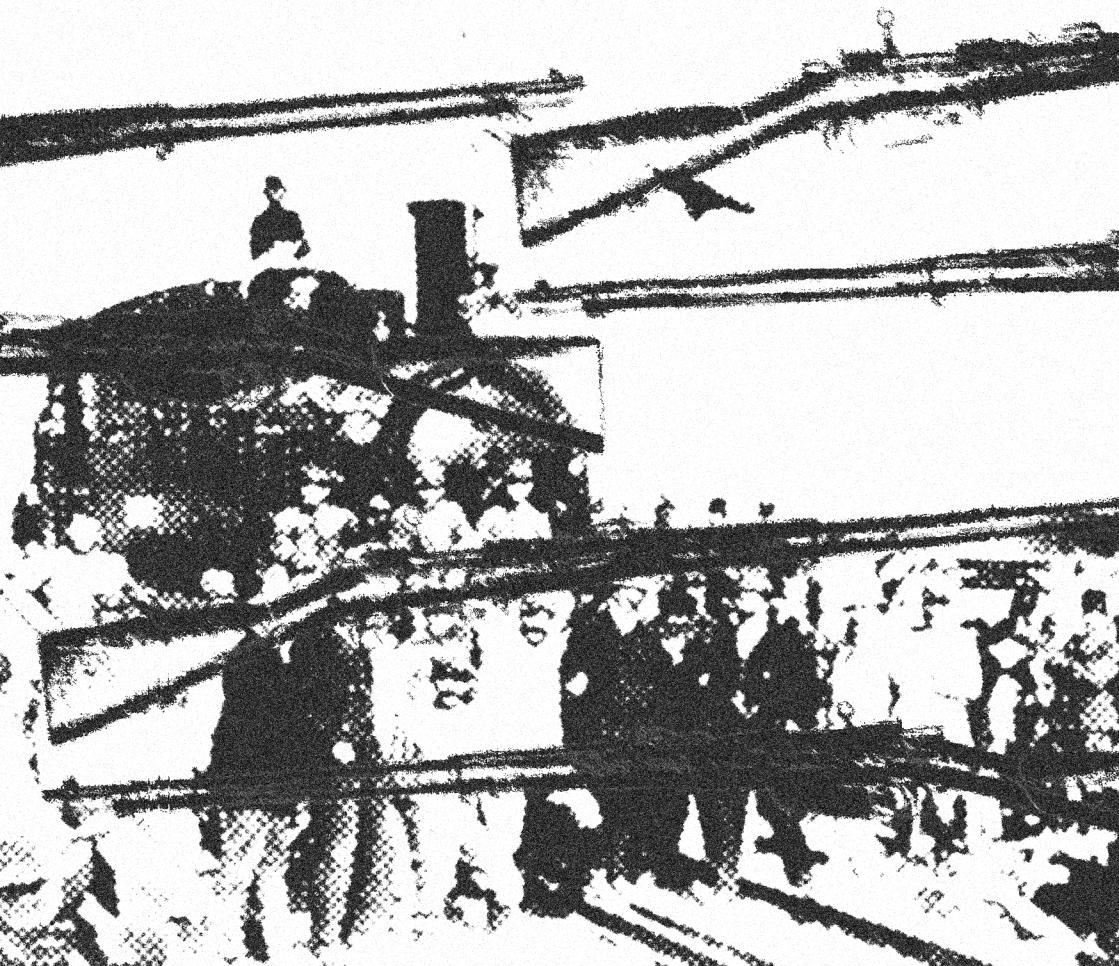
عون اللي زاره:

ف المقرنون كنت نَحَلَّم بسيدي رافع، نقول: يا سيدني رافع واكتاره / فيك
نعيش بلا ماطاره.. ف المقرنون نَحَلَّم بسيدي رافع نقول: يا سيدني رافع

لنصاري/ نورك ع القبة بعثاري.. يا سيدى رافع لنصاري/ كيف نموت
اجعّنك جاري.. ياسيدى رافع لنصاري/ زينك طاري.. ف الطريق لسيدى
رافع، وقفونا التفتیش، شافني العسكري راف بحالى، غاب غاب وجا جايبلی
ثوب، مابيتش ناخذه، العسكري قرطس الثوب وحّطه في كتري، مسكت
الثوب وعزمته عليه، أمي شهقت، وهو ما تكلّمش. مشينا في قيسنا، كي
تاق سيدى رافع زغرّت قدّام سيدى باتي، أمي تحشّمت وباتي ضحك. هو
اللي حفظني نقول: سيدى يا عون اللي زاره/ فوق براه/ فوق جمل م البل
مختاره.. عون اللي زاره فوق شلوق/ حجلها كيف البرق يتوق/ عصرانه لا
خشّت سوق ولا لاذو بيها سمساره/ عون اللي زاره سيدى يا عون اللي زاره.

أبريل. 2021

ملف خاص



الإِبَادَةُ الْجَمَاعِيَّةُ فِي لِبَيْبَا: الشَّرُّ، تَارِيَخُ اسْتِعْمَارِيٍّ مُخْفِيٍّ

على مدى عقد ونصف، كرس الدكتور علي عبد اللطيف حميده خبراته البحثية الطويلة، والمنهجية؛ للتنقيب العميق في تاريخ المتعقلات الفاشية الإيطالية في ليبيا، التي أسفرت عن إبادة جماعية بين عامي 1929 و1934. ولا بد من الإشارة إلى أن مجالات خبرته النظرية تتركز أساساً في السياسة والسياسات المقارنة وعلم الاجتماع التاريخي، وتركز دراساته متعددة الثقافات والتخصصات على السلطة والفاعلية والإبادة الجماعية والمقاومة ضد الاستعمار في شمال أفريقيا، وبخاصة في ليبيا الحديثة. تَقَصَّى الدكتور حميده الواقع عبر مسلكين اثنين، كان الأول: التنقيب في وثائق أرشيف موزع على ثلاث قارات، ومدّون بثلاث لغات. وكان الثاني: العمل الميداني عبر التنقيب في الذاكرة المحلية والتاريخ الشفوي، بما يشتمل من شعر شعبي، وموريات حول الواقع والواقع الجغرافيَّة المُتَسَقَّة بحادثة الإبادة. ومضى بعيداً عبر تأطير نظري يُسمَّ بالتحدي لوجهات النظر التاريخية الاستعمارية الإيطالية والأوروبية عن الطبيعة "الحميده" للفاشية الإيطالية.

في حصيلة بحثه، يقف الدكتور حميده في كتابه المعنون بـ"الإبادة الجماعية في ليبيا: الشَّرُّ، تَارِيَخُ اسْتِعْمَارِيٍّ مُخْفِيٍّ"، على الطرائق التي أحاطت تجربة الإبادة الجماعية في ليبيا بالصمت. متسائلاً عن خفاياها استبعادها، حتى ثمانينيات القرن الماضي، من التفسيرات التاريخية للفاشية التي تنظر فقط

إلى أوروبا، داعيًا إلى ضرورة أن تتجاوز الدراسات النقدية الجديدة للفاشية الإيطالية؛ النظرة المتمركزة أوروبياً للفاشية الإيطالية، عبر النظر إلى الإبادة الجماعية في المستعمرات خارج أوروبا، والإصرار على المسؤولية الأخلاقية والسياسية للدولة الإيطالية على فتح الأرشيفات ليتسنى معرفة الأسرار المخفية المحرجة وتأمين صوتٍ لمن نسيَ ظلماً.

في كتابه عن الإبادة الجماعية في ليبيا؛ يشير الدكتور حميد، إلى "سياسة الذاكرة"، والمتمثلة في الانقسام الواقع حول تاريخ تلك الواقعة: صمت في إيطاليا، في مقابل ذكرى حيَّة في ليبيا. ويدعو إلى ضرورة وضع الإبادة الجماعية في ليبيا ضمن إطار عام لتاريخ الإبادة الجماعية في العالم، مؤكداً أمرين اثنين: أولهما- ضرورة تحديد المدارس الفكرية ومراجعة افتراضات حالات الصمت وفئاتها. وثانيهما- الحاجة إلى تسلیط الضوء على الأمثلة والخطاب السائد في كلٍّ من الثقافة الأكademية والشعبية، دون نسيان "الأعمال الشريرة التي ارتكبها الفاشيون في أوروبا ولبيبا وإثيوبيا".

في هذا العدد من الغرفة 211، نخصص ملَّفًا يسلط الضوء على جانب من تجربته البحثية في تاريخ المتعقلات الفاشية الإيطالية في ليبيا، عبر التركيز على كتابه المعنون بـ"الإبادة الجماعية في ليبيا: الشَّر، تاريخ استعماري مُخفي"، والذي صدر باللغة الإنجليزية عن دار روتليدج "Routledge" سنة 2020، وحاز على جائزة الجمعية الأمريكية العلمية للدراسات المغاربية لعام 2022. وصدرت ترجمته العربية سنة 2023، عن "مَجْمَع ليببيا للدراسات المتقدمة ومؤسسة كلام للبحوث والإعلام".

ولابدَ من الإشادة بالدور اللافت والجسيم، للمترجم، الدكتور محمد زاهي

بشير المغربيي (أستاذ شرف علم السياسة بجامعة بنغازي، والمختص في السياسة المقارنة ودراسات الثقافة السياسية والمجتمع المدني والسياسة العامة)، الذي نقل الكتاب باقتدار إلى اللغة العربية، وجعله في متناول القارئ العربي. نحن نعتمد على ترجمته في ملف العدد الذي سيحتوي مقدمة الترجمة العربية، بقلم الدكتور حميد، إضافةً إلى فصل من الكتاب. في هذا الملف، تطالعون أيضًا قراءة في الكتاب، معنونة بـ“إعادة تشكيل تاريخ الإبادة الجماعية”， وهي بقلم فؤاد المغربي، وترجمة الدكتور نافع الطشاني. وفي ختام الملف، سعى فريق تحرير الغرفة 211، إلى الإحاطة بجوانب مختلفة من تجربة الكتاب، عبر محاورة الدكتور حميد.

◆

عن الدكتور علي عبد اللطيف حميد

ولد الدكتور علي عبد اللطيف حميد في ودان، ليبية، وتلقى تعليمه بجامعة القاهرة في مصر وجامعة واشنطن، سياتل. وهو الرئيس المؤسس (2000-2014) لقسم العلوم السياسية في جامعة نيو إنجلاند، في مدينة بيدفورد، بولاية مين، بالولايات المتحدة. ونشر مقالات رئيسية في مجلة الدراسات الإيطالية، والمجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، والمستقبل العربي، وفصلية العالم الثالث، والمجلة العربية للدراسات الدولية، كما أنه مؤلف لعدة كتب:

- ”المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا: دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار

- ”ما بعد الاستعمار والقومية في المغرب العربي: التاريخ والثقافة والسياسة“. كتاب جماعي حرره د. حميده، دار نشر بالغريف، 2001، وبترجمة عربية عن مركز دراسات الوحدة العربية، 2014.
- ”أصوات مهمّة: الخضوع والعصيان في ليبيا أثناء الاستعمار وبعده“، 2005 عن دار روتلاج، وُنشرت طبعة عربية عام 2009، وطبعة إيطالية عام 2013.
- ”جسور عبر الصحراء: التأثير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لطرق تجارة القوافل عبر الصحراء“، كتاب جماعي حرره د. حميده، عن دار كمبريدج سكولارز، 2009.
- ”ما بعد الاستشراق: مراجعات نقدية في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغاربي 1990-2008، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2009.
- ”ليبيا التي لا نعرفها“ (باللغة العربية) عن وزارة الثقافة الليبية، 2014.
- ”الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي“ عن دار روتلاج، 2020 وبالعربية عن مجمع ليبيا للدراسات المتقدمة، 2023.

الإيادة الجماعية في ليبيا: الشّر، تاريخ استعماري مخفي

تقديم المؤلف للطبعة العربية

علي عبد اللطيف حميده

طلب مني صديقي الدكتور زاهي المغيريبي مترجم الكتاب كتابة مقدمة للطبعة العربية ووافقت، ولكنني قررت أن أطرح فقط بعض المفاتيح والإشارات المنهجية والمعرفية علّها تفيد القارئ العربي في فهم واستيعاب هذا الكتاب الذي استغرق البحث فيه عقداً ونصفاً من العمل الأرشيفي والمقابلات الشفاهية والزيارات الميدانية للمعتقلات الجماعية في شرق ووسط ليبيا في الفترة ما بين أعوام 2000 و2015، ناهيك عن البحث الأرشيفي والأكاديمي بثلاث لغات وفي ثلاث قارات؛ أفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية.

ما يعرفه العرب عن المقاومة الليبية للاستعمار الإيطالي يتركز على شخصية شيخ الشهداء عمر المختار، وتحديداً طريقة إعدامه العلنية، والتي أراد الفاشيون الإيطاليون بذلك إخماد روح المقاومة بالإرهاب العلني لأحد أهم قادة المقاومة في المنطقة الشرقية.

القراء العرب يتذكّرون هذا المشهد الدموي، وبالذات بعد مشاهدة فيلم المخرج السوري الأمريكي الراحل مصطفى العقاد "أسد الصحراء". وهذا

الفيلم بلا شك عمل فني مبدع ومهم، ولكننا ننسى أو لا نعرف الأحداث الدموية الأخرى، وبالذات معسكرات الاعتقال الستة عشر وبخاصة معتقلات الموت الأربع الجماعية، والتي لم يكن عمر المختار معتقلًا بها، وهنا أعني 110,000 طفل ورجل وامرأة اعتقلوا في الفترة ما بين 1929 وحتى عام 1934 ومات أغلبهم جوعًا ومرضاً في هذه المعتقلات، أي: ما بين 60,000 إلى 70,000، بسبب سياسة عنصرية منهجية أسميتها الإبادة الجماعية في ليبيا.

ولكن لماذا حدثت هذه الجريمة الجماعية في شرق ووسط ليبيا؟ لأن المقاومة قُمعت وهُزِمت عسكريًا في الغرب الليبي، واضطرب معظم قادة المقاومة للهجرة إلى الجنوب الليبي أو إلى المنافي في تونس ومصر وتشاد والنيجر بعد عام 1922.

استمرت المقاومة في الشرق والجنوب الليبي حتى عام 1932، أي عشر سنوات من المقاومة، رغم عدم تكافؤ السلاح واستخدام الطائرات الحربية، ما قاد الفاشيين الظليان إلى خطة المعتقلات والإبادة الجماعية بعد ترحيل الأهالي وقبائل الشرق إلى صحراء سرت في المنطقة الوسطى ولإنهاء المقاومة وتفریغ الإقليم الخصيب من سكانه وتوطين المستوطنين الظليان، وهذا ما حدث في عام 1938 بقدوم 20,000 مستوطن إيطالي.

هذا الكتاب يطرح أسئلة جديدة عن مواضيع قديمة، وأيضاً يحقق في هذه الجريمة الجماعية التي يعرفها جل الليبيين، ولكن ليس بالعمق والتفصيل والتدقيق العلمي الصارم، كما أن هذه الجريمة الجماعية اختلفت وتعرّضت للتعتيم والسكوت عنها عن قصد وتعمد وبشكل مسيء في الجامعات

الإيطالية والأنكلو-أمريكية، أي أن البحث في هذه الجريمة الجماعية يتطلب التحقيق في ماذا حدث بالتفصيل، وأيضاً التحقيق في السكوت والإنكار السياسي والأكاديمي والمعرفي، وبخاصة في دراسات الإبادة الجماعية في القرن العشرين، وأيضاً التحقيق في هيمنة خرافه ومقوله إن الفاشية الإيطالية هي حميدة ومعتدلة ولم تقم بجرائم إبادة جماعية مثل الدولة النازية الألمانية.

ما معنى التاريخ المخفي والمجهول للشر؟

يحقق الكتاب ويقرأ، منهجياً، أدلة وقرائن تاريخ هذه الجريمة الجماعية وتداعياتها المستمرة على الحاضر، ولكن من وجهة نظر المعتقلين والناجين الليبيين وثقافتهم وقيمهم الشفاهية والشعرية، التي تعطينا المقابل الإنساني الحيوي للسكوت والصمت، أي الذاكرة الحية والتذكر والإصرار على عدم نسيان هذه الجريمة الجماعية.

ولذا أصررت على تناول سردية وثقافة الأحياء، وهم الذين قالوا لي إن ما حدث لهم كان النقيض للخير، أي إنه -في حقيقته- تاريخ الشر، وهذا مهم وظبيعي لأنه يعكس ثقافتهم الإنسانية العربية والإسلامية ووعيهم الحاد بما واجهوه من العنصرية والإبادة الجماعية الفاشية، وهنا تكون اللغة العربية ومحمول معانيها وتفاعلها مع الأحداث جزءاً من الطرح المنهجي للكتاب.

أصرّ الناجون على كلمة "تاريخ الشر" لتأكيد الطبيعة الشريرة للاستعمار الفاشي. كان تاريخ شرّ وجريمة مرعبة، وهو جزء أساسي من التاريخ الفعلي للفاشية الإيطالية، ولهذا من الضروري التساؤل عن مصداقية القول

والإعجاب ببعض القيادات الفاشية الإيطالية مثل الحاكم الاستعماري إتاو بالبو وخرافة بناء ليبيا التي بدأت تظهر الآن، خاصةً بعد سقوط نظام القذافي في عام 2011.

ولكن ماذا أعني بالتاريخ المخفي؟

كما هو معروف ومتاح، فإن تاريخ النازية وإبادة اليهود والغجر والاشتراكين قد أصبح معروفاً بعدمحاكمات نورمبرغ، بالإضافة إلى سياسة تعليم وإنماج هذه المحاكمة في الكتب والمدارس والجامعات والأفلام والمتحف كل عام في غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن في المقابل تناست الذاكرة الرسمية جرائم الفاشية الإيطالية في الدراسات الأدبية المعاصرة، بل وغيبت حتى في الأفلام والثقافة والإعلام، بل أقول إن هناك، وإلى حدّ كبير، تجاهلاً وجهلاً في العالم العربي بهذه الجريمة وتفاصيلها وتداعياتها على الحاضر، بل إن هناك أجيالاً شابة في ليبيا تعاني من عدم الفهم لهذه الجريمة الجماعية.

نجت الفاشية الإيطالية من المساءلة والمحاكمة حتى بعد سقوط هذه الدولة في عام 1943. هذا السكوت القانوني والأخلاقي عن جرائم الفاشية الإيطالية لم يكن سهلاً أو خطأً، بل كان نتاجاً لسياسة العنصرية المركزية الأوروبية وظروف الحرب الباردة ومعاداة الشيوعية في إيطاليا والمجتمعات الغربية بعد سقوط الفاشية وبروز الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي الإيطالي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وهزيمة القوى النازية والفاشية.

ولكن ماذا يعني هذا السكوت والصمت والإنكار؟ يعني تحديداً القول إن

ما حدث في أوروبا مهم لكون ضحاياه بشرًا أكثر رقميًّا، ولكن ما حدث ويحدث خارج أوروبا ليس مهمًا لأن تلك الشعوب أقل قيمة، وبالتالي من المقبول النظر إلى هذه الجريمة وكأنها ضريبة التقدم والتمدن والحداثة الاستعمارية، هذا التفكير هو دليل على العنصرية الاستعمارية وفكرها التبريري الاستشرافي.

وهنا أريد أن أنبئ القارئ العربي إلى أن هذا الكتاب ليس ثمرة تحقيق علمي وصارم ومقارن عن هذه الجريمة، ولكنه تحقيق في السكوت والصمت الغربي والعربي الرسمي، وبالذات في ليبيا بعد الاستقلال في العام 1951 وحتى الآن.

الكتاب يقدم الحالة الليبية للإبادة الاستعمارية للقارئ العربي والعالمي، وهنا تكمن أهمية الطرح المنهجي والمعرفي للكتاب الذي يحقق في الإبادة في ليبيا، ولكن عبر طرح رؤية جديدة للثقافة والتاريخ وحالات الإبادة في أوروبا نفسها. أي إن كتابة التاريخ المقارن للإبادة يتطلب فهماً جديداً، فلم يعد من المقبول علمياً تجاهل التاريخ المشترك والمتشارب والمتدخل والذاكرة والنسopian والسكوت. نحن لا نستطيع فهم تاريخنا ولا هم أنفسهم في إيطاليا وأوروبا بقدارين على فهم تاريخهم من غير فهم الاثنين، وهذا يتطلب تجاوز طرح الدولة القومية/ الوطنية الضيق في الدراسات العربية والغربية وما يصاحبه من مفاهيم دراسة التواريХ الأوروبية والأفريقية والعربية والآسيوية بمعزل بعضها عن بعض.

للأسف الشديد تجاهل المفكرون والأكاديميون العرب لفترة طويلة الاهتمام بالمحرقة اليهودية التي قام بها النازيون الألمان بحجة أن أوروبا لا تعنينا،

حيث إنهم قد قاموا بإبادة الأقليات في مجتمعاتهم، وعلينا نحن الاهتمام فقط بالاستعمار الذي تعرضت له أوطاننا، وأيضاً -وبإعلان الاستقلال- يكون عصر الاستعمار قد انتهى، وبالتالي انتهى الجدل المعرفي والعلمي والنقدى لتلك المرحلة، وانتقل إلى مجال مرحلة ما بعد الاستعمار، ناهيك عن الفصل ما بين إنتاج المعرفة والاستعمار والحداثة. والأهم إدّاً، من هذا المنطلق، هو التنمية والحداثة والتقدم، أما الباقي فتاريخ انتهى منذ فترة طويلة.

إنني أختلف مع هذا الاتجاه المهيمن في الدراسات الفكرية والأكاديمية العربية، بل أرى أنه من الضروري ربط إنتاج المعرفة بالسياق المادي والمؤسسي والحجاج ضد فكرة الحياد والموضوعية الأكاديمية بشكل ساذج ومطلق، وبالتالي أرّكز على الأطروحات المعرفية والتاريخية التالية: المحرقة اليهودية ليست استثناء أو حالة خاصة وفريدة في تاريخ الإبادة داخل أوروبا، بل هي متجلّة في الجرائم الاستعمارية في أفريقيا، أي إن المحرقة هي خلاصة الجرائم الاستعمارية للإبادة، وبالذات في الكونغو وناميبيا وليبيا.

والاكتشاف الأهم هو تقديم دليلاً غير معروف عن إعجاب واهتمام ودراسة النازيين الألمان للحالة الإيطالية، وبالذات تفريغ المنطقة الشرقية من سكانها والقضاء عليهم، أو "النجاح" في سياسة المعتقلات الجماعية في الفترة ما بين 1929 و 1934 قبيل سياسة المحرقة والمعتقلات النازية في أوروبا.

هذا الكتاب يفضح سياسة السكوت والإنكار داخل إيطاليا وأوروبا، ويواجه

أيضاً صمت وإهمال الدولة الليبية الحديثة وعدم اهتمامها الجاد بهذه الجريمة. نحن بعبارة أخرى نحتاج إلى النقد المزدوج في مواجهة العنصرية الأوروبية، وبالذات في إيطاليا وتخاذل الدولة الليبية في الاهتمام بهذا الموضوع وهذه الجريمة.

هذا الكتاب يفضح هذا السكوت والتخاذل، ويكشف عن التاريخ المجهول والمخفى وإخضاع هذا التاريخ لتحقيق علمي صارم، وبال مقابل الإصرار على حق الناس العاديين في السرد والحديث عن جريمة المعتقلات والإبادة الجماعية الاستعمارية. هذا التاريخ الحيوي الإنساني للأحياء والناجين وأحفادهم يعطينا ذاكرة خصبة تحافظ وتعبر عن رؤاهم وأصواتهم رغم الصمت والإنكار والعنصرية في جل الكتابات والدراسات المعاصرة عن جرائم الإبادة الجماعية في القرن العشرين، ولذلك فإنه ليس تاريخ الشر في الماضي، إنه تاريخ الحاضر وتجلياته كما نراها الآن.

والله ولي التوفيق.

د. علي عبد اللطيف حميده
مدينة ساكو، ولاية مين
الولايات المتحدة الأمريكية
10 ديسمبر 2021

مقتطف من كتاب الإيادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي “لقد متنا من الشر يا بني” قصص الناجين من الموت وصدمة معاناة المعتقلات

ما داروا فينا خير الطليان، وما رينا منهم غير
البئر.

جاب الله محمد الجالي المنفي،
معتقل العقلة

الجمل بالنسبة للبدو الرّحل الليبيين حيوان مقدس وهو الصديق الأكثـر قيمة. عندما يموت يرثون رحيله وكأنـه إنسـان.

إبراهيم الكوني، 2018

خرابين يا وطن ما فيك والي
وذيلك جوًالي ولخرين في المشنقة والقتالي
خرابين يا وطن ما فيك هل
الله، ما حلاف، المشانة، حصا،

الشاعرة فاطمة عثمان، 1929

أخبرني أحد الناجين قصة مؤثرة لامرأة لديها طفلان عوقبت بالجلد ثم قُيّدت بسارية العلم المركزية في معتقل العقيلة طوال اليوم. طلبت من رجل مساعدتها في الليل. اقترب منها ووجدها الطفليْن، طفلاً صغيراً

متمسّكاً بجسدها، وطفلاً رضيّعاً كانت تحمله على الرغم من أنها كانت مربوطة بالعمود. طلبت من الرجل أن يضغط على صدرها حتى يرضع الطفل، ففعل. وفي موقف آخر مختلف، كان رجل عجوز مضطجعاً في ظل خيمة، وكان هناك صف من النمل على ذراعه. وعندما حاول صبي عابر إزالة النمل، نهره الرجل العجوز قائلاً لا. وفي وقت لاحق فقط أدرك الصبي أن الرجل العجوز يريد الاحتفاظ بالنمل لأنّه (أي النمل) كان يحمل الحبوب من مخزن مستلزمات المعتقل. هذه ليست حكايات مضحكة، بل قصص أناس يواجهون الموت.

تحدّث الناجون من المعتقلات عن أحداث أخرى تسبّبت، وفق تفسيراتهم، في وفاة الكثير في المعتقلات الأربع الكبّرى. لم يزدّ الجيش الإيطالي المعتقلين بالأدوية والملابس. كان لدىآلاف الأشخاص طاقم واحد من الملابس، بدون أحذية، ولم يستحّمُوا لمدة ثلاثة سنوات لدرجة أن البراغيث والالتهابات أصبحت حالة منتشرة بين المعتقلين وجعلتهم عرضة للإصابة بأمراض مثل الجدري والتيفوس والعمى. كان محمد عصمان الشامي في الحادية عشرة من عمره عندما اعتُقل مع والدته في معتقل العقلة سبي السمعة. كان يرتدي قميصاً واحداً لمدة ثلاثة سنوات ولم يكن لديه حذاء. وروى أنه بسبب عدم وجود صابون للاستحمام في تلك الفترة، انتشر القمل والبُق في ملابسهم لدرجة أن والدته كانت تأخذ خرقة القميص البالية وتغليها في الماء لقتل القمل والبُق.

قال الحاج محمد إدريس الشلماني (معتقل المقرن): "اللي صار للشعب الليبي ما صار لحد، ياما رينا من هم". وقال هارون عبد العزيز مصطفى

علي عبد اللطيف حميدة



GENOCIDE IN LIBYA

SHAR, A HIDDEN COLONIAL HISTORY

ALI ABDULLATIF AHMIDA



غلاف النسخة الإنجليزية من كتاب "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشّرّ، تاريخ استعماري مخفي."

(معتقل الأبيار): "الحيوانات قطعت وخداتها الطليان، وخلونا فقرا بلا شيء. ويتذكّر عطية منيّه اللافي (معتقل العقيلة): "قطعننا الشر والمرض. كانوا يريدون موتنا. ماتت ناس واحدة من الكدر والهم". وقالت الحاجة باهية حمد العبيدي (معتقل البريقة): "كانوا يبوا يفونوا ويقضوا علينا.

العبيادات أكملوا من الحرب والموت في البريقة". وأضافت: "من الهم، كنا نتمنى الموت"، وإذا وجدت ضابط المعسّكر الإيطالي باريلا Barilla أمامها مرة أخرى، كانت ستتضرّبه بالعصا، ثم أضافت ببساطة: "الحمد لله عاد بلدنا ليبنا من جديد"، وكانت تقصد بذلك، الحمد لله، أصبحت بلادنا ليبيا خالية من الاستعمار ونحن مستقلون.¹ هذا التاريخ الجماعي الحيوي الذي هو ما اكتشفته بعد أن بدأت عملي الميداني، وسافرت في جميع أنحاء البلاد، وأجريت مقابلات مع العديد من الناجين، ويبدو الأمر كما لو أن الأصوات المخفية تتحدى وتواجهه بشكل مباشر كلاً من الدولة الإيطالية الاستعمارية والدولة الليبية بعد الاستقلال عام 1951.

كانت السياسات الموضوعة في عهد الفاشيين الإيطاليين تستهدف حركة الجهاد في شرق ليبية، ويشمل ذلك من دعموها بالطعام، والأسلحة، والمجاهدين الذين حموها وتجسسوا على الجيش. وصمم هذه السياسة الاستعمارية اثنان من الجنرالات صرحاً بنيتها في اعتقال السكان المدنيين، وهما حاكم ليبيا، الجنرال مارشال بيترو بادوليو، الذي كان رئيس أركان موسوليني، والجنرال القاسي رودولفو غراتسياني. وفي عام 1928،

¹ Interviews, Muhammad 'Usman al-Shami, June 13, 2007 Agaila and October 23, 2008, Benghazi. Also, Haj Muhammad Idris al-Shilmani, May 5, 2004, Slug, Haj Sa'id Atiyya al-Lafi, November, 2008, Benghazi and Haja Bahiya Hamad al-Abaidi, August 7, 2008, al-Iziyyat.

أمرهما الدوتشي بتولي مهمة هزيمة المجاهدين باستخدام استراتيجيات تشمل الإبادة الجماعية والقتل الجماعي، ومع ذلك لم يكن الفاشيون أول المستعمرين الذين استخدمو سياسات وحشية من نفي وإعدام وسجن الشعب الليبي، فقد ارتكب المستعمرون الإيطاليون الذين يزعمون أنهم “ليبراليون”， الذين غزوا البلاد في أكتوبر 1911، مذابح ونفوا آلاف الليبيين وسجنوهم داخل ليبيا وفي جزر جنوب إيطاليا في الأعوام 1911 و 1915 و 1930.

باختصار: كانت سياسة الاعتقال مجرد جانب واحد من استراتيجية أكثر شمولًا لسحق حركة الجهاد من خلال استهداف قاعدتها الاجتماعية، تصاحبها سياسات وحشية مثل الإعدامات، ومصادرة الأراضي، وتسميم المحاصيل وحرقها، وقتل الماشي، وتشييد سياج من الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية لجعل شرق ليبيا سجنًا أو معتقلًا فعليًا، وهكذا كان بنفيتو موسوليني، ومارشال بيترو بادوليو، وإميليو دي بونو، ورودولفو غراتسياني، المصممين الرئيسيين للسجن في المعتقلات والإبادة الجماعية. وكان هؤلاء القادة الفاشيون واضحين وصريحين في نيتهم في الإبادة الجماعية عبر سحق المقاومة وقادتها الاجتماعية بأي وسيلة، حتى لو كان ذلك يعني القضاء على جميع سكان برقة. وكانت الإبادة الجماعية مصممة لسحق المقاومة من أجل تحقيق الهدف الفاشي الرئيس المتمثل في الاستيلاء على الأرض لصالح المستوطنين الإيطاليين، وبالتالي وبعد تفريغ الأرض من السكان الأصليين، كانت أراضيهم تُمْتَحَن للمستوطنين الإيطاليين، ووصلت الموجة الأولى البالغ عددها 20,000 مستوطن في

خريف عام 1938. كانت هذه هي الخطة الديموغرافية الأكبر. وأصبح الاستعمار الاستيطاني الفاشي في ليبيا مرتبطاً بسياسة الإبادة الجماعية، أي كان أساس سياسة الإبادة العنصرية الفاشية الاستيلاء على الأرض وتفرغها من السكان لصالح المستوطنين الطليان.

وسوف يبحث هذا الفصل في المواضيع التالية: خطة الترحيل ومسيرة الدموع، المسمّاة "الرحلان"، كما يتذكّرها المعتقلون؛ وتدمير 600 ألف رأس من الماشية؛ وردود أفعال المعتقلين حسب طبقتهم الاجتماعية، وجندرهم، وعمرهم، وخلفيتهم الجهوية؛ وسرديات مختارة من المعتقلات الخمسة حول الثقافة، وشعر الصدمة، والحزن في المعتقلات؛ وأخيراً ما حدث بعد هزيمة المجاهدين وإغلاق المعسكرات أواخر عام 1933 وأوائل عام 1934.

تتمثّل السمة الرئيسة للثقافة في السردية الشفوية والتواصل الشعري. وأزعم أن الليبيين البدو تعلّموا، منذ طفولتهم، استيعاب التقاليد الشفوية والشعر. وقد وجدوا أن التذكّر والحفظ أمران ضروريان للاستمرار في نشر تاريخ اضطهادهم، حتى لا ينسى. أتذكّر أن والدتي وجدتني كانتا ترددان في بيتنا الشعر الشفهي طوال الوقت. بالإضافة إلى ذلك تعلّمنا الشعر من خلال المدارس والإذاعة والأخبار. وكان الشعر يُعرض ويدرس في المجتمع الليبي، حيث كان متّصلاً بعمق في ثقافتنا. ويلعب الأطفال لعبة تسمى "مطارحات"، أي المناظرة الشعرية، وقراءة الشعر باستخدام آخر حرف البيت الشعري للبدء ببيت شعري آخر. باختصار: كان للشعر تقدير في المنزل وفي الأماكن العامة، كما يتضح في المدارس وفي حفلات الزفاف،



معتقل العقيلة

والجماعات المحلية، وبالتالي من الطبيعي على هذه الثقافة ممارسة الناجين تلاوة قصائد كاملة، بما في ذلك تفاصيل الأشخاص الذين اعتُقلا وأسمائهم وأعمارهم وشخصياتهم. أما أولئك الذين سقطوا على طول الطريق “الرحلان” إلى المعتقلات، أو اقتيدوا إلى المنفى، أو جاعوا حتى الموت، فلا يزال الناجون وأطفالهم وأحفادهم يتذكّرونهم جميعاً. بعبارة أخرى: هذا التاريخ ليس جزءاً من الماضي فحسب، بل هو تاريخ حاضر في الثقافة اليومية.

الترحيل القسري ومسارات الرحلان

سجلُ الأرشيف الإيطالي صامت حول موضوع الترحيل هذا، حيث لم نجد سوى تقريرٍ واحدٍ فقط كتبه المتصرف العسكري الإيطالي عن ترحيل قبيلة العواقير إلى معتقل سلوق²، مع ذلك فإن التاريخ الشفوي للمعتقلين والناجين يؤمّن لنا روايات مفصلة ومحدّدة لهذا الاقتلاع المرّ من مناطق بعيدة بالقرب من الحدود المصرية ومنطقة البطنان في الشرق والجبل الأخضر إلى صحراء سرت القاسية (حيث تلتقي الصحراء والبحر). وتتميز سرت بقلة أشجارها ومياهها وندرة المأوى الطبيعي. لم تكن المسافة طريقاً

2 The Italian Archives is silent on the topic of deportation with only one report on the deportation of the Awagir Tribe to Sloug by The Italian colonial Mutasarif of Benghazi ASAMI, vol. v, in ventari e, supplementi, Bacco 5, commissaria to regional de Begnasi, Relazione Sloug, 28 Lunglio 1932. 4. On the nineteenth century American removal of Native American Cherokee known as The Trail of Tears see *The Cherokee Removal: A Brief History with Documents*, (Boston: Biddeford Books, 1995), 160–162, and Amy H. Sturgis, *The Trail of Tears and Indian Removal*, (Westport: Greenwood Press, 2007) 58. On the mass killing of 30 million animals, see Andrew C. Isenberg, *The Destruction of the Bison*, (Cambridge: Cambridge University Press, 2000) 12.

مستقيماً ولكن كان بها العديد من المنعطفات والتوقفات. وكانت المسافة 1100 كيلومتر تقريباً من السلوم إلى معتقل العقيلة والبرقة. وإلى الآن، يُطلق على السكان المرحلين اسم "الرحلان". وكان غالبية الذين تعرضوا لسياسة الترحيل والاعتقال من قبائل البدو الرُّحل وشبه الرُّحل الذين كانوا منظمين من خلال الطريقة السنوسية وقيادة عمر المختار في نظام اجتماعي واقتصادي وثقافي متكملاً. ولم تستهدف السياسة الإيطالية سوى جزء صغير فقط من السكان الحضر في المدن وسكان البلدات الساحلية في برقة، ونتيجة لذلك اعتُقلت الغالبية العظمى من أقارب المجاهدين في معتقلات العقيلة، والبرقة، والمقرن، وسلوك سيئة السمعة، ولذلك حدثت أفعى حالات الوفاة في هذه المعتقلات العقابية الأربع، حيث اعتُقل فيها 65% من المرحلين، وليس من المستغرب أن يُعتقل أقارب المجاهدين في معتقل العقيلة والبرقة. وعندما قُبض على المختار، كان هناك حداد جماعي وكابة في المعتقلات، وقد شُنق في معتقل سلوق أمام 20,000 مدني مسجون لإرسال رسالة مرعبة إلى السكان المحليين. كان بإمكان القادة الفاشيين الإيطاليين نفي أو سجن الشيخ وقادة الجهاد، ولكن الواضح هنا أنها رسالة القتل والإبادة.

جنود المستعمرات وحراسة المعتقلات

كان الجيش الإيطالي الذي نفذ خطة الترحيل في عامي 1929 و1930، يتَّأَلَّفُ من ضباط وجنود إيطاليين، بالإضافة إلى عساكر استعمار مجندين، معظمهم من إريتريا، ومجندين ليبيين يُدعون باندا Banda. في ليبيا، أطلق الناس على عساكر الاستعمار الإيطالي المجندين من إريتريا اسم "مصوّعة" في إشارة إلى ميناء مصوّعة، وـ"الحبش" في إشارة إلى الحبشة الاسم القديم لأثيوبيا. أما العسكري، أو في اللغة الإيطالية ascari، فهو اسم نشأ في اللغة العربية ويعني جندياً، ولكن في أفريقيا المستعمرة، تحمل هذه الكلمة معنى محدداً: أحد السكان المحليين الذي أصبح مجنداً مع المستعمر. كان لجميع الدول المستعمرة، بما في ذلك ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا، عساكرها الذين لم يُجندوا في أفريقيا فحسب، ولكن أيضاً في أوروبا ومات الآلاف منهم خلال الحربين العظيمتين.

في الجيش الإيطالي، جاء غالبية عساكر الاستعمار المجندين من إريتريا، أول مستعمرة إيطالية في أفريقيا، بينما كان بعض الليبيين الذين يخدمون في الجيش الاستعماري الإيطالي يُطلق عليهم اسم باندا باللغة العربية، وهي كلمة إيطالية تعني فرقة عسكرية. استخدم الجيش الإيطالي عساكر مجندين محليين ليبيين لأسباب مختلفة، مثل حقيقة أن رواتبهم أرخص من الجنود البيض الإيطاليين، وأن الجيش يمكنه تجنب رد فعل الرأي العام داخل إيطاليا عندما يموت الجنود في المعارك، وأن عساكر الاستعمار المحليين أكثر قابلية للتكيف مع بيئه وجغرافية المستعمرة. وتعاون عساكر الاستعمار من المجندين الليبيين، الباندا، مع الدولة الاستعمارية الإيطالية

بسبب مجموعة متنوعة من العوامل المعقدة. وقد انضم الليبيون، غير المدركين إلى مفهوم التعاون مع العدو إدراكاً كاملاً، إلى الجيش الإيطالي بسبب الاحتياجات الاقتصادية، أو للانتقام من منافسيهم إما في ظل الدولة العثمانية قبل عام 1911 أو خلال فترة الصراع على الأرض والسلطة. وجاء عساكر الاستعمار المجموعة من أول مستعمرة إيطالية في شرق أفريقيا عام 1869؛ أصبحت هذه المستعمرة مصدراً للعمالة الرخيصة في الجيش الاستعماري الإيطالي في ليبيا بعد عام 1911. وجند الإيطاليون الآلاف من الإريتريين والصوماليين واليمنيين والليبيين في الجيش الاستعماري. ولم يكن هذا مفاجأة، حيث جئت الجيوش الاستعمارية الألمانية والفرنسية والبريطانية عساكر استعماريين للقتال معهم في أفريقيا وآسيا وأوروبا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. وكانت الغالبية العظمى من العساكر المجندين في الجيش الإيطالي من المسيحيين وقد حُشدوا لمحاربة المسلمين في ليبيا. وقدّمت المستعمرة الإيطالية الأولى، إريتريا، ما بين 60,000 و 150,000 عسكري استعماري خدموا أثناء الغزو الاستعماري الإيطالي واحتلال ليبيا وإثيوبيا بين عامي 1911 و 1943.³ واستمرت هذه السياسة الاستعمارية في ثلاثينيات القرن الماضي عندما قام عساكر الاستعمار المجندون بحراسة المعتقلات وحمايتها، وجند الأطفال الأيتام

3 On Italian colonial soldiers Askari (Askari) from Eritrea, see Uoldelal Chelati Dirar, "Truppe Coloniale e L'individuatione dell' Africa agency: Il Caso degli askari eritrei," *A fricche e orienti. Il ritorno della memoria olonial*, 1:1 (2007) 41–56, and his earlier article "From Warriors to Urban Dwellers," *Cahiers d'études africaines*, 175 (2004) 533–574, Nir Arielli, "Colonial Soldiers in Italian Counter-Insurgency Operations in Libya, 1922–32," *British Journal of Military History*, 1:2 (February 2015) 47–66, and Alessandro Volterra, *Sudditi Coloniali. Askari eritrei, 1935–1941*, (Roma: Franco Angeli, 2014).

من المعتقلين كعساكر في الجيش واستُخدِموا لاحقاً في غزو إثيوبيا عام 1936. وكان عساكر الاستعمار الليبيون بقيادة عاكف أمسيك، وهو ضابط من بلدة غريان الغربية، وقبله القائد الأمازيغي "الجبالي" يوسف خريش. وكلاهما تعاون مع الجيش الإيطالي وخدم معه لعوامل مركبة ومعقدة تناولتها في كتابي الأول "المجتمع والدولة والاستعمار".

وطلت المرحلة الخامسة من الترحيل القسري، على الرغم من الصمت عنها في المصادر الاستعمارية الإيطالية، حية ولا يزال يتذَكَّرُها بالتفصيل الأشخاص الذين نجوا من الاعتقال والأطفال الصغار، الذين حفظوا بعض الشعر الشعبي من المعتقلات أو استمعوا لروايات شفهية من الناجين. وهذه العوامل حاسمة في توضيح تاريخ اعتقال المدنيين وترحيلهم، وفهم سبب ترحيلهم، وتوصيف مواجهات المرحَلين مع الجيش الاستعماري الإيطالي، وأخيراً فهم ما حدث خلال مسيرة الدموع والخوف الطويلة للمرحَلين من مناطق بعيدة بعد الحدود المصرية، كما كان حال قبائل البطنان وقبيلة العبيادات في الجبل الأخضر الذين ساروا لمسافة 1100 كيلومتر، وأخرون من سائر الإقليم الذين سافروا إما على الأقدام وإما على ظهور الإبل، أو في سفن قديمة، إلى صحراء سرت القاسية.

وتشير المصادر الأرشيفية الإيطالية المتاحة إلى أن موسوليني ضغط من أجل هزيمة حركة الجهاد في شرق ليبيا، ولكن وفقاً لأنجلو ديل بوكا، كان الحاكم الاستعماري للبيبا المارشال بيترو بادوليو هو الذي وضع خطة الإبادة الجماعية الفعلية لحل "مشكلة برقة". وكلف بمهمة تنفيذ هذا الحل النهائي لسحق المقاومة، باستخدام جميع الأدوات العنيفة، الجنرال

الإيطالي الأكثر قسوة، رودولفو غراتسياني، نائب الحكم الاستعماري في برقة. وجادل المؤرخ الإيطالي روشات بأن مصير المدنيين الليبيين حُسِم لحظة تعيين غراتسياني منفّذاً لخطة الإبادة الجماعية هذه.⁴ وكان المارشال بيترو بادوليو (1871-1956) رئيساً لموظفي موسوليني بين عامي 1925 و1940 وأصبح حاكماً للبيضاء بين عامي 1928 و1933. كان هو ونائبه، الجنرال غراتسياني، مسؤولين عن القتل الجماعي في برقة. وعلى المرء أن يضيف اسم الجنرال الثالث إميليو دي بونو، وزير المستعمرات، أيضاً. وأصدر موسوليني تعليمات للحاكم بادوليو لسحق المقاومة بأي ثمن. وجاء بادوليو بفكرة المعتقلات، كما يستبين بوضوح شديد من أوامره في رسالته المهمة إلى نائبه غراتسياني، حاكم برقة، في 20 يونيو 1930. وتنص هذه الرسالة المتعلقة بخطة الإبادة بوضوح شديد "الآن حُددت المهمة، ويجب على المرء أن ينفذها حتى النهاية، حتى لو هلك جميع السكان الأصليين".⁵ أما الجنرال غراتسياني (1882-1955) فهو ضابط عسكري استعماري كبير آخر خدم في جميع المستعمرات الإيطالية بما في ذلك ليبيا. وكان قد اكتسب شهرة في وقت سابق في ليبيا بقمعه للمقاومة في فزان، ولقب "جزار فزان" عندما استخدم الطائرات والدبابات المتحركة وحتى الغازات السامة لهزيمة المقاومة. ويطلق عليه المؤرخون الليبيون لتلك الفترة اسم

4 On the colonial official letters see Giorgio Rochat "The Repression of Resistance in Cyrenaica (1927-1931)" Enzo Santarelli, Giorgio Rochat, Romano Rainero, and Luigi Goglia, *Omar al-Mukhtar* translated by John Gilbert (London: Darf Publishers, 1986), 78-79. This is an undated version of Rochat's 1973 seminal work where he stated that the internment was genocide.

5 The letter with a clear intention and plan for the genocide in Badoglio to Graziani June 19, 1930.

”سفاح ليبيا“. وُعيّن حاكماً على برقة سنة 1929، ونَفَّذ عمليات الترحيل والقتل الجماعي في المعتقلات. بعبارة أخرى: لم يكن الجنرال غراتسياني المسؤول الوحيد، ولكنه كان منفداً لسياسة دولة فاشية وعنصرية.

بعد ليبيا، كُلّف حاكماً بالنيابة عن الملك في إثيوبيا حيث واصل السياسة الوحشية ضد المدنيين التي أتقنها في ليبيا، بما في ذلك استخدام الغازات السامة، والقتل العقابي الجماعي، والمعتقلات. واستمر كلا الجنرالين ضمن القيادة العسكرية العليا للدولة الفاشية حتى نهايتها. وتعاون بادوليو مع الحلفاء وأصبح رئيساً للوزراء في عام 1944. ولم يواجه قط اتهامات بارتكاب جرائم حرب. وكان غراتسياني مخلصاً للفاشية، حتى أنه أصبح وزيراً للدفاع في الجمهورية الاجتماعية الإيطالية، الدمية الألمانية، في سالو Salo. ولم يُحاكم من قبل لجنة جرائم الحرب التابعة للأمم المتحدة، ولكن في عام 1948، أُدين غراتسياني من قبل محكمة إيطالية، وحُكم عليه بالسجن لمدة 19 عاماً بتهمة التعاون مع النازيين، ولكن ليس لدوره في الإبادة الجماعية في ليبيا والمذابح الأخرى في إثيوبيا بعد عام 1935، ومع ذلك أُفرج عنه بعد أربعة أشهر. ودافع عن أفعاله وعن الفظائع الفاشية في ثلاثة كتب ودعم الحزب الفاشي المحدث حتى وفاته في عام 1955. ويقدم التاريخ الشفوي بعض الأفكار المثيرة للاهتمام حول من جاء بفكرة المعتقلات. وهنا تكمن المشكلة الرئيسة للدراسات والأبحاث حول الفاشية الإيطالية ”المعتدلة“: القبول غير النقدي للأرشيفات الاستعمارية. إذا قرأ المرء المحفوظات على أنها حقائق، كما فعل المؤرخ الإيطالي ذو التأثير الواسع وكاتب سيرة موسوليني رينزو دي فيليسي Renzo De Felice، فإنه

سيقبل افتراضات وادعاءات الفاشية والاستعمار بوصفهما مرحلة إيجابية وتحديّية من التاريخ. الأرشيف مهم، ولكن الأهم كيفية قراءته وفهمه، وهذا بيت القصيد من التفكير الواعي والنقد.

ويكشف التاريخ الشفوي الذي جُمع في تلك الفترة باللغة العربية عن بعض المعلومات الجديدة، مع الأخذ في الاعتبار أن السلطات الفاشية حجبت العملية عن وسائل الإعلام الغربية، وبدلًا من ذلك قامت بحملة دعائية ضخمة حول تأديب البدو الرحل، ورجال القبائل في شرق ليبيا، والمقاومة المتعصّبة، والخارجين عن القانون. وأشار بعض الناجين إلى أنهم عوّقّوا لأن أحد المتعاونين الليبيين، الشارف الغرياني الذي كان مستشاراً للدولة الإيطالية في ليبيا، نصّح الإيطاليين بأن الطريقة الوحيدة لهزيمة المجاهدين هي أن “قطع الجذور يميت الشجرة”. وترمز الشجرة هنا إلى المجاهدين ضد الاستعمار، وتشير الجذور إلى المدنيين الذين يوفّرون القاعدة الاجتماعية. لم أجد أي دليل يدعم الادّعاء بأن الشارف الغرياني كان وراء فكرة الاعتقال. قد يفسّر المرء مثل هذه الفكرة على أنها تعبير عن الغضب أو رد فعل السكان المقاومين ضد المتعاونين مع الجيش الإيطالي، وبخاصة عند الاستماع إلى التاريخ الشفوي السردي حول وحدة الناجين القوية والعضوية مع المجاهدين ضد الاستعمار.⁶

وقال مفتاح الشلمني، أحد الناجين من معتقل المقرنون، إنهم قد قبضوا علينا وسجّنونا لأن المجاهدين بقيادة عمر المختار كانوا “يأكلوا منا، نعطيهم في الأوكال (الأكل) والسلاح وارجال”. وقال يوسف سعيد البلعзи،

6 Rochat, “The Repression,” 78–79.

أحد الناجين من معتقل سلوق: ”عطيناهم الأوكال والشاهي والسكر والبلغ واللباس، يأكلوا من تبرعنا“ . أما علي مجيد العقوري من معتقل سلوق فقد قال: ”احنا اللي وكلنا سيدى عمر المختار والمحافظية (الاسم الذي يطلقه الليبيون على المجاهدين)“.⁷

كما قام السكان بتوفير المجاهدين والمعلومات الاستخباراتية للمقاومة، وكانت هذه الوحدة العضوية بين المقاومة المسلحة والسكان المدنيين تستند إلى مقاومة حرة وطوعية، حيث كانت إيطاليا النظام الفاشي الوحيد الذي له مستعمرات في أوروبا. هنا لدينا مزيج من الفاشية والاستعمار، ما أدى إلى فرض جرعة مضاعفة من العنصرية على ليبيا. وتمثل الهدف الفاشي الأكبر في الاستيطان الديمغرافي للإيطاليين في ليبيا، والذي استمر بعد الإبادة الجماعية في عام 1934 تحت حكم الحاكم الاستعماري الجديد، إتالو بالبو Italo Balbo، الذي جلب 20,000 مستوطن إلى ليبيا في عام 1938 وخطط لجلب 500,000 مستوطن بحلول عام 1950.⁸ بدأت خطة الترحيل المبدئية باعتقال الليبيين ونقلهم قسراً إلى المعتقلات الساحلية. أما المرحلة الثانية فقد صُممَت لِإجبار السكان المدنيين على

7 Interviews with survivors, Muftah al-Shilmani, May 23, 2009, al-Magrun, Yusuf Sa'id al-Bal'azi, December 15, 2008, Agaila, and Ali Mijdal al-'Aquri, December 15, 2008, Slug.

8 On the Italian fascist plan to settle to two million Italian peasants and farmers in Libya, see Denis Mack Smith, *Mussolini's Roman Empire*, (New York: Penguin Books, 1976), 37, “Libya is Safe for White Settlers,” *The New York Times*, (November 1, 1938), and John Patric, “Imperial Rome Reborn,” *National Geographic Magazine*, 71:3 (1937) 269–325.

السير على الأقدام والجمال والسفن إلى صحراء سرت، بينما استواعبت معتقلات سلوق والمقرنون والبريقة والعقلية 65% إلى 70% من جميع المعتقلين. وسُجن رؤساء القبائل في بنينا بالقرب من بنغازي، وُنفي آخرون إلى سجون بجزر جنوب إيطاليا، لا سيما سجن جزيرة أوستيكا. العدد الإجمالي للمنفيين ليس صغيراً، حوالي 10,000 منذ بداية الغزو الاستعماري وحتى نهاية الثلاثينيات. ومن المهم الإشارة بمركز الجهاد للدراسات التاريخية الليبية على جهوده في توثيق عمليات النفي وحصوله على قوائم بعض أسماء المنفيين، كذلك من الضروري الإشارة إلى الدور الشجاع لبعض المؤرخين الإيطاليين الذين شاركوا في الكشف عن تاريخ النفي.

بدأت المرحلة الأولى بمرسوم يحدّر السكان ويدعوهم للإسلام ووقف دعمهم للمجاهدين، ثم بعد ثلاثة أيام وصل الجيش ومعه عساكر الاستعمار المجنّدين المصوّعة والباندا الليبية، واعتقلوا السكان ومواشيهم. وتشير الأدلة الأرشيفية إلى أن التاريخ الأول للاعتقال هو 25 يونيو 1930، لكن معظم التاريخ الشفوي للمعتقلين يتفق على أنه بدأ في وقت سابق في خريف عام 1929. قال الحاج عبد النبي عبد الشافي الرفادي إن الجيش الإيطالي جاء:

وأخبروا شيوخنا، لديكم خياران: إما أن تقاتلوا معنا ضد المجاهدين وسوف تقوم الدولة بتسلیحكم، أو ترفضون وعندئذ سوف ترحلون إلى المعتقلات. طلب الشیوخ وقتاً للتداول والتحدد مع ناسهم، ثم أخبروا الجيش الإيطالي أنه

لا يمكننا محاربة المجاهدين، وهكذا أرسلنا إلى بنينا ثم جاء
الجيش وقام بترحيلنا إلى المعتقلات.⁹

سارت قبيلة العبيدات في فصل الشتاء لمسافة طويلة بلغت 1100 كيلومتر إلى معتقل البريقة في منطقة صحراء سرت. وصدرت أوامر للجيش الإيطالي بإطلاق النار على أي شخص أو حيوان لم يسرع وينبع الأوامر بالسير نحو المعتقلات. ويروي الناجون قصص العقوبة الوحشية التي ارتكبها عساكر الاستعمار المصووعة المجندين، الذين قاموا، خلال مسيرة الرحلان التي استغرقت أسبوعاً عديداً، بجلد وإطلاق النار على الحيوانات والأشخاص الذين توقفوا أو فقدوا الوعي بسبب الشيخوخة أو الإرهاب. وفي حالة قبيلة العبيدات وقبائل البطنان، استغرقت الرحلة شهوراً. باختصار: جمع الترحيل القسري للجيش الإيطالي بين سينتين: السير الإجباري على طول الطريق إلى صحراء سرت، وأيضاً السير لمجموعات أخرى الذي أعقبه النقل بالسفن من سوسة وبنغازي إلى الموقع النهائي على بعد 400 كيلومتر جنوباً في السجون الصحراوية في وسط الصحراء القاحلة البعيدة عن العمران.

روى إبراهيم العربي الغماري الميموني من معتقل العقيلة، وهو من القلائل الذين كتبوا مذكراتهم عن المعتقلات، حيث كانت أسوأ العقوبات مصممة لأقارب المجاهدين، قصته عن الترحيل سيّراً على الأقدام ثم بالسفن: رُحلنا من معتقل دريانة إلى بنغازي دون طعام وماء. وفي اليوم التالي، وضعونا في قارب صغير وأمرؤنا بالجلوس في الخلف

9 Interview, Haj 'Abdalnabi 'Abdalshafi al-Rifadi, interviewed by Muhammad Mukhtar al-Sa'di, January 23, 2008.

وفي الطابق السفلي من القارب. كان القارب متسخاً، وكنا مرهقين، وكان الأطفال يبكون تحت أشعة الشمس الحارقة والليالي الباردة. وعندما وصلنا إلى معتقل العقيلة كانت الرياح قوية، ولم يتمكّن القارب من الرسو. كان يوماً فظيعاً.¹⁰

اعتُقل محمد عصمان الشامي في معتقل العقيلة، وهو نجل المجاهد عصمان الشامي أحد نواب عمر المختار الذي تخرج ضابطاً في أكاديمية إسطنبول العسكرية في عهد الدولة العثمانية. اعتُقل محمد مع والدته وجده. كان محمد يبلغ من العمر 11 عاماً وقت القبض عليه. وطلب الجيش من الجد التعرف على ابنته وحفيدته. ورضخ الرجل العجوز وقال إنها ابنته، وبالتالي أمر هو وأمه بالسير مع الآخرين نحو المعتقل. وسُجن جده، معيوف سعيد الدراسي، في بنينا، ثم نُفي إلى جزيرة أوستيكا. كان معه 40 شخصاً، وبعد ثلاث سنوات بقي 16 فقط على قيد الحياة؛ مات الباقيون في الجزيرة بسبب المرض والمعاملة القاسية والاكثاب.

أمر محمد ووالدته، مكتوبة، بالسير لمدة 15 يوماً إلى طلميثة. تسلّل والده في الليل وأخبرهم أنهم سوف ينقلونهم إلى العقيلة وسألهم عما إذا كانوا يريدون الذهاب معه، ولكن والدته رفضت، ثم وضعوا على متن سفينة لمدة ثلاثة أيام. مات بعض الناس على متن السفينة، وألقى الإيطاليون الجثث في البحر. وفي العقيلة، يتذكّر محمد:

10 Ibrahim al-Ghmari-al-Maimmuni, *Dhikriyat Mu'taqal al-Agaila* [Memoirs of the Agaila Concentration Camp] second edition, (Tripoli: Libyan Studies Center 2006), 91-98.

عاملونا كالحيوانات، وحشرتنا في شباك واستخدموه ذراع الشحن لرفعنا ثم أسقطونا على الشاطئ. في معسكر العقيلة، وزعونا على عدة مربعات وأقسام وصفوف، وكنا في الصف رقم 11، خيمة رقم 19. ولكن لأن والدي كان قائداً مع عمر المختار، فقد نفانا الجيش الإيطالي إلى باليrimo، إيطاليا، وعندما أرادوا فصلني عن أمي، نكرت أمي في البحر وهددت بقتل نفسها. وقام مسؤول الجيش الإيطالي بتغيير الأمر وبعد ستة أشهر، أعادونا إلى معتقل العقيلة حيث سُجنا لمرة ثالثة سنوات.¹¹

وروى الحاج محمد إدريس الشلماني، من معتقل المقرنون، قصة ترحيل عائلته:

رَحَّلُونَا مِنْ غَيْرِ مَا يَقُولُونَا وَيَنْ وَاحْدِينَا. وَجَوَ الْعَسَكِرُ الْمَصْوُعَةُ الَّذِينَ خَدُونَا أَنَا وَخَوْتِي وَخَوَاتِي وَأُمِّي فِي الْأَوَّلِ مِنَ التَّرِيَةِ وَبَعْدَهَا إِلَى طَلْمِيَّةِ ثُمَّ إِلَى مَعْتَقَلِي الْعَقِيلَةِ وَالْبَرِيقَةِ. مَشِينَا مِنْ بَيْتِنَا إِلَى الْمَعْتَقَلِ تَسْعَةِ أَيَّامٍ سَيِّرًا عَلَى الْأَقْدَامِ وَعَلَى ظَهُورِ الْجَمَالِ. وَالْزَّاَلَةُ الَّتِي تَبَرَّكَ يَحْرُقُوهَا، مَاتُوا وَقَطَّعُوا وَاجْدَ منَ النَّاسِ لِلتَّدَافُعِ بِوَادِي الْكَوْفِ. كَيْفَ مَا وَصَلَنَا وَقْتَ شَتِّي وَصَقْعَ وَمَطَرَ وَحْنَا عَطَاشَا وَجَوَاعَا مَا عَطَوْنَا شَيْءَ نَاكِلَهُ.¹²

وَتَؤَكِّدُ الْحَاجَةُ بَاهِيَةُ حَمْدُ الْعَبَيْدِيِّ السُّرْدِيَّةِ. لَقَدْ اعْتَقَلَتْ فِي مَعْتَقَلِ

11 Interview, al-Shami, October 23, 2008, Benghazi.

12 Interview, Haj Idris al-Shilmani, December 15, 2008, Slug.

البريقة الذي اختير لسجن 30 ألف فرد من قبيلة العبيادات: خدونا الأول إلى معتقل عين الغزالة على الأبل والمشي على كرعينا. وحبسونا لمدة أربعة أيام في بنغازي دون اوكال، وقعدنا حيين فقط عشان أمي عندها زميته (حبوب تُحمّص ثم تُطحّن وتُخلط بالماء أو التمر)، والتمور، وكلتنا في الليل. وباتي غطانا بعباته. والطليان والمصووعة يضربيوا بالسوط اللي يبطا من العرب والحيوان، وكانوا يتركون خلفهم أي شخص أو حيوان (يموت). وبعدها شالونا لبابور مليان بالناس واللي يموت يلوحوه في البحر. وصلنا معتقل البريقة، كانت الصحراء ما فيها شيء بالنسبة لنا وحنا واخددين على وطنا في الجبل الأخضر الخصب والعليل. صحراء سرت في البريقة ما فيها شيء لا نبات ولا حيوان ولا مية، قعدنا في الحبس ثلاث سنين وما عمرنا رينا مطر.¹³

ويحكي محمد عبد القادر العبدلي من قبيلة العبادلة البيض عن حالة محددة من العقاب الجماعي وأسباب اعتقال الأشخاص في معتقل العقيلة القاسي. يقول:

خمسة من قبيلتنا عدوا للمجاهدين. وغراتسياني انتقم منا كلنا ورَحَّل قبيلتنا جملة، 1000 شخص، للعقيلة، وبعد ثلاث سنوات ما قعد حي إلا 83 بس.¹⁴

13 Interview, Haji Bahiya Hamad al-Abaidi, August 24, 2008.

14 Muhammad Abdalqadir al-' Abdali, interview, in Saad Muhammad Abu Sha'ala, *Min Dakhil al-Mu'taqalat [From inside the Concentration Camps]*, (Tripolli: Al-Munshaa al-'Aamma Lilnshar, 1984), 42–48.

وكان مطهول عطية العبيدي يبلغ من العمر 13 عاماً عندما رُحِّل مع عائلته إلى معتقل سلوق. ويذكر:

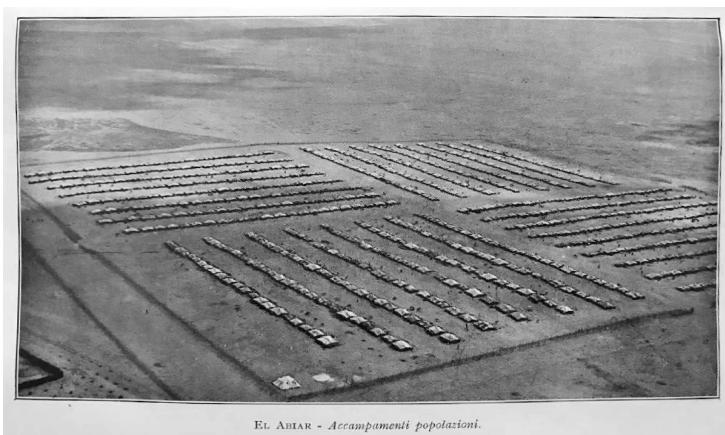
رحلونا نحنا قبيلة العبيد من وطنا في جردس العبيد، ومشينا بالسيف لشهر إلى المرج، وبعدها توكرة مع حيواناتنا، وبعدها سلوق لمدة ثلاثة سنوات. كان يحرسنا الجيش، والحبش، والمصووعة، والزبطة والباندا الليبيون. استغرقت المسيرة 15 يوماً. وجاء المخاض لامرأة ووضعت طفلأً أثناء المسيرة، وقصّت أمي قطعة من سورتي للف المولود وقماطه على عادتنا.¹⁵

ويذكر سعد سالم العمروني، وهو من مواليد 1924: جونا الطليان وأمرؤنا بالرحيل من جالو من غير أوكل وعاملونا كيف الحيوان وبعدها وصلنا لمعتقل الأبيار. ومثل الآخرين، عومن المرحّلون بقسوة وأي واحد يبطا يجلدوه أو يطلقوا عليه الرصاص. ماتت ناس واجدة من الشياب والعوين في الرحلان. وخذوا حيواناتنا، واحنا عائلتنا كان عندنا سبعين جمل وخلوا لنا خمسة بس.¹⁶

ومن الواضح أن الجيش الإيطالي سار ببعضهم إلى موانئ درنة وتوكرة وسوسنة وبنغازي، ثم نقلهم عن طريق البحر إلى البريقة والعقبيلة، بينما أجبر آخرون على المشي سيراً على الأقدام أو على ظهور الإبل إلى المعتقلات.

15 Mtawal 'Atiyya al-'Abaidi, interview, December 15, 2008, Slug.

16 Interview, Sa'ad Salim al-'Amruni, November 5, 2008, Al-Abyar.



معتقل الأبيار - من كتاب "إيطاليا ما وراء البحار الجديدة" لأنجلو بيتشولي 1932

ويؤكد التاريخ الشفوي للناجين وقائع الوحشية والمعاملة القاسية وعدم توفير الطعام أو الماء أو العلاج الطبي في مسيرة الرحلان كما يطلق عليها، ما تسبب في مقتل العديد من الأشخاص وإرهاب من بقوا على قيد الحياة. ليس لدينا حتى الآن عدد دقيق لإجمالي الوفيات. قام الجيش الاستعماري بحجب سجلات أهوال مسيرة الرحلان ودموعها ورعبها. من الواضح أن هذا من شأنه أن يفضح النظام الفاشي، لذلك ينبغي فهم صمت أرشيفات الدولة الاستعمارية الإيطالية حول هذا الموضوع على أنه تغطية وتسهيل على خطة الإبادة الجماعية هذه لمعاقبة السكان المدنيين المقاومين في شرق ليبيا بشكل جماعي. وأُجبرت الغالبية العظمى من المرحليين أثناء الرحلان على مغادرة المناطق الشرقية إلى صحراء سرت؛ وقد رحل بضعة آلاف فقط من الواحات الجنوبية الداخلية وغرب برقة المعروفة ببرقة البيضاء مثل قبائل المغاربة، والزوية، والفوآخر، والفرجان، والحسون التي كانت تعيش بالقرب من إجدابيا غربي بنغازي.

شملت الجغرافيا السياسية للترحيل المنطقة الشرقية بأكملها، والداخل الجنوبي من الدواخل، ومنطقة صحراء سرت، موطن أكثر المعتقلات وحشية. وكانت السياسة الإيطالية عازمة منذ البداية على إبادة السكان. عندما زرت المعتقلات ومنطقة الجبل الأخضر، أدركت سبب اختيار الفاشيين لصحراء سرت لاحتجاز السكان المقاومين في شرق ليبيا، فهي صحراء بلا شجر ولا ماء، وهي أرض بعيدة جدًا عن موطن الناس في الجبال، والوديان، والغابات، ونجوع شمال برقة. إنه أيضًا مكان يمكن فيه بسهولة حبس الأشخاص المعتقلين وسجنهم وكان الهروب منه مستحيلًا.

كانت المسافة طويلة، واضطر الناس إلى المضي سيراً على الأقدام والسفر في سفن قديمة متهالكة ولم يحصلوا على الماء أو الطعام أو الدواء، والأسوأ من ذلك أنه في كثير من الحالات حرقوا حبوبهم وأطعمنتهم أو صودرت. وكانت الضربة الأكثـر تدميرـاً للناس هي خسارة ماشيـتهم التي بلـغ عددهـا 600,000 في عام 1929. إن تدمير الماشية هو عـامل رئيس وراء الإبـادة الجـماعـية وموتـ ما لا يـقل عن 60,000 في المـعـتـقلـاتـ فيـ عامـ 1934. أنا لـستـ البـاحـثـ الأولـ الذيـ أـدرـكـ أهمـيـةـ هـذـاـ الدـمـارـ،ـ فقدـ لـفـتـ إـيفـانـزــ بـريـتـشـارـدـ وـدـيلـ بـوكـاـ الـانتـباـهـ إـلـىـ جـريـمةـ القـتـلـ الـلـاـإـنـسـانـيـهـ هـذـهـ،ـ وـالـتـيـ أـسـمـيـهـاـ إـبـادـةـ جـمـاعـيـةـ.ـ ماـ أـخـطـطـ لـلـقـيـامـ بـهـ هوـ رـيـطـ النـظـامـ الـإـيكـوـلـوـجـيـ وـالـبـيـئـيـ وـالـعـضـوـيـ الـذـيـ دـمـجـ الـبـشـرـ مـعـ حـيـوانـاتـهـمـ فـيـ التـجـارـةـ الـاـقـتـصـادـيـةـ شـبـهـ الـبـدـوـيـةـ وـالـحـيـاةـ الـثـقـافـيـةـ فـيـ شـرـقـ لـيـبـيـاـ.ـ وـإـنـيـ أـقـتـرـحـ أـنـ تـدـمـيرـ قـطـعـانـ المـاـشـيـةـ هوـ عـامـلـ رـئـيـسـ وـرـاءـ وـفـاةـ الـأـلـافـ مـنـ الـمـسـجـوـنـيـنـ فـيـ المـعـتـقلـاتـ،ـ وـتـشـكـلـ الـأـدـلـةـ الـأـرـشـيفـيـةـ وـسـرـدـيـاتـ النـاجـيـنـ نـظـرـةـ مـتـمـاسـكـةـ حـوـلـ هـذـاـ القـتـلـ.ـ الجـمـاعـيـ لـقـطـعـانـ المـاـشـيـةـ.

هـلـاكـ المـاـشـيـةـ:ـ مـصـادـرـ وـمـجـازـ وـتـجـوـيـعـ

لم تستهدف السياسة الاستعمارية الفاشية السكان المدنيين المقاومين بسياسة الإبادة الجماعية فحسب، بل استهدفت أيضاً قطاعهم بوصفها جزءاً لا يتجزأ من حياتهم. أظهرت الأدلة الأرشيفية والشفوية لهذه السياسة العنيفة نية تدمير كلًّ من الحيوانات والأشخاص الذين اعتمدوا عليها. استند النظام البيئي والاقتصادي في شرق ليبيا إلى توازن الرعي والاستيطان

والزراعة الموسمية التي جعلت من الحيوانات واستخداماتها البشرية مفتاحاً للبقاء والترابط الطبيعي بين الناس وحيواناتهم. وتتفق المصادر العثمانية والعربية والإيطالية على أن المنطقة تتمتع باقتصاد غني وثروة حيوانية مزدهرة. وذكر المؤرخ المصري محمود الشنطي الذي ألف كتاباً مهماً عن ليبيا، المسألة الليبية *The Libyan Question*، أنه قبل الغزو الاستعماري الإيطالي، كانت الولاية العثمانية، المعروفة باسم طرابلس الغرب تضم، في عام 1910، مليوناً و104 آلاف رأس من الماشية.¹⁷ وذكر عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعي إيفانز-بريتشارد، الذي خدم في الجيش الاستعماري البريطاني وزار برقة، أن الثروة الحيوانية في شرق ليبيا كانت 600 ألف في عام 1928، وأكَّد المؤرخ الإيطالي روشات نفس الإحصائيات التي قدمها إيفانز-بريتشارد لمنطقة برقة¹⁸، ومع ذلك إذا قارنا عدد الماشية بين عامي 1910 و1926، وفي نهاية المعتقلات عام 1933، تبرز نتيجة مروعة تثبت جريمة قتل وهلاك الماشية في المنطقة، مصدر رزق الناس وبقائهم¹⁹، وأسهم هذا التدمير والهلاك في ارتفاع معدل الوفيات بين المعتقلين في نهاية المطاف من الإبادة الجماعية في المعتقلات الأربع. بالنسبة للناس، تُعدُّ الحيوانات ذات أهمية رمزية لأسلوب حياتهم وتماسكهم، بالإضافة إلى كونها خسارة لحيوانات عالية الجودة، وهي أيضاً مصدر للدخل والبقاء والمعنى من خلال الضيافة وحفلات الزفاف

17 Mahmud al-Shinaty, *Qa'diyat Libya [The Libyan Question]*, (Cairo: Maktabat al-Nahda al-Masriyya, 1951)

18 E.E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, (Oxford: Oxford University Press, 1949), 189–190.

19 See the study by Rochat “The Repression.”

والهوية²⁰. وتوضح السجلات التالية (الجدول 1.3) درجة هلاك القطعان بين عام 1910، قبل عام واحد من الغزو الإيطالي، وعام 1933.

الجدول 1.3 هلاك الثروة الحيوانية المحلية في شرق ليبيا 1910-1933

1933	1926	1910	
22,000	80,000	126,000	الأغنام
2,600	75,000	83,000	الإبل
1,000	14,000	27,000	الخيول
2,000	10,000	23,000	الماشية

بحلول عام 1933، هلك 85% من الأغنام والماعز و60% من الأبقار والإبل. ولم يكن هذا التدمير من قبيل الصدفة في زمن الحرب، فقد وجد إريك ساليرنو Eric Salerno رسائل في الأرشيف الإيطالي تشير إلى نية فاشية محددة لتدمير كل من الناس وحيواناتهم. كتب الجنرال مومبيلي Mombelli رسالة إلى القوات جاء فيها: "يجب أن نقضي على الرجال المسلمين ومعسكراتهم وقطعنهم". وكتب الجنرال دي بونو، الحاكم الاستعماري للليبيا، في تقرير آخر، "صادرنا 20,000 رأس من الأغنام و8,000 من الإبل، وقتلنا 5,000 أخرى". وصودرت 1,500 أخرى من الإبل لاستخدامها في غزو واحة الكفرة.²¹ وقدر إيفانز-بريتشارد إجمالي

20 On the material and symbolic values of animals for nomads and seminomads in eastern Libyan culture see Emrys Peters, *The Bedouin of Cyrenaica*, edited by Jack Goody and Emanuel Marx, (Cambridge: Cambridge University Press, 1990).

21 Eric Salerno, *Genocide in Libya*, second edition, (Roma: Manifesto Librio, 2009) bo, 79-81.

نفوذ الحيوانات في الفترة ما بين 1923 و1928، واستنتاج أن الجيش الإيطالي قتل 170 ألف رأس من الماشية. وتفاخر الجنرال غراتسياني، المتهم بارتكاب الإبادة الجماعية، بهذا التدمير في شرق ليبيا. واعترف بأن مواشي برقة تقلّصت إلى نقطة حرجة تطلّبت استيراد 160 ألف رأس من غرب ليبيا في 1933-1934²²، وكان هذا الفعل إضافة لافتة إلى هلاك ماشية إقليم معروف بصادراته الغنية من الحيوانات، والصوف، والجبن المحلي، المسمى الكشك، إلى الأسواق الحضرية في غرب مصر وداخلياً لسكان الواحات في دواخل برقة والجفرة وفزان مقابل التمر. ويقدم الناجون الليبيون من المعتقلات سردية تاريخية وعاطفية محددة عن هذا الدمار الذي لحق بحيواناتهم المحببة، والتي كانت مصدر كينونتهم وثروتهم والأساس المادي لثقافتهم وهويتهم.

قتل الجيش الإيطالي بعض القطعان أثناء الترحيل، خاصة في وادي الكوف، لحرمان المجاهدين من استخدامها ولتجويعهم في الجبل الأخضر. وقال الحاج إدريس حمد الشلmani من معتقل المقرنون: "صودرت ماشيتنا، وأخذ عساكر المصووعة 100 رأس من الأغنام و6 من الإبل". وأضاف: "كان لعمي 600 خروف و15 بقرة وثلاثة من الإبل، وكان لدى قريب آخر، الطيب، 500 خروف، ومحمد يوسف الشلmani كان لديه 200 رأس. وقد أخذت كلها". وقال يوسف حمد البلعري إنه "خسر 90 جملًا وبقي خمسة فقط". قال الحاج عطية منينه الحافي (معتقل العقيلة): "فقدت عائلتي 500 رأس من الأغنام و50 رأساً من الماعز، وفقدنا جميع جمالنا أثناء ترحيلنا القسري

22 Rochat, "The Repression," 99.

إلى المعتقلات”. وقال الحاج محمد إدريس الشلماني: ”قتل 700 من الإبل أثناء الترحيل بوادي الكوف عندما حدث تدافع دفع الناس وحيواناتهم إلى مجرى الوادي وماتوا نتيجة ذلك”. وأضاف: ”فقدت عائلتي قطعانها؛ وصودرت 40 شاة وماتت البقية بسبب الجوع والعطش. قال الحاج مراد عبد الحميد العبار: ”صادر الجيش الإيطالي حبوبنا وحيواناتنا”. وقال الحاج إدريس رزق المريمي العبيدي من معتقل البريقة: ”اضطربنا إلى السير مع حيواناتنا التي لم تنج حيث فقدت أسرتي 20 رأساً من الأغنام و5 جمال قبل أن نصل إلى المعتقل”²³.

قال الحاج يوسف سعيد البلعзи من معتقل العقيلة: ”لو تركنا الإيطاليون وشأننا لكننا قادرين على إطعام ورعاية أنفسنا بالرعي والحرث والغرس والحصاد، لكن ماشيتنا ماتت مثلنا بسبب الجوع والعطش”， ثم وأضاف: صادر الجيش الإيطالي مؤمناً وحيواناتنا. كان لدينا 1,200 رأس غنم و90 جملأً. وعندما غادر رعاتنا، وترك الحيوانات دون طعام وماء، وحرمونا من ذبح ماشيتنا، جعلنا نحن أيضًا.

يتذكّر السنوسي صالح العبدلي (معتقل سلوق) أنه كان لدى عائلته 300 رأس من الأغنام و500 من الماعز، نفقت جميعها بسبب الجوع. قال الحاج جبريل علي العماني (معتقل العقيلة): ”رُحّلنا لمدة ثمانية أيام إلى معتقل العقيلة. صادر الجيش حبوبنا، ونفقت 14 من الإبل و200 رأس من الأغنام و50 رأساً من الماعز خارج المعتقل بسبب نقص المياه والطعام”. وقال

23 A common trend is a deep trauma among the survivors for losing their animals and hands as in the cases of my interviews with Haj Muhammad Idris al-Shilmani, Yusuf Sa'id al-Bal'azi, Haj Murad Abdalhamid al-'Abar, Idris al-Marimi, and Jibril al-Amruni (interview dates for last three December 5, 2008).

الحاج حمد عبد الصادق العوامي (معتقل سلوق):
كنا في طريقنا إلى الهجرة، للجوء إلى مصر، عندما اعتقلنا
الجيش وأجبينا على السير مع حيواناتنا من معتقل عين
الغزالة لمدة 19 يوماً إلى سلوق. كان لدينا 30 جملًا ولكن لم
يتبق لنا سوى واحد. كانت لدينا خيامنا الخاصة، لذلك لم
يزورنا الجيش الإيطالي بأيٍ منها.

النقطة المهمة هنا هي أن الجيش الإيطالي لم يوفر حتى البنية التحتية
للمعتقلات واستغل الناس وأموالهم وقطعنهم وطعامهم، وأخيراً عندما
فقدوا حيواناتهم ونفذت إمداداتهم القليلة من الطعام، تركوه يموتون
جوعاً. بعبارة أخرى: من الضروري ربط الموت الجماعي للمعتقلين بإهلاك
إفقاء ومصادرة الحيوانات والقطعن، فقد تعرّض الإنسان والحيوان
للإبادة الجماعية.

ويسد التاريخ الشفوي للناجين الثغرات الموجودة في الأرشيف الرسمي
لما حدث أثناء الرحلان، والترحيل إلى المعتقلات، والاقتلاع والإرهاب،
وقتل وسرقة مصدر بقائهم على قيد الحياة، حيواناتهم. ويلقي السرد
الضوء على العامل المهم؛ إفقار الناس عبر حرمانهم من ثرواتهم ومصدر
غذائهم وبقائهم الاقتصادي. علاوة على ذلك، فقد أسهمت في صدماتهم
العاطفية والثقافية، حيث كانوا ينظرون إلى حيواناتهم، وبخاصة الإبل،
كبشر وليس مجرد حيوانات يستخدمها الإنسان كسلعة رأسمالية. التاريخ
الشفوي للناجين مليء بالتعابيرات الحية عن هذه الخسارة الثقافية
والصادمة، ويعطي الشعر الشعبي المحفوظ تأييضاً مؤثراً لألم فقدان

حيواناتهم المحبوبة.

باختصار: ازداد القتل الجماعي للناس سوءاً عندما هلكت حيواناتهم. بدونها لم يستطعوا الحصول على الطعام وحرموا ثقافياً من رموز مهمة لطريقة حياتهم. ويخلل الحداد والحزن على فقدان القطعان كل التاريخ الشفوي، والشهادات، والشعر. وتحكي كل قصيدة قصة حياة طيبة، وارتباطاً مادياً وثقافياً مع الحيوانات المحبوبة قبل المعتقلات. قال أحد الشعراء في معتقل سلوق: "نحن مسجونون في سلوق، محبطون ومكتئبون، ولا مكان نذهب إليه، ولا أغنام من حولنا لإسعادنا". حدث هذا التدمير تدريجياً. هلكت الحيوانات وأصبحت أولى ضحايا الإبادة الجماعية الاستعمارية، وسرعان ما تبعها أصحابها. مات الآلاف من الحيوانات والبشر بين عامي 1928 و1934. لذلك مثلت الإبادة الجماعية الإيطالية موئلاً جسدياً وثقافياً لضحاياها. كانت السياسة الاستعمارية الإيطالية رائدة في أول استخدام، في عام 1911، للقصف بالطائرات في الحرب. وكانت أول مرة تُستخدم فيها الطائرات للاستطلاع وإلقاء القنابل على المقاتلين والحيوانات. كان الجيش الفاشي رائداً في مفهوم الحرب الشاملة التي تضمنَت العقاب الجماعي، والنفي، وتدمير المحاصيل والحيوانات، والشنق العام، واستخدام الغازات السامة في عام 1928، والترحيل الجماعي والمعتقلات في ليبيا.

إعادة تشكيل تأريخ الإبادة الجماعية

قراءة لكتاب

”الإبادة الجماعية في ليبيا: الشّر، تاريخ استعماري مخفي“

للباحث: علي عبداللطيف حميده

فؤاد المغربي

ترجمة: نافع الطشاني

يمثل كتاب ”الإبادة الجماعية في ليبيا“ إضافةً مهمة إلى دراسات الاستعمار الاستيطاني، والإبادة الجماعية، والتاريخ الليبي، والفاشية، حيث يتمحور الكتاب حول الاستعمار الإيطالي للبيضاء من بدأته في عام 1911. فعندما وصل الفاشيسم إلى السلطة في عام 1922 لم تزدَّ وتيرة الاستيطان إلّا حِدَّةً، ساعيًّا إلى توطين الإيطاليين في هذا البلد شمال الأفريقي. وبطبيعة الحال، انطلقت المقاومة المحلية لهذا الاستعمار الاستيطاني على الفور تقريبًا، واشتدَّ أوارها بشكل عام في الجزء الشرقي من البلاد تحت قيادة الحركة السنوسية. كان قائداً المقاومة هو الزعيم ذو الشخصية الآسرة عمر المختار الذي اشتُهِر بـ”أسد الصحراء“. ردًا على هذه المقاومة الشرسة، بدأ الإيطاليون في عام 1929 في ترحيل السكان قسراً من الشرق لحرمان المقاومة من الدعم المادي. تتراوح التقديرات لأعداد المعتقلين، لكن ما يقرب من 110,000 ليبيًّا، أي حوالي ثلثي عدد سكان برقة، تم ترحيلهم

إلى 16 معسكر اعتقال، أو ما يجدر وصفها بمعسكرات الموت. لم ينجُ منهم في النهاية سوى 40,000. بلغة اليوم كان هذا إبادةً جماعيةً.

من باب العلم بالشيء علينا أولاً أن نبدأ بالنظر في تعريف مصطلح الإبادة الجماعية. يقتبس المؤلف من أبي دراسات الإبادة الجماعية الحقوقى البولندي رافائيل لمكين، الذى خلّد مساهمته في المادة الثانية من اتفاقية الإبادة الجماعية، حيث يُعرّف لمكين عنصرتين أساسين لها، أولهما: "قصد القتل، وثانيةً سياسة تدمير أنماط الحياة المادية والثقافية والبيولوجية" (ص3).

عمل المؤلف على حميده ما يقرب من عشر سنوات على تأليف هذا الكتاب، قضاها في الترحال بين ليبيا وإيطاليا ومصر وتونس لدراسة الأدلة الأرشيفية، حيث اكتشف أن الإيطاليين إما أخفوا أو أتلفوا الكثير من السجلات الأرشيفية التي توثّق ما فعلوا في معسكرات الاعتقال كما قاموا بوضع العقبات في طريقه. لو أن أي باحث آخر واجه نفس المشاكل التي واجهها حميده كان سيتوقف في مرحلة ما، ولكن ليس مؤلفنا، فقد شقّ بهمة طرقاً أخرى ليستمر في بحثه عن الإبادة الجماعية في المعتقلات.

مما أثار حيرتي عند قراءتي هذا العمل هو لماذا لم يرد ذكر الإبادة الجماعية الاستعمارية الإيطالية في ليبيا وأثيوبيا في أعمال الفيلسوف الإيطالي الكبير جورجيو أغامبين. فأطّره المفاهيمية كالحياة العارية والحالات الاستثنائية حقّها بشكل صارخ الاستعمار الإيطالي للبيضاء ونفّذها فيها، ومع هذا تكاد تغيب هذه الحقيقة الخيسية تماماً عن المشهد الأكاديمي الإيطالي وثقافته الشعبية. يرينا حميده كيف ساعد الموظفون الإيطاليون باستخدامهم نمطاً

منظمًا من إخفاء وإتلاف الملفات التي تدينهم والتلاؤب بها، ساعدوا في النهاية على ترويج أسطورة "الشعب الإيطالي المحترم" المعروفة باللغة الإيطالية بعبارة "إيطالياني برافا جينتي"، أو ما معناه أن الإيطاليين كانوا مستعمرين "طيبين" و"محترمين" (ص 167).

كما بيّن حميده أيضًا كيف أن الجنرالات النازيين الذين زاروا ليبيا في مناسبات عدّة انتهى بهم الأمر إلى استخدام نفس التقنيات في بناء معسكرات الاعتقال في أوروبا، أو بعبارة أخرى: صارت الإبادة الجماعية في أفريقيا مختبرًا للهولوكوست الأوروبي.

من الأعمال التي ألهمت بحث حميده الراقي هذا كتابات حنا آرنست ومايك دايفيز ومحمود مامداني وجيمس سي سكوت، كما يمكن للمرء أن يرى أفكار فرانز فانون وإدوارد سعيد ترفرف على النص، وكذلك رؤى جورجيو آغامبين وميشيل فوكو وغيرهم.

الكتاب رحلة اكتشاف: اكتشاف للنفس، لليبيا وتاريخها؛ واكتشاف للفاشية الإيطالية وقوتها الاستعمارية الخفية، فهو مكتوبٌ من منظور الصحابي الذين صارت أصواتهم مسموعة الآن. تحظّم منهجية البحث الحدود، المصطنعة دومًا، بين فروع العلوم الإنسانية وتغوص في التاريخ الشفوي والنقد الأدبي، بالإضافة إلى العلوم الاجتماعية. ويمكنني أن أقول بكلٍّ جُزء، وبدون أي مبالغة، أن هذا العمل تردد فيه أصداء أعمال عالم شمال أفريقي آخر، ألا وهو ابن خلدون.

في القرن التاسع عشر، ومع صعود القوة الأوروبية، وضع تصنيف سكان العالم البيض "طبيعيًا" في القمة. وكانت جميع الأعراق الأخرى أقل قيمة،

وبالتالي يمكن الاستغناء عنها أو التضحيّة بها. فاعتبر السكان الأصليون مُتوحشين ورّحلاً لا جذور لهم، وبالتالي يمكن ترحيلهم بسهولة أو القضاء عليهم لإفساح المجال أمام المستوطنين البيض. ينطبق هذا بشكل كبير على أمريكا المعاصرة، حيث يجب أن يذَّكر الناس بأن حياة السود فعلاً مهمة [في إشارة إلى حركة "بلاك لايف ماترز" المدنية الأفريقية-الأمريكية]. وفي فلسطين، تعدُّ حياة يهودي واحد أهم من حياة العديد من الفلسطينيين. يمكننا أن نستمر في ضرب أمثلة كهذه واحداً وراء الآخر. لهذا لم يكن مفاجئاً أن الإيطاليين من كل الأطياف الأيديولوجية لم يعتبروا حياة القبائل شبه الرُّحَّل في شرق ليبيا ذات قيمةٍ تُذَّكر. لم يتوقع الصهاينة ولا الفاشيست الإيطاليون صلابة مقاومة السكان الأصليين لمشاريعهم الاستعمارية الاستيطانية. لكن يبقى السؤال: من أين جاءت هذه الصلابة؟ كيف يمكننا تفسير مستوى التضامن العالي بين السُّكَّان شبه الرُّحَّل المتناثرين في جميع أنحاء هذه الصحراء الفَّقَّطة القاسية؟

في الحالة الليبية، يفحص حميده دور الحركة السنوسية الفريد، العمود الفقري الاجتماعي لمقاومة الاستعمار الإيطالي. ارتبطت الحركة التي أسسها الجزائري محمد بن علي السنوسي في عام 1837 م في مكة، في المملكة العربية السعودية، ارتباطاً بالصوفية وأقلقها تدهور الفكر الإسلامي، وكذلك التهديد المتزايد للغرب المادي. كان الإمام السنوسي قد درس في الجامع الأزهر بالقاهرة، وأسس بعدها زاويته الأولى في جبل أبي قبيس قرب مكة. ويبدو أنه قد واجه مشاكل مع الوهابيين الذين أجبروه في النهاية على المغادرة لينتقل إلى برقة في ليبيا في عام 1843 م حيث

أسس الزاوية البيضاء. قاتل السنوسيون بين عامي 1902م و1913م التوسع الاستعماري الفرنسي في شمال أفريقيا، كما قاتلوا الاستعمار الإيطالي الذي بدأ في عام 1911م. وبحلول عام 1923م تمكّن السكان الأصليون المتمرّدون المرتبطون بالطريقة السنوسية من استخدام هذه الحركة الاجتماعية التجديدية لتنظيم المقاومة الليبية ضد المستوطنات الإيطالية.

يبدو أن مقاومة الليبيين كانت شديدة لدرجة أن القادة العسكريين الإيطاليين قاموا، بالإضافة إلى حشر الناس في 16 معسكر اعتقال (موت)، برمد آبار المياه ومصادرة قطعان الماشية وإغلاق الحدود مع مصر وإلقاء المتمردين من الطائرات. في النهاية أُسر عمر المختار وُشنق في 11 سبتمبر عام 1931م في معسكر اعتقال سلوق أمام 20,000 من المعتقلين الذين أجبرهم الإيطاليون على حضور عملية الإعدام. حوصل أربعة من قادته عند الحدود المصرية؛ مات أحدهم، وأُسر اثنان، بينما تمكّن الرابع من الهرب إلى مصر، وبهذا انتهت المقاومة.

يقول حميده إنه أجرى الجزء الأكبر من بحثه في ليبيا حيث اكتشف مادة أصلية عن الليبيين المعتقلين، في الأرشيف الوطني والعائلي الخاص، فقد تمكّن من إجراء مقابلات مع 30 من الناجين من المعتقلات والقيام بعده زيارات حقلية لموقع معسكرات الاعتقال بين الأعوام 2000م و2015م، حيث أشار إلى أهمية المركز الليبي للدراسات [المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية] في طرابلس، موقع أحد أبرز مشاريع التاريخ الشفوي في العالم، فقد اكتشف المؤلف أن لدى المركز تسجيلات لمقابلات مع

220 ناجيًّا من المعتقلات، غير أنه يؤكّد بحزن أنّ الدولة الليبيّة الحديثة فشلت في المحافظة على موقع معسكرات الاعتقال وصيانتها، وبذلك تكون قد أُسهمت في تهميش تاريخهم.

نتيجة عدم تمكّنه من إيجاد مادة كافية في السجلات الرسمية، لجأ الباحث إلى تحليل الإرث الشفوي ودور الشعر في الإبقاء على التاريخ حيًّا، فعلى ما يبدو كان هناك المئات من الشعراء والشاعرات في برقة، إلى درجة أننا يمكننا أن نتحدث عن مجتمع كامل من الشعراء. خلّدت إحدى هذه القصائد الملحمية معاناة الشعب في معسكرات الاعتقال وهي قصيدة ”ما بي مرض غير دار العقيلة“ للشاعر رجب بوحويش التي ذاع صيتها بين الليبيين ويقرأها طلبة المدارس. كان الشاعر قد اعتقل في معسكر العقيلة، الذي خصص بشكل عام لأقارب مقاتلي المقاومة. وقد نقلها الشاعر الليبي خالد مطاعو إلى اللغة الإنجليزية في ترجمة رائعة (ص xiii). يقول مطلع القصيدة التي يحفظها أطفال المدارس الليبيين:

ما بي مرض غير دار العقيلة

وحبس القبيلة

وبعد الجبا من بلاد الوصيلة (ص 186)

يصف الشاعر في هذه القصيدة الفظائع والآلام والحنين للأوطان، ويصف كل هذا بكرامة وشرف، كما نظم شاعرٌ ليبيٌ آخر؛ أحمد رفيق المهدوي، قصيدة كبرى أخرى عنوانها ”غيث الصغير“ يتحدث فيها عن أثر معسكرات الاعتقال على الأطفال، كما يجدر بنا ذكر وجود عدة شاعرات مهمات بما فيهن أم الخير عبد الدايم وفاطمة عثمان صاحبة قصيدة ”خرابين يا وطن“

التي تقول في مطلعها:
خرابين يا وطن ما فيك والي
وذيلك جوالي
ولخرين في المشنقة والقتالي
خرابين يا وطن ما فيك هل
ركبك الذل
اللي ما جلا، في المشانق حصل (ص98)

كان على حميده التغلب على التوجس الطبيعي لدى الناس من الباحثين الذين يمكن أن يكونوا على علاقة بالحكومة، وأنهم يقومون بجمع معلومات قد تستخدم ضدهم. وهذا هو حال جميع دول العالم العربي وغيرها حيث تسيطر الأنظمة القمعية، إلا إن حميده لحسن الحظ نجح في الامتحان عندما اكتشف الناس أنه ينحدر من عائلة عريقة عرفت بمشاركتها في المقاومة ففتحت له الأبواب واستقبله الناس.

ذكر حميده في كتابه أنه نتيجة للموت والنفي، انخفض عدد سكان ليبيا من 1.5 مليون عام 1911م إلى ما يقرب من 779,072 في عام 1934م. تم إطلاق سراح الناجين من معسكرات الاعتقال في أوائل 1934، لكنهم بعد ذلك وضعوا تحت الرقابة لمدة عامين، كما لم يُسمح لهم بالعودة إلى أوطانهم لأن أراضيهم كانت قد منحت للمستوطنين الإيطاليين. المقابلات مع الناجين من المعسكرات تقطع أوصال القلوب. فعلى سبيل المثال: ”رأيت عائلتي تموت أمام عيني. لم يبق على قيد الحياة بعد الاعتقال إلا أنا وأمي وإخوتي. صرت يتيمًا وتم تجنيدي في الجيش الإيطالي في حرب

الحبشة. كان عمري 15 عاماً.“.

يقدم لنا المؤلف وصفاً مفيداً لنشوء الدولة الليبية الحديثة، أولاً تحت الحكم الملكي ثم الجمهورية التي أسسها ضباط الجيش في عام 1969م بقيادة القذافي، ثم يورخ حميده بعد ذلك للثورة التي أطاحت بالقذافي والتفكك الذي تبعها.

ينقع كتاب “الإبادة الجماعية في ليبيا” بشكل دراميكي تاريخ الاستعمار الاستيطاني، والفاشية، والإبادة الجماعية، بما فيها دراسات الهولوكوست. يجب أن يقرأه كل من يريد أن يعرف عن ليبيا وتاريخها. لا يمكن أن يفهم المرء ما يحدث في البلاد في عام 2021 ما لم يقدر الندوب العميقة التي أصابت الشعب الليبي. ولا يمكن أن نقوم بهذا عن طريق النظر إلى المنطقة عبر عدسات علم الاجتماع الغربي التقليدي. لا يتحدى هذا العمل الفريد الذي صُنِع بمحبة علي عبد اللطيف حميده الأنماط الفكرية الغربية فحسب، بل يرينا أيضاً كيف يمكن القيام بمنهجية نزع الاستعمار، وأخيراً قام شخص ما بكتابه عملٌ رائع يكرّم به ذكرى أولئك الذين فقدوا حياتهم خلال تلك السنوات المأساوية.

في نقد المعرفة الاستعمارية والنخبوية: عن التاريخ الاستعماري في ليبيا، وما بعد الاستعمار حوار مع الدكتور ”علي عبد اللطيف حميده“



الدكتور علي عبد اللطيف حميده

يسعى فريق الغرفة (211) إلى الاقتراب أكثر من زاوية نظر الدكتور علي عبد اللطيف حميده، عبر محاورته عن تجربته البحثية المتعلقة بالمعتقلات الفاشية في ليبيا، وكتابه ”الإبادة الجماعية في ليبيا، الشر، تاريخ استعماري مخفي“، وجوانب مختلفة، منها الخلفيات النظرية المصاحبة لعملية التحقيق الميداني. أجرى الحوار رئيس تحرير الغرفة (211)، الشاعر والأكاديمي خالد المطاوع، في أبريل 2023.

الغرفة 211: لنبدأ بسؤال يتعلّق بالاختصاصات، فأنت أستاذ العلوم السياسية وتحصّلت على دكتوراه في هذا المجال، وأسّست قسم العلوم السياسية في جامعة نيو إنجلاند، وتدرّس دورات في النظريات السياسية هناك، لكننا نجد عنصراً تاريخياً قوياً في عملك بداية من أول دراسة لك، المجتمع والدولة.. الاستعمار في ليبيا؟ هل لك أن تخبرنا عن مصدر هذا المكوّن التاريخي القوي في عملك؟

حميد: هذا صحيح، وغالباً ما أفكّر في اختياراتي الأكاديمية وبحوثي ودراساتي على أنها خارجة عن سائد العلوم الاجتماعية وخاصة العلوم السياسية. بالنسبة لي، لم تكن كتابة التاريخ مأخذًا تجريبياً في العلوم السياسية، بل كانت عبارة عن فحص نceği أكبر لمعرفة فاعلية الأفراد في تقاليدهم المناهضة للاستعمار، في نضالهم وتخليهم المستقبلي للحكم الذاتي. ويعود ذلك أولاً- إلى المشاركة المباشرة للعديد من أفراد أسرتي في المقاومة الليبية ضد الاستعمار، والتي كان لها تأثير كبير في تربيتي، حيث كان أجدادي من المقاتلين من أجل الحرية وأحدّهم، الجد علي السنوسي، روى لي قصته عدة مرات. أصبحت مفتوناً ومهتماً بقراءة التاريخ الاجتماعي الاستعماري منذ سن مبكرة في وسط وجنوب ليبيا. عندما غادرت للدراسة الجامعية بالقاهرة ثم إلى سياتل، واشنطن، بالولايات المتحدة، حملت هذا الاهتمام الشخصي معي. ثانياً- اخترت دراسة مجالات أخرى بالإضافة إلى العلوم السياسية في جامعة واشنطن فدرست التاريخ الأفريقي وعلم الاجتماع التاريخي والأنثروبولوجيا، ووجدت نفسي منجدًا نحو التقاليد

النقدية التاريخية المتعددة التخصصات، وما بعد الاستعمار، والممارسات النقدية للمهمشين (Subaltern Studies). ولم يكن مفاجئاً إذن أنني كتبت أطروحة حول تاريخ المقاومة ضد الاستعمار في ليبيا وجزورها الاجتماعية.

الغرفة 211: إلى أي مدى كان التركيز على التاريخ له علاقة بأنك تعمل بالولايات المتحدة حيث إن البحوث المتخصصة بليبيا نادرة؟ هل كنت ترغب في إعادة تعريف المصطلحات التي ينظر بها إلى ليبيا في مجال العلوم السياسية؟ إذا كان الأمر كذلك، فما المصطلحات/ النماذج التي تريد تغييرها؟

حميده: لقد كانت ليبيا للعديد من العوامل التاريخية والسياسية موضوعاً هامشياً تم تجاهله في الدراسات والبحوث المتوفّرة في الغرب. أولاً- أوقف على أن هناك ندرة في الدراسات المخصصة لليبيا، فباستثناء عدد قليل من الباحثين، فالدراسات المتاحة إشكالية ونمطية عموماً. حتى اليوم، ينصب التركيز على القذافي، والقبلية، والجهوية، والإرهاب، والتشرذم، والتحديث. ولا يتم فحص الثقافة والتاريخ الليبيين من خلال ديناميكياتها وفاعليتها الخاصة، بل يتم اختزالها من خلال وجهات النظر الاستشرافية والاستعمارية للقبيلة التي ترى أنها ذات جوهر وطبيعة راكرة لا تتغيّر مع الزمن، أو يتم النظر إلى ليبيا ما إذا كانت تشبه تونس المتحضرة غربياً والناطقة بالفرنسية، وكذلك لا بد أن أضيف أن أعمال النخب العربية حول ليبيا مقصّرة أيضاً مثلها مثل الدراسات الغربية. حفظني هذا الوضع

المتردّي للدراسات الليبية على تأليف كتاب في عام 2013، والذي أسمىته “ليبيا التي لا نعرفها”. فيما يلي بعض الأمثلة عن المواضيع التي أفرزتها أيديولوجية القبلية في ليبيا في حقل الدراسات الليبية: ليبيا كمجتمع قبلي أبدي لا يتأثر بالتاريخ، دور زعماء القبائل، والسياسة القبلية، والهوية القبلية، الخ... هذا التمثيل الاستعماري للمجتمع والثقافة والسياسة تغفل الإبادة الجماعية الاستعمارية، والتحول الرأسمالي لاقتصاد ليبيا، والتحضر، والتعليم، ومحو الأمية، والهجرة، والتكونيات الطبقية والجنسانية. للأسف، تبني العديد من الأكاديميين والمفكرين العرب والليبيين هذه التصورات الاستعمارية والاستشرافية على أنها حقائق معطاة.

الغرفة 211: في مجال الدراسات الليبية، توجد فجوة بين البحوث والدراسات التي تتم في الخارج وما يحدث في ليبيا ومنطقة اللغة العربية، عموماً. نظراً إلى أن الكثير من عملك عن ليبيا تضمن العمل على أرض الواقع، لا سيما في أحد دراسة لك عن الإبادة الجماعية، ما التحديات التي واجهتها نظراً إلى صعوبات البحث الأكاديمي في ليبيا؟

حميده: في عهد القذافي، كان إجراء البحث داخل ليبيا صعباً، ولم يُسمح إلا لعدد قليل من العلماء الغربيين بإجراء أبحاث، مثل ليسا أندرسون من الولايات المتحدة والهولندي ديريك فانديوال. كان يُسمح بإجراء بعض البحوث عن الفترة الاستعمارية والجهاد المناهض للاستعمار. كان الدكتور محمد الجراري، مدير مركز البحوث والدراسات، داهية حكيمًا. أعطى النظام الدعاية التي يحتاجها، لكنه تمكّن من بناء مركز أكاديمي من الدرجة

الأولى لمشروع التاريخ الشفوي. كان موضوع رسالتي للدكتوراه آمناً لأنه تعلق بتاريخ المقاومة ضد الاستعمار، لكن النظام منع استمرار بحثي عندما تمت ترجمة كتابي "المجتمع والدولة.. الاستعمار في ليبيا" إلى اللغة العربية عام 1994، وتم حظره، كما تم حظر كتابي الثاني "الأصوات المهمشة: الخضوع والعصيان في ليبيا أثناء الاستعمار وبعده". بالنسبة لنظام القذافي كان التاريخ سلاحاً ومورداً احتكره، إذ كان التاريخ الذيسانده النظام في جوهر شرعنته، وأي وجهة نظر تتحداه، كما فعلت أنا منذ أكثر من 30 عاماً، يتم التشكيك فيها أو تجاهلها أو حظرها. فقط بعد عام 1988 والإفراج عن سجناء سياسيين بينهم العديد من أصدقائي؛ مثل محمد الفقيه، صالح وأحمد الفيتوري، وعمر الككلي، وجمعة بوكليب، وإدريس المسماري، وإدريس بن الطيب، سُمح لي بالزيارة وإلقاء محاضرات في المركز الليبي للمحفوظات والدراسات الليبية. بالنسبة للوضع الحالي، فهناك تحديات جديدة معقدة للباحثين الليبيين عموماً اليوم، وهي لا تشمل فقط صعوبات إجراء البحوث في زمن الحرب والصراع، ولكن أيضاً تسييس الصراع بين المناطق والمدن والأيديولوجيات المتداخلة في البلاد، أضف إلى ذلك البحوث التي تصدر في الغرب، والتي ترتكز على الجانب الأمني وما يتبع ذلك من قناعات سياسية وحسابات استراتيجية وهي دراسات تموّلها الدول الغربية والعربية أيضاً.

الغرفة 211: بالإضافة إلى اهتمامك بالتاريخ، فقد شرعت بالعمل بطريقة متعددة الاختصاصات، حيث يغطي عملك الأدب والثقافة والمجتمع

المدني بالإضافة إلى التطورات السياسية والتاريخ، وليس فقط في ليبيا، بل وأيضاً في منطقة المغرب الكبير والساحل. كيف اندمجت هذه التخصصات والاهتمامات، وكيف أثبتت أنها مركبة في عملك عن ليبيا؟

حميده: أولاً- تأثرت طفولتي في جنوب ليبيا باستقلال ليبيا، وثقافة الأسرة العربية والإسلامية، ولكن خارج الأسرة في الفضاء العام، أساندتي، وحملات المقاطعة، وفرقة الموسيقى في المدرسة الإعدادية والثانوية، والراديو، وسينما الاتحاد في مدineti سبها كله أثرت في طفولتي وعرفتني على حرب الجزائر من أجل الاستقلال والقضية الفلسطينية. كنت ليبيّاً عربيّاً ومسلمًا، ولذا كانت هويتي متقدّدة ومتجانسة في السبعينيات والستينيات. ثانياً- كوني ترعرعت في فزان، جنوب ليبيا، جعلني مدرّغاً للصلات والروابط مع أفريقيا من خلال الهجرة والتجارة والحدود المفتوحة والمنفي. لجأ جدي علي إلى تشاد بعد هزيمة المقاومة عام 1930، هرب مع جدتي. والدتي ولدت في تشاد، كانت لغتها العربية لكنها اكتسبت من الثقافة المحليّة بها، حتى أنها كانت تجيد الطبخ الليبي والتّشادي أيضًا. لطالما شعرت أنا -الليبيين- مرتبطون بأفريقيا وشعرنا بأننا في وطننا مع الأفارقة الآخرين. يمكن لهذه الخلفية الإقليمية والعائلية أن تفسّر قراري لدراسة التاريخ الأفريقي وليس الشرق الأوسطي وتعزيز معرفتي بأفريقيا لدرجة أنني قمت بتحرير كتاب ينتقد وجهة النظر الاستعمارية للصحراء باعتبارها فاصلةً ومساحة فارغة قبلها علماء الغرب والشمال الأفريقيين كذلك. ثالثاً- جئت لدراسة العلوم السياسية عن طريق الأدب لأنني في المدرسة الثانوية بدأت في كتابة ونشر القصص القصيرة والشعر، منها في مجلة "آفاق

ثقافية” التي أسهمت في تكوين جيل الكتابة الإبداعية في السبعينيات. لقد كنت دائمًا منغمسًا بعمق في العلوم الاجتماعية الغربية والتقليدية المحلية التي مكنتني من أن أكون ناقدًا وقدارًا على المشاركة والتحاور. أجلب هذا التراث الشخصي ووجهات النظر المتعددة التخصصات لدراسة ليبيا الحديثة والمغرب، ولجمع التنظير السياسي والتاريخ والأنثروبولوجيا في أسلوب نceği واحد. أعتقد أن العلوم الاجتماعية لا يمكنها التقاط بعض الجوانب العاطفية والفردية لمجتمع ما إلا من خلال فحص الشعر والروايات والأدب. في حالة المجتمع الليبي، فأسلوبه في الاتصال والتعبير يعتمد على الشعر والشفهية. ومع ظهور الرواية الحديثة بعد عام 1960، يمكننا الآن أن نفهم كيف حلّ الشعراء والأدباء الليبيون مجتمعهم وتخيلوا مستقبلاً أكثر مساواة وشمولية بشكل يتعدي القومية وتأثير الاستعمار.

الغرفة 211: في بحوثك في التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية في ليبيا وشمال أفريقيا استعنت بالتنظير ما بعد الاستعماري، وكذلك في بحثك حول الإبادة الجماعية في ليبيا. كيف ساعدك هذا الطيف النقيدي على إلقاء ضوء مختلف للتحقيق في التطورات السياسية والثقافية في ليبيا والمنطقة بشكل مختلف؟

حميد: كانت خبرتي هي الفترة الاستعمارية في أفريقيا والمغرب الكبير، وفي العقود الماضيين ركّزت على دراسات الإبادة الجماعية. سمحت لي هذه المعرفة برؤية الاستمرارية والتغيير بعد استقلال دول آسيا وأفريقيا، وأنني كنت قادمًا من مجال الدراسات الأفريقية كنت منفتحًا على دراسات

نقد المهمّشين القادمة من الهند، حتى أني نشرت رداً على مقال غایاتري سبيفاك الكلاسيكي ”هل يستطيع المهمش أن يتكلّم؟“، والذي أسميته ”عندما يتكلّم المهمش“، وتم نشره في مجلة الدراسات الإيطالية. أشارك مع هذا النهج في نقد المعرفة الاستعمارية والنخبوية والميكانيزمات التي تعيد بها النخب الوطنية تدوير الافتراضات والتصنيفات الاستعمارية وترسيخها في أوطانها. ليس من المستغرب أن المراجعات العربية لدراساتي ما تزال سطحية إذا ما قورنت بالتقييمات الأخرى من قبل الزملاء الأفارقة وغيرهم من الدول التي كانت مستعمرة. داخل ليبيا، المؤرخون وعلماء السياسة لا يستسيغون تقييم أعمالي لأن معظمهم يعتبرون أحادية التخصصات الأكاديمية والفصل فيما بينها أمراً مفروغاً منه. كتابي الجديد عن الإبادة الجماعية في ليبيا يبني على أعمالي السابقة، ولكنه سمح لي بالتحقيق في صراع التذكر والصمت عندما ننظر إلى حقبة ما بعد الاستعمار، وهذه حزّرتني لكي أرى بعض الترابط المباشر وغير المباشر بين عناصر متعدّدة. القومية الليبية بناء حديث مثل كل القوميات بما في ذلك القوميات الغربية، وكلها تكونت نظراً إلى عاملين رئيسيين: الاستعمار والرأسمالية المدعومة بوسائل طباعة ونشر المعلومات (print capitalism). وهذا العاملان ينطبقان على ليبيا، أولاً- الغزو والاستعمار الإيطالي الغاشم بين 1911-1943، الذي اخترع اسم ليبيا نفسها، ثم الرأسمالية المدعومة بوسائل طباعة ونشر المعلومات عبر القصص القصيرة والروايات والصحف مثل اللواء الطرابلسي والمنار والأهرام في ليبيا وبين المنفيين الليبيين في مصر وتونس وسوريا، وكذلك الشعر الحديث مثل أحمد رفيق وأحمد الشريفي، بالإضافة إلى القصص القصيرة والروايات مثل ”مبروكة“ لظافر بن موسى،

وكتاب صادق النهوم ”من مكة إلى هنا“. ساعدت كلتا القوتين الحديثتين في اختراع القومية الليبية، ومع ذلك فإن الدولة الليبية الحديثة التي تم اختراعها في عام 1951 كملكية دستورية فيدرالية، واستبدلت بجمهورية في عام 1969 عن طريق الانقلاب العسكري، كانت مليئة بالتناقضات بسبب الإمبريالية وفشل دولة ما بعد الاستعمار في بناء مؤسسات جامعة شاملة يعتمد عليها، والتي تفجرت بالكامل في عام 2011. لقد جادلت لفترة من الوقت أن القومية الليبية لا تزال قوة ثابتة ضمن الليبيين على الرغم من فشل دولة ما بعد الاستعمار.

الغرفة 211: في أمريكا وفي العالم العربي، هناك نقص معرفي عام بشأن الإبادة الجماعية التي حدثت في شرق ليبيا. وحتى في ليبيا تبدو الإبادة الجماعية وكأنها حقيقة لم تسجل تماماً في وعيينا. ما الذي دفعك إلى القيام بهذا المشروع؟ خاصة أنه كان فصلاً آخر من تاريخنا يتوجه نحو النسيان.

حميده: كنت ساذجًا في البداية حين اعتقدت أن هذا الفصل العنيف من التاريخ الاستعماري والفاشي معروف بطريقة ما. كنت مخطئًا واكتشفت كذلك أن الأمر كان غامضًا في معظم أنحاء ليبيا، وقد تم استبعاده من الدراسات العربية والغربية الحديثة. أدركت فقدان الذاكرة الجماعي هذا عندما دُعيت لأحاضر في أفضل الجامعات الأمريكية بعد نشر كتابي ”أصوات منسية“ في عام 2005، ثم بدأت في التحقيق فيما حدث ولماذا أخرجت هذه الحالة من الدراسات الحديثة. استغرق الأمر عقدين من الزمن.

الغرفة 211: من المفترض أن تكون فكرة معسكرات الاعتقال قد نشأت

في حرب البور في جنوب أفريقيا، حيث تشير السجلات إلى مقتل 154000 من البور والأفارقة. تشير الأدلة التاريخية أيضًا إلى أن إسبانيا اخترعت هذه الممارسة في كوبا حيث احتجز الإسبان مئات الآلاف من سكان الريف في المدن التي يسيطرون عليها خلف الأسلاك الشائكة، وهي استراتيجية سميت بال(reconcentración) أو إعادة التكيف. يبدو أن هذا وثيق الصلة مباشرةً بالسياسة الإيطالية في شرق ليبيا. تقوم في كتابك بتوسيع هذا التعقب التاريخي مقارًأً بأن ما حدث في ليبيا يمكن مقارنته بمسار الدموع والتهجير القاسي لهنود الشيروكى في أمريكا إلى أوكلاهوما، فضلاً عن أن ما جرى في ليبيا كان نذيرًا للهولوكوست. هل لك أن تحدثنا عن إعادة تمركز دراسات الإبادة الجماعية التي تريد أن تحدثها في هذا الحقل ودور تاريخ ليبيا المؤلم في إعادة تشكيل هذه السردية المأساوية.

حميده: يعكس صعود الفاشية في إيطاليا عام 1922 أيديولوجية عنصرية وعنيفة خاصة في ليبيا، المستعمرة التي تم تصوّرها على أنها امتداد لإيطاليا نفسها كشاطئ رابع، ومكان لتوطين الفلاحين الإيطاليين الفقراء بعد إفراغ الأرض من سكانها الأصليين. يجب أن نتذكر أن إيطاليا الفاشية كانت الدولة الفاشية الوحيدة التي كانت لديها مستعمرات بعد أن فقدت ألمانيا مستعمراتها في أفريقيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. لقد درست حالات أخرى في أفريقيا وأوروبا والأميركتين، ووُجدت أن الترحيل الجماعي القسري لأمة الشيروكى في القرن التاسع عشر وأمة الهيرورو في جنوب غرب أفريقيا في 1904-8 يشبه الحالة الليبية في عامي 1928 و1929. رغبت أن أعرف ما حدث، وأن أكتب هذه السردية لبقية العالم.

الغرفة 211: أيضًا، كما في حروب البور والإبادة الجماعية في ليبيا، اعتبرت القوى الاستعمارية دائمًا الأشخاص الذين ماتوا في المعقلات أضرارًا جانبية للقتال مع المتمردين. يقودنا هذا إلى التساؤل عن ديناميكيات الاستعمار الاستيطاني في مقابل الاستعمار الكلاسيكي الذي لا يهدف إلى إزاحة السكان الأصليين. هل يمكنك تحديد كيفية تطور سياسة معسكرات الاعتقال في الحكومة الفاشية الإيطالية؟

حميد: إن أيديولوجية النفي والقسوة الجماعية واجتثاث السكان الأصليين متجلّرة في الاستعمار الإيطالي في عام 1912، حتى قبل صعود الفاشية. تم نفي المقاتلين الليبيين إلى المستعمرات العقابية لجزر جنوب إيطاليا، وكان البناء الضخم للمعقلات الإيطالية في عام 1929 تبيّنًا لهذه السياسة. لهذا السبب، على الرغم من أسر الرعيم الأسطوري للمقاومة عمر المختار وشنقه في 16 سبتمبر 1931، استمر الاعتقال ليس من أجل العقاب، ولكن لتفريغ الأرض وتمهيد الطريق لأول مستوطنات ضخمة للإيطاليين، 20000 منهم في عام 1938، إذ يعود دعاة الإمبراطورية في إيطاليا إلى أواخر القرن التاسع عشر. برزت هذه الرغبة الاستعمارية لاستعادة مكانة الإيطاليين وسعياً لمجد الدولة، لكن هزيمة الجيش الإيطالي على يد إثيوبيا في معركة عدوة عام 1896، وهجرة الكثير من الإيطاليين إلى الأمريكتين، كانت مهينة لهم. والحل الذي تم اقتراحه هو أن يكون لإيطاليا مستعمرات خاصة بها. دفع الفاشيون بعد عام 1922 بهذا المشروع إلى نهايته، ورددوا: "إننا سوف نسحق المقاومة ونفرغ الأرض من أجل الاستيطان".

نعم، الإبادة الجماعية في ليبيا لم تكن مصادفة ولكنها جزء لا يتجزأ من الاستعمار الاستيطاني العنصري والفاشية عامة. علينا أن نتذكر أن إيطاليا كانت الدولة الفاشية الوحيدة التي لديها مستعمرة، وأن الخطة هي توطين حوالي نصف مليون إيطالي في ليبيا. بالإضافة إلى ذلك، كان يُنظر إلى ليبيا من الناحية القانونية على أنها جزء من إيطاليا، حيث كانت فرنسا تتظر إلى الجزائر كجزء من فرنسا وليس مجرد مستعمرة. نَفَذَ الإيطاليون خطتهم في عهد بالبو الذي جلب 20000 مستوطن في عام 1938، لكن هزيمة الجيوش الفاشية والنازية في عام 1943 أوقفت الخطة.

الغرفة 211: أحد العوامل التي ربما مَكَّنت الإيطاليين من الإبادة الجماعية هو أن معسكرات الاعتقال وعمليات النقل القسري للسكان كانت تعتبر تصْرُفات إدارية حديثة مقبولة، ثم كان هناك الرأي البارز بأن الفاشية الإيطالية قوة حميدة، ولذا لم يتم إيلاء اهتمام كبير لفظائع إيطاليا في ليبيا، ولا يزال الصمت قائماً بشأن وحشية إيطاليا الاستعمارية. ترى ما سبب ذلك؟

حميدة: استمرار الصمت في إيطاليا اليوم هو عواقب مباشرة للتكتم الذي جرى خلال وبعد الحرب العالمية الثانية. قرر الحلفاء عدم محاكمة جرائم الحرب لأنهم قرروا التعاون مع الفاشيين الإيطاليين، وكذلك فشل النخبة الإيطالية بعد الحرب في منع الفاشيين من الرجوع للعملية السياسية الإيطالية، فحتى اليوم يتم تطبيع رئيسة وزراء فاشية. ما لا يعرفه معظم الناس أن التعليم الإيطالي لا يعترف بالفظائع الاستعمارية والإبادة الجماعية، كما أن الآثار

الفاشية، لا تزال موجودة في كل مكان في إيطاليا. بالإضافة إلى ذلك، فإن أسطورة الفاشية الإيطالية بأنها كانت مختلفة وإنسانية ما زالت مقبولة ضمن النخبة الإيطالية. كتابي عن الإبادة الجماعية في ليبيا يفضح هذه الأسطورة، وهو يعد محاكمة مؤجلة لمرتكبي جرائم الحرب الفاشية الإيطالية.

الغرفة 211: كيف تمكّن الإيطاليون من البقاء هادئين بشأن ممارسات الإبادة الجماعية، بينما كانت الدول الأخرى، ألمانيا، وإلى حدّ ما الولايات المتحدة وكندا، أكثر استعداداً للاعتراف بماضيها العنيف؟ أيضاً، في المعاهدة التي وقّعتها إيطاليا مع ليبيا، يبدو أنهم يعترفون بماضٍ مليء بالذنب - هل تعتقد أن هذا كافٍ، بالنسبة لنا كليبيين ولهم؟

حميده: لم تكن هناك أبداً محاكم جرائم حرب ضد الفاشيين الإيطاليين الذين كانوا وراء الفظائع والإبادة الجماعية في ليبيا، وأخرى في إثيوبيا ويوغوسلافيا. الحلفاء الغربيون الذين استغرقوا عامين لاحتلال إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية (1943-45) احتاجوا إلى الفاشيين الإيطاليين في الحرب ضد ألمانيا النازية، وكانوا أيضاً بحاجة إلى تعاون الفاشيين لمواجهة شعبية الحزب الشيوعي الإيطالي بعد الحرب. وقبل كل شيء، العنصرية الأوروبية التي تنظر إلى الآخرين بأنهم بشر أقل.

الغرفة 211: بما أننا نتحدث عن العنصرية، يكتب الناقد والشاعر الأنيتلي إيمي سيزير، بأن الحلفاء لم يروا جريمة هتلر في الهولوكوست بأنها جريمة

ضد الإنسان، بل لأن هتلر طبق الإجراءات الاستعمارية التي حتى ذلك الحين كانت مقتصرة على شعوب أفريقيا وآسيا. هل تتفق مع وجهة نظر سينزير؟

حميده: نعم، بل وقد اقتبست من سينزير أيضاً، فسينزير وفانون وممداني محقون تماماً في مواجهة العنصرية الاستعمارية المقبولة والمطبعة بعمق في أوروبا منذ القرن التاسع عشر. علينا أن نتذكر الأصوات النقدية التي فحصت هذه الأيديولوجية عميقة الجذور لتبرير الإمبراطورية والقهر في أعمال جوزيف كونراد، وحنة أرندت، وخاصة المتطرفين منهم، وأن ندرس الدراسات المهمة مثل كتاب السويدي سفين لوندكفيست "أعدموا كل المتوحشين" الذي تتبع صعود الأيديولوجية الإبادية في أوروبا بين العلماء والباحثين في أوروبا قبل الفترة الاستعمارية في أفريقيا، لهذا السبب أجد الدراسة والتعليقات على الحداثة والتحديث بدون الحديث عن الإمبراطورية والإبادة الجماعية هي إعادة إنتاج للصمت وتكرار للمعرفة الاستعمارية. لتأخذ ليبيا كمثال، إذ كيف يمكننا الحديث عن ليبيا الحديثة دونأخذ الإبادة الجماعية على محمل الجد؟ تحقق في صمت معظم الدراسات والخلوات الفكرية عن ليبيا اليوم وستجد مجتمعاً بلا تاريخ أو فاعلية أو صوت!

الغرفة 211:رأي إيمي سينزير يعيد إلى الأذهان مفهومك عن إعادة تمركز دراسات الإبادة الجماعية. هل لك أن تصف للقراء في منطقتنا، حيث لا توجد دراسات ميدانية للإبادة الجماعية، هذا الحقل العلمي وتاريخه

وتطوره، وكيف يمكن لقصة الإبادة الجماعية في ليبيا أن تحدث تغييرًا جذرًا في الرواية الراسخة للإبادة الجماعية الحديثة؟

حميده: آمل أن يؤدي الكتاب إلى نقاشات وحوارات جديدة ليس فقط في ليبيا ولكن في إيطاليا وأوروبا، فهو لا يخص ليبيا فقط كحالة حزينة من ضباب الحرب! كما أنها عندما نتحدث عن إعادة التمكز، فإننا نتحدث عن مواجهة افتراضات المركزية الأوروبية وتأصيلها لتفوق أوروبا وإضفاء الشرعية على الهيمنة والاستعمار ودونية الآخر غير الأوروبي. قدم كل من سيزير وفانون وغرامشي وسعيد وإريك وولف ومداني وأستاذي بيتر جران والراحل رفعت أبو الحاج انتقادات للمعرفة الاستعمارية. ما أدىني أنني قمت به هو تجاوز نقد سعيد للاستشراق والطبقية من أجل إلغاء المركزية الأوروبية. لقد نظرت بأن الآخر الذي ينظر إليه دونيًّا من خلال عدسة الاستشراق والاستعمار اتخذ فاعليته وصوته كنقطة انطلاق، والأهم من ذلك، ربطت دراسة أوروبا بأفريقيا، ونظرت لضرورة دراسة كلتيهما معًا، وأن النضال يجب أن يكون ضد كلٍّ من الفاشية والعنصرية، فالهولوكوست لها جذور أفريقية، وأن الفاشية الإيطالية مصدر أساسي لإبادة جماعية تضاهي الألمانية، وأن هناك ثمنًا لتطبيعها.

الغرفة 211: تقترح في كتابك أن الحكومات الليبية التي تولّت السلطة بعد الحرب العالمية الثانية كانت مسؤولة عن دفن تاريخ الإبادة الجماعية في شرق ليبيا، ربما عن طريق الإغفال. لماذا كان هذا هو الحال؟

حميده: ليس بعد، ما لدينا في معظم مجتمعات ما بعد الاستعمار هو

بعض الكتب النقدية وطلبات الاعتذار والتعويضات، ولكن ليس سرداً جديداً للمجتمعات غير الغربية من منظور ديناميكياتها الخاصة. لم يفحص الراحل إدوارد سعيد أو محمود منداني المجتمعات الأصلية والمحلية التي تم تطويقها تحت المنظور الاستشرافي والاستعماري. الاستثناءات الوحيدة في هذا الدمج التنظيري نجدها في رواية ما بعد الاستعمار، على سبيل المثال لا الحصر، أعمال الطيب صالح وأحمد إبراهيم الفقيه. كتابي الجديد هو محاولة لتنظيم وإعادة بناء ثقافة ومجتمع السكان الأصليين. اختار العاهل إدريس تجنب فتح هذه القضية الشائكة ورَكَّز على التطوير والتحديث. تحدَّث نظام القذافي بصوت عالٍ للغاية، لكن في الواقع تم تجاهل تاريخ معسكرات الاعتقال.

الغرفة 211: قَدَّرْت أنت وباحثون آخرون أن ما يقرب من 60.000 ماتوا من الاغتيال والجوع والمرض في معتقلات الاستعمار الإيطالي في ليبيا. هل تعلم بأي محاولات لمعرفة أسمائهم؟ هل نعرف عدد الضحايا الذين تم تسجيلهم؟ أياً، عدد الناجين؟ ولماذا كان ذلك صعباً جدًا؟

حميده: لقد خضت معركة للعثور على أسمائهم منذ عام 2000. وجدت البعض منهم لكن الدولة الإيطالية ومسؤولي الأرشيف هناك ما زالوا يحجبونها. وجدنا قائمة لمعسكر واحد فقط، وأسماء بعض 10000 من المرحَّلين إلى إيطاليا. ما زلت أعمل على هذا الموضوع!

الغرفة 211: لا يمكننا مناقشة معسكرات الاعتقال والإبادة الجماعية دون الإشارة إلى المصاعب الأكبر التي تواجهها النساء بشكل أساسي في جميع معسكرات الاعتقال تقريباً، منذ شعوب الأميركيتين حتى معتقلات اليزيديين تحت حكم داعش، وهكذا دواليك. بالنسبة لليبيا، هل أثّرت رغبتنا لكتم الفظائع التي مرت بها سلفاتنا في إرادتنا لحفظ هذه الذاكرة المؤلمة؟

حميده: هذا صحيح، لأنها ما تزال من المحرمات في المجتمع الليبي. سألت عن حالات الاغتصاب والزواج القسري، لكنني وجدت القليل من الناس يتحدثون عنها. اكتشفت أن الدعاية وبيوت الدعاية انتشرت في بعض المدن الليبية في أربعينيات القرن الماضي نتيجة العنف الجنسي الذي مورس على النساء الليبيات، ووجدت كتاباً إيطالياً واحداً فقط حول هذا الموضوع، أرى أنه يجب أن يتم فحصه.

الغرفة 211: هل يمكن بناء الهوية الوطنية على الإبادة الجماعية؟ بأي طريقة يمكن أن تصبح تجربة الإبادة الجماعية الفاشية في ليبيا مساهماً أساسياً في ذاكرتنا و هو يتنا الوطنية؟ ضع في اعتبارك أن المعتقلات كانت في جزء واحد من ليبيا، وكما يشير بحثك، فإن معظم الشباب الليبيين ليسوا على دراية بها.

حميده: نعم، لكنها ليست القضية العنيفة الوحيدة. لقد جادلت بأن التاريخ الليبي البطولي المناهض للاستعمار هو الذي شحد تشكيل هويتهم والنضال من أجل الوحدة والاستقلال. أشك في أن يكون لهذا التراث نفس

التأثير الآن، حيث يقاتل القادة الليبيون في يومنا هذا بعضهم البعض على طول مدن ومناطق Libya وينهبونها. يؤلمني أن أرى ردود الفعل على الإبادة الجماعية من خلال وجهات النظر القاصرة هذه والمتبطة للذات الليبية عموماً، لكن ربما في المستقبل. آمل أن يمنحك كتابي القراء الليبيين شيئاً ما ليكتشفوه عن أنفسهم جمیعاً، ليس لمنطقة واحدة فقط أو لأجنadas أنانية.

الغرفة 211: بعد سنوات قليلة من الآن، سنصل إلى الذكرى المئوية لمعسكرات الاعتقال في حين أبدأنا نفقد ذاكرتنا لها، مثل ما جرى مع مذبحة بوسليم وعمليات القتل الجماعي في الانتفاضة الراهنة. لماذا نحن كشعب ودولة غير قادرين أو غير راغبين في توثيق وإيجاد الحقائق حول مذبحة بوسليم، على سبيل المثال؟

حميد: نحن في حالة حروب أهلية ساخنة وباردة. نحتاج إلى رؤية جديدة وقادرة جد ومتقدفين قادرين على الارتقاء بنا فوق الوضع الراهن واستعادة رؤية لليبيا الشاملة التي تحضن الجميع. لا أرى هذا يحدث الآن، لكنني أعتقد أن ليبيا ستنهض مرة أخرى على المدى الطويل، ولن تتمكن من النهوض إلا إذا نجحنا في تحقيق السلام مع تاريخنا وثقافتنا. النضال العاجل لنا الآن هو أن يكون هناك سلام وأمن للمجتمع ككل، ثم المعركة المؤجلة الأكبر هي صنع السلام مع التاريخ ومع العنف الذي جرى. لقد اقترحت تشكيل مفوضية للحقيقة والمصالحة لكن مختلفة تماماً مما يتم الحديث عنه الآن.

الغرفة 211: ربما أكثر من أي وقت آخر، نجد صلة بين التاريخ والهوية،

وشعوراً بأن عدم الدقة والصمت والفجوات في معرفتنا التاريخية لبلدنا وشعبنا تسبّب تاكملاً في الهوية الليبية. إلى أي مدى ترى تارิกنا مرتبطاً بتشكيل الهوية الليبية؟

حميد: ما يعطيني الأمل هو المقابلات مع الناجين وأطفالهم وأحفادهم الذين أبقوا ذكرى الإبادة الجماعية حية. يجب أن يكون هذا مصدر إلهام لجميع الليبيين اليوم. ربما تكون الأزمة اليوم من صنع نخبة أنانية فاسدة ومستعمرات جدد أجانب. لا يستطيع المرء الهروب من ثقافتنا وتارิกنا، لكن هذا لن يكون كافياً. يحتاج المجتمع الليبي إلى سياسات تدعم البحوث المنهجية والدراسات والندوات، وكذلك النصب التذكاري والمتاحف الجادة لحفظ التاريخ، وبالنسبة للإبادة الجماعية، يحتاج إلى ترميم آثار المعتقلات، وأن تكون هناك مناقشات لا تستبعد أو تكتوم الأصوات المتنوعة حول هذا الموضوع. وقبل كل شيء على الليبيين الانفتاح على العالم الخارجي والبدء في التحدث مع أشخاص آخرين خاصة المجتمعات التي مرت بعمليات إبادة جماعية مماثلة أيضاً. كون كتافي عن الإبادة الجماعية قد تمت قراءته دولياً، آمل أن يكون هذا محفزاً لمزيد من الحديث وليس لنهایته عن المحرّمات في التاريخ الليبي الاستعماري وما بعد الاستعمار.

توصیق



أمّي حين تسرد التاريخ

أحمد يوسف عقيلة

كثيراً ما أطلب من أمّي أن تحدّثني عن المعتقلات، فتغمض عينيها وتهرّب
رأسها:

- سرير طويل، الله لا يعيده عَلَيْ مسلم. كلينا الزُّباع والرِّينش، أصبح
الواحد جلداً عَلَيْ عظم. كنا نلمُوا بَعْرَ الْبَلِ؛ ناخذو حَبَّات الشعير
المُمْصوَّصة اللي في البعر نَحْمَصُوهُنْ وناكوهُنْ، اسنين جُوع، حتّى
الذِّيْب في الوديان جاع. في الْمَقْرُونْ كان عمرى حَمْسَطاش ولا سُتْطَاشَر
سنة، لأب لأمّ. بوي مات في الحرب، أمّي ماتت ونا في ظهرها، كنت
نبكي علي سَدَادَةِ الْقِدْر، قطعة عجينة سودا من الدخان. كلَّ صبح
يوزعوا علينا (الرَّسْيُونِي)، كلَّ بيت قدح دقيق، الشبردق فيه أربع أفواه،
كلَّ فم تقابل فيه جَبَانَة، الدفن ليل نهار، اللي ما يموت من المشنقة
يموت من الجوع، حتّى في الليل يدفنوا على صَبَّيِ الفنار. وَيُنَمِّا يَخْطَم
طَيْرَ حَمَامَ نِبْقَوْ نِقْلَوْا:

يا طَيْرَ ما شَيْ لِجَبَانَا
قُولَ لَهَلْنَا
رَانَا فِي الْمَقْرُونْ نَرَلْنَا.

يقولوا لنا الكبار: ما عد عندكم شِي هَلْ في الجبل؛ هَلْكُمْ كُلُّهم في المُقْرُونْ.
حدّثني أيضاً كيف كان الناس يُعَلِّمُونَ أطفالهم القراءة والكتابة مستخدمين

فحـم التـنـور أـقـلامـاـ! قـبـلـ أـنـ تـسـمـحـ لـهـمـ السـلـطـاتـ الإـيـطـالـيـةـ بـالـقـرـاءـةـ فـيـ مـدـرـسـتـهـاـ (الـسـكـوـلـاـ).

تـقـولـ ضـاحـكـةـ:

ـ طـائـرـتـانـ إـيـطـالـيـتـانـ تـحـوـمـانـ فـوـقـ الرـحـيـلـ الـمـتـجـهـ جـنـوـبـاـ فـيـ مـنـطـقـةـ (الـحـلـيقـيـمـةـ)، هـذـاـ مـاـ لـاـ تـمـلـ رـوـاـيـتـهـ. فـيـ الـمـقـدـمـةـ مـحـمـدـ الـهـنـكـرـيـ يـرـتـجـزـ وـهـوـ يـصـوـبـ نـاحـيـةـ الطـائـرـةـ:

حـوـدـ يـاـ طـيـئـ ... عـلـىـ أـمـ الـخـيـرـ.

وـمـسـعـودـةـ الـتـيـ تـفـزـ إـلـىـ الـغـنـاـوـةـ فـيـ أـحـلـكـ الـظـرـوـفـ، فـتـحـرـضـ الرـجـالـ عـلـىـ الـقتـالـ:

هـذـوـلـ هـمـ الـلـيـ يـاـ عـيـنـ ... يـحـاـمـوـكـ وـالـنـارـ وـالـعـةـ.

تـقـولـ أـمـيـ:

ـ طـيـحـوـ الرـجـالـةـ طـيـرـ اـقـرـنـواـ فـيـ بـالـبـنـادـقـ، طـيـرـ لـاـخـ حـامـ، توـطـاـ وـرـدـ عـلـيـنـاـ الـبـلـ، طـيـحـ بـمـبـةـ قـتـلـتـ عـمـكـ مـحـمـدـ عـقـيـلـةـ الـهـنـكـرـيـ، قـسـمـاتـهـ نـصـيـبـ، رـدـوـاـ عـلـيـهـ فـيـ الـلـلـيـلـ وـلـمـوـهـ وـدـفـنـوـهـ.

تـقـولـ فـيـ حـكـاـيـةـ أـخـرـىـ وـهـيـ تـشـيرـ إـلـىـ أـثـرـ الشـظـيـةـ فـيـ رـقـبـتـهـاـ تـحـتـ الذـقـنـ مـبـاـشـرـةـً:

ـ طـيـحـ طـيـرـ بـمـبـةـ عـلـيـ نـجـعـنـاـ قـتـلـتـ أـمـيـ مـبـرـوـكـةـ الـقـنـدـولـيـةـ، صـادـتـنـيـ مـنـهـاـ شـرـيـكـةـ فـيـ رـقـبـتـيـ. رـدـتـ عـلـيـ عـمـتـكـ أـمـ الـخـيـرـ رـيـطـ رـاسـيـ بـالـمـحـرـمـةـ وـجـلـيـنـاـ. رـدـوـاـ الرـجـالـةـ عـلـىـ النـجـعـ، لـقـيـوـاـ وـلـيـةـ مـقـتـولـةـ رـاسـاـ مـقـطـوـعـ وـعـيـلـهـاـ عـلـيـ صـدـرـهـاـ وـيـرـضـعـ!

بعد رحيل الألمان في انسحابهم الشهير من العالمين إلى تونس مروّاً بليبيا؛ كانوا يتركون وراءهم الكثير من آلياتهم، قهرتها الصحراء قبل أن تعطّبها الحرب، نشف وقودها، انثقت إطاراتها بفعل الحصى المدبّب والصخور المُسّنة، أو كانت أبطأ من آليات الإنجليز المُطاردة فتركوها، لم يتسع لهم الوقت لتدميرها.

يُمُرُ رحيل البدو من أمام مراوة، يقفز أحدهم فوق دراجة نارية ذات ثلاثة إطارات، يحرّك فيها شيئاً فتنطلق الآلة، يمسك بالمقود بكل حرصه على الحياة، تعلو صرخات النساء، يُذهل الرجال، تنفر الإبل، تجفل الحمير، تختفي الآلة الجهنمية خلف المرتفع، يبدأ صوتها في التلاشي. تعود مرةً أخرى، يصرخون له بأن يقذف بنفسه لكنَّ الدراجة تسير بسرعة مخيفة؛ فتختفي في الجهة الأخرى. تظهر ثانيةً، يتفتّق ذهن أحدهم عن حيلة فيصرخ:

- نَزَّلُوا الرُّوَاقَ، نَزَّلُوا الرُّوَاقَ من فوق الناقة.

أنزلوا الرُّوَاقَ، فكوا طيّاته، مَدَّدوه، نصبوه بينهم. يصرخ صاحب الحيلة مرةً أخرى لقائد الدراجة الذي لم يكن يعرف أكثر من أن يُدير المقود فيتّجه نحوهم، نطحت تلك الآلة الشيطانية الرُّوَاقَ، انقلبت، أطلقت أنيّاً، دارت عجلاتها قليلاً في الهواء ثم سكنت.

- مَالِكُ وَمَالُ مُخْرُوبَةِ النَّصَارَىِ، الَّيْ مَيْ فَرْسُ بُوكْ تَوْقَعُكَ.

بعض الآليات كالدبابات والعربات كانت مادة جيدة لصناعة المزامير، فعلى الرغم من كل القسوة التي يعيشها البدو فقد كانوا يجدون في أنفسهم القدرة على أن يزّمّروا فوق الخراب.



السيدة رجعة بنت يونس، والدة الكاتب أحمد يوسف عقبة

ما تيسّر من سيرة نساء المقاومة والنضال الوطني

فاطمة غندور

”كثيرون كتبوا عن الحرب، لكنهم رجال كتبوا عن رجال... كل ما نعرفه عن الحرب نعرفه من خلال صوت الرجل، ونحن جمیعاً أسرى تصوّرات الرجال وكلماتهم وأحساسهم عن الحرب، أما النساء فيلذن بالصمت، حتى النساء اللواتي كنَّ في الجبهة يلذن بالصمت، وإذا بدأن الحديث فهن يتذكّرن حرب (الرجال) لا حرب (النساء)“.

(مقدمة سفيتلانا أليكسييفيتش في كتابها ”ليس للحرب وجه أنثوي“ - ترجمة نزار عيون السود- دار ممدوح عدوان للنشر 2016).

مدخل لازم

عند أرشفة المرويات المسجلة (صوتيّاً) والمدوّنة لحركة المقاومة الوطنية، ومعارك الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي، غيّبت أدوار النساء فيها، واستبعد طرح السؤال حولهن، جمّعاً توثيقياً، وبحثاً في سجل الذاكرة النضالية عبر ما صدر من سجلات الروايات الشفوية الميدانية، التي اختصّت بها مؤسسة حكومية وحيدة، حين منع النشاط المدني، وتم الحجر على مبادرات المؤسسات المستقلة، ظل تاریخهن في هذا المحك مهمّشاً مقصيّاً، ما عدا إشارات اضطاعت بعض عائلاتهن بتبيانها، سيرةً وصورةً مع خروج الوسائل التقنية، وذلك رغم تعدد جبهات مفاعيلهن، إذ قاسين ظروف العيش

المضني في كل مسارات الحياة اليومية، فمع خروج الرجال المقاتلين إلى ساحات حرب قريبة وبعيدة ضد الغزو الفاشي الإيطالي أكتوبر 1911م، تحملن مسؤولية اقتصاد بيتهن في زمن البؤس حيث الفقر المدقع، والمرض، والحرصار، ورغم كل تلك العوامل المجنحة القاسية برزت منهن مقاتلات اخترن مواجهة المعتمدي دفاعاً عن حياضهن، وصاحبات مواقف فيها إعلاء للصوت، ومفاعيل رافضة للهيمنة الاستعمارية، اعتمدت الرواية الشعرية، الوثيقة إلى يومنا هذا.

والنماذج التي تَرِد لاحقاً، لمن عاصرن واختبرن أقسى مرحلة فاشية، ممارسة للعنف، مع أول عقد الغزو الإيطالي ونهج الإبادة الجماعية، وحتى في عقد لاحق مع بروباكندا التعمير والتحديث، ما ظل مسكوناً عنه، استخدمت فيه النساء في أوضاع زينة وبهرجة أمام مصوريين إيطاليين للترويج الدعائي، لواجهة شعارها للعالم، التحديث وعصرنة البدو الليبيين! ما يراد بها إنتاج سردية تاريخية ناعمة، تمحو سيرة وحشية نحتت في النفوس وصم ممارسات القهر والضيم.

مُقاومات وسط الميدان

ومما تواتر عن التاريخ الشفاهي، أسماء نماذج منهن ظلت تتوارثهاذاكرة الجمعية، كالذى رُوي عن المُقاومة الشجاعة مبروكة العاقلة من مدينة صبراته غرب طرابلس، والتي عَزَّ والدها فيها قيم الفروسية والشجاعة، وقد ركبت الفرس، وللتمويه حلقت شعرها، ودخلت مع جمع المقاتلين، شاركت في معركة "جادو"، ومعركة "طويلة السوق" عام 1917. كانت

مبروكة تقاتل منفردة كامرأة، وتنصب الكمان لعدوها، أما الشاعرة والمجاهدة مبروكة الوكواك من المرج (شرق ليبيا)، فقد تواصلت وزوجها مع شيخ المجاهدين الليبيين عمر المختار، في قلب ملاحم الجهاد الوطني، فاعتُقِّلت وزُجَّ بها وعائلتها في معتقل سلوق سيئ الصيت، ثم سُجنت لتحريضها المقاومين، وقيامها بمهامات جهادية، گُلّفت بها أثناء المعارك اعتماداً على حيلها في التنقل بين المناطق المشتعلة.

وتجدر الإشارة أن في زمنهن امتلكت المرأة -وتحديداً في مجتمع البداوة والريف (وفيها الواحات)- روحًا معاشرة وثقة بالنفس، وذلك لما حظيت به من وضعية مستقلة مَكَّنتها من ممارسة دورها في الفضاء العام، ووُفق الأعراف السائدة، من منحى أدوارهن المعنوية في شحذ الهمم، وربط الدفاع عن الوطن بالدفاع عن العرض والشرف، وبتأثير موقعها الاجتماعي كمدبرة بيت المعيشة، نماذج ذلك أن بعضاً من قبائل الشرق الليبي ينسب فيها الابن إلى أمه، وعند أعراف مجتمع الطوارق تتم وراثة السلطة في القبيلة عن طريق الأم، وفيهما تستقبل المرأة ضيفها في مناخ من الثقة تعزّزه أعراف الجماعة التوافقية، ومما عُرف من تقاليد يتأكّد لنا تمكين المرأة باختيار شريك حياتها، وذلك في ممارسة عُرفية، تسمى "مقاعد أصحاب الصوب"، حيث تجتمع الفتاة بشباب من قبيلتها، تجالسهم وتخبر معارفهم وحضور بديهتهم، سواء عبر نص شعري أو قول مأثور متبادل، وغالباً ما تطرح الفتاة لغزها، الذي يمنح فكهُ صك الفوز بقلبها لزوج المستقبل، والحضور شهود.

عين على الجبهة

وعن أدوارهن ضمن خطط المعارك وتسليم المهمات، ما رُوي عن حادثة معركة ”أعلىم الشیخ“، نسبة لکھف أعلىم عام 1928، فمع اشتئاد سعير الحرب، وبه قصف الطیران الإیطالي على قری الجبل الأخضر، وفي الأنجاء التي ضممت مجموعات للمقاومین، وفيها عائلات قررت المواجهة مع جنود العدو على الأرض، والعمل على تشتیت جھوده وإنهاکه، تفرقت العائلات مضطربة، وعلى رأسهم عائلة یونس بوقیقه، إذ شارکت زوجته مکاتیب، وابنته مبروکة، في مهمة خطرة، بجبهة متقدمة، فيها رصد ومعاينة لاتجاه سقوط القنابل، والإشارة فيها تتم للمقاومین لأجل التقدُّم لإبعادها قبل الانفجار، وقد أصیبت الزوجة برصاصات في ذراعها، فيما واصلت عائلات المقاومین وفيهن نساء، مسلک المواجهة رغم الخسائر في الأرواح بحكم تفُّوق جاهزیة وعتاد العدو أرضاً وجھواً، وكان أن وصل مدد المجاهدین ليحيط الأعداد القليلة من الجنود الإیطاليین التي تبقّت تحاصر الكھف ومحیطه. (توثيق الروایة للباحث عبد العالی بوعجیلة، مقابلة مع المجاهد محمد فضیل العوکلی)

نصوصهن المُقاومة

النصوص هنا ما يجعلنا نعيid تفكیک وسبر ما مضى بآعینهن، وتعرّفنا عن تاریخهن في محکَّ المواجهة، ما جرى نسیانه، تعابیرهن المعلنة مضمّنة تمُرُّدھن ضد الاضطهاد، عن زمن ملکن فيه شجاعة البوح الغاضب، وبكون الشعر الشفاهي الوسیلة التراثیة المتاحة للتعبير في محیطهن، أرخت

الشعرات الشعبية بأكثر من جغرافية ليبية، أدبيات ونصوصاً ملحمية، ما مثلّت شعر المقاومة الغاضب ضد الفاشية الإيطالية، وكشهادة حية بأصواتهن لكل تفاصيل الوجع وال الألم ومارسات القهر التي عايشنها، لشعرهن ارتباط وثيق بالقضية الوطنية حتى وحصيلة ما وثق منه ظل متناثراً، وإن ردّته الأفواه في مناطقهن إلى يومنا هذا، وقتها عَزَّ بين الناس معاني الإقدام والبطولة وقوتها، كما مثلّ دافعاً للتحاق الرجال بصفوف المقاومة، ورفض المساومة مع العدو، نلمس دلالات ذلك فيما نظمته الشاعرتان مريم الحجلا ورفيقتها بمعتقل سلوق فاطمة الثقيبة (المصدر ديوان الشعر الشعبي- علي الساحلي، سالم الكبتي- منشورات جامعة بنغازي- 1993م)، ففي معاصرتهما مشهد القبض على شيخ الشهداء عمر المختار، لم تكن محاورتهما الشعرية التي عاينت الحادثة المفصلية في تاريخ الجهاد الليبي، حمالة لدلالات المهادنة أو الاستسلام، بقدر ما صعدتا في نصوصهما من قيم التضحية والمصابر ل أجل تخلص الوطن، رغم وضعية الإذلال التي عنونت ممارسات المستعمر تجاههما، وقد قضى رجالات من عائلتيهما في معتقلات الموت.

قالوا له يا شايب سلم	راك خسارة في العدمان
قال للهم راه تقولوها	توجع بوسالف ريان
كملته عمرى وفخارى	وايش عليا في العدمان

وهنا فاطمة في متخيلها الشعري الحواري تتمثل موقف عمر المختار، ردّاً واثقاً ومواجهة شجاعة، لشيخ طاعن في السن (شايب)، قدم له العدو كل المغريات من ثراء ونعم رفاهية، فيقذف بكل ذلك، ويختار مواجهة مصيره

بشجاعة المنتصر (كملته عمري وفخاري).

شاعرة المعتقل

في المكان المعبر عن القيد الموحش والعزل المميت، بمعسكرات الإبادة المزرية: سلوق، والمقرنون، والأبيار، والعقلية، ما سجن بها الآلاف من العائلات، برزت شاعرة بمعتقل البريقة، هي أم الخير عبد الدايم العوكلي (1885- 1965م)، وفي سجلها الشعري نصوص تتناول أكثر من موضوع لحقبة المقاومة والنضال الليبي، تصف هنا وقائع التغريبة من وإلى المعتقلات، لحظة واقعة من تلقاء أوامر الترحيل إلى المعتقل الذي تم عبر البحر، ومن اللافت أن نظمها يتمركز على وضعية النساء، وهن يُسقن إلى معتقلات التعذيب والموت، إذ السلطة الإيطالية تعاقب العائلات بتهمة تقديم العون للمقاومين:

فياتنا نوضن من جبلهن، أو طايب هلهن، او خشن الدزایر،
وفاتن ارحلهن فياتنا فالبحر راحلات أو متبعادات أو من خيط
خط الجبل باتلات النساء والعويله، نايات في الموج مده
طويله ايسمر جنین الرضاعة عللهن

ثم نصها، حين تقرّر القوة الإيطالية بعد سنة ونصف، مغادرة الأهالي للمعتقل، بعد أن فاضت حولهم أعداد الجثث بالمكان، وخارت قوى من تبقوا:

رادات عجالا اللي مارجا البابور عزلا
وان جن للجبل تخطر عليهم حاله

فقد الغولي والرحال الشاوي

وفي نصوصها ما يقارب في تجلياته التوثيقية لأوضاع معتقلات الإبادة، النص الشهير ”ما بي مرض غير دار العقيلة“، للشاعر رجب بوحويش وإن حصر بمدخله شكواه الذاتية وفقده رفاقه، ووصفه أحوال المكمودين داخل المعتقل، فيما تميزت عنه أم الخير بتوثيقها حال رحلة الاعتقال الما قبل والما بعد، وما يحسب لها كشجاعة مواجهة، غضبها الذي أطلقته فعلاً وقولاً في وجه مسؤول المعتقل الضابط باريلا، وقولتها الشهيرة: حكمك جاير يا باريلا، والذي وجه أوامره ضدّها بأغلظ العقوبات، والتي لم تثنّها أيضًا عن الصدّع بوجهه:

يا العفن نوريك هلنا زينين ما هم معاره
ان عاركوا ما يذلوا وان ميعدوا أهل دباره

خرابين يا وطن

الشاعرة فاطمة بن عثمان مواليد هون (1900 - 2007)، المعمرة التي عاشت قصيّتها الوحيدة إلى يومنا هذا، تفتّقت قريحتها الشعرية البكر، صبية في ربيعها العشريني، ما أنطقها مشهد صادم، حين ثبتت عينها من كوة بيتها على المشنقة التي تدلّت منها رؤوس الأبطال من رجال واحاتها في تنفيذ حكم جائر، بعد يوم معركة حامية (قارة العافية 1928)، ذاقت فيها قوة الكولونيال ”لوبيجي أماتو“ شر هزيمة، فبعد ندائها الاستهلاكي الموجع: خرابين يا وطن، تعرض توثيقاً لما أعمله الاستعمار من آليات الإبادة لأصحاب الأرض، تصف حالهم محاصرين فأيُّ خيار؟ المشنقة أو

القتال، هم في أتون سياسة الأرض المحروقة، الإعدام بالمحاكم الصورية، وسياجات الأسلام المكهربة، كما بالنفي والتهجير إلى جزر الموت الإيطالية، ومعتقلات الإبادة التي كانت سجناً تحاصر فيها وتعاقب العائلات دون ذنب، ويجوس فيها المرض والموت الجماعي.

ورغم فجيعة اللحظة، وهي تصف الفظاعات المرتكبة من موقع حدث الإعدام، إلا إنها تناجي الله مشفوعة بأمل النصر القادم، والغلبة التي سيحققها المجاهدون:

ندهت يا رب الهاشمية، جيب الغولي، في يوم مبروك يخلص سوالى
يباتن مطاويخ رووس الكفر تحت النعالى هاناك يزهى ويطمان بالي

مقاومات بال موقف الوطني

ردد عنها مجاليوها شجاعتها المفارقة، فمع صغر سنها تلميذة، وجّهت خديجة الجهمي (1921-1996) رسالتها إلى زعيم إيطاليا الفاشية ”موسيليني“، أرسلتها إلى مجلة ليبيا المchorورة، كتبت له قائمة: ”احتلالك لبلادي غير صحيح، ولا بد لك أن تفك لترك ليبيا لأهلها، وإلا سيأتي يوم سيكون تراب بلدي جحيناً على إيطاليا“، وقد تعرض والدها، عامل المطبعة لجريدة ”بريد برقة“، الشاعر الشعبي عبدالله الجهمي من سيورتها نظم الشعر الغنائي، للمساءلة الأمنية من قبل مكتب الاستعلامات الإيطالي، وغادر إلى مصر على عجل إثر تلك المضايقات. عاشت خديجة في صباها تجارب مريمة قوّتها، وألقت بأثرها في نهجها الحمال روح المغامرة وشغف المبادرة، إذ عاصرت صبية عشرينية في مدينتها بنغازي أجواء الحرب

العالمية الثانية، مهدّدة وفي الخطر بين وابل الغارات وفعل المتفجرات، وفي محاولة النجاة نزحت وأهلها مع من التحفوا الخيام بأطراف المدينة معتقدين أنهم في مأمن، فعملت ممّرضة متطلّعة تتنقل بين بيوت فئات هشة تداوي مرضها بما تعلّمته من مبادئ طبية، و المعارف تشرّبتها بعين المحبة للتعلم، من ممرضة الحي الأرمنية جيجا. كما خاطت الأثواب من مظلات الطائرات الحربية لتوفّر المال لعيشها وأسرتها، تقول في سيرتها: "أنا خديجة الجهمي" التي دوّنتها عنها الأديبة أسماء الأسطى:

"لم يكن هناك قماش، لكن المظلات التي تسقطها الطائرات في الحرب الدائرة، وهي من نسج الحرير الطبيعي وتحاط بشكل دائري، أوحّت بالحل، فلم يكن من الصعب فتق الخياطة الأصلية وإعدادها قطعاً من القماش، كما كنت أصبّغها بالألوان... فصار لدى الكثير من المال الذي لا يحقّق أي شيء، ففي السابق الألف فرانك يمكن للمرء بها شراء منزل، إلا إنه في زمن الحرب لا يأتي برغيف خبزاً".

أما أصيلة المدينة القديمة (زنقة الدروج) طرابلس، زكية شعنان (1896-1977)، خريجة المدرسة الراشيدية المربيّة ورائدة التعليم أول القرن العشرين، فحين ضربت طائرات الإنجليز بقنابلها بيتها، لم تتوقف عن انشغالها بتعليم البنات وهي معلمة اللغة العربية، كنّ تلميذات وأعدادهن قليلة من غالبن الظروف وسياقات المرحلة، زكية واجهت أجواء تلك الحرب، في سنها الأربعيني، حتى و منها كومة من الأنقاض، حسب شهادتها في مقابلة صحفية معها (مع الصحافي محمود أبوظهير- جريدة الشعب- 8 ربيع الأول 1392هـ/ 1972م).

فيما واجهت زعيمة النهضة النسوية، حميدة العنيزي (1892-1982) صلف المستعمر الإيطالي بتدخلاته الملزمة في مناهج المدارس، وفرضه اللغة الإيطالية، وبعون مجاليتها بدعة فليفلة، قامت بتسريب المنهج المصري، وجعلت من أول مدرسة خاصة أسستها ببيتها عام 1917، والتي غالبيتها بنات عائلات قريبة، وبنات الجارات، مركزاً لتلقي العلوم، والتربية الإسلامية باللغة العربية، حميدة من ستتعهد برعايتها وجهدها الأهلي المدني الفئات الهشة من الفتيات وتقيهن ذل الحاجة والعوز.

قبل وبعد

واصلت الليبيات نهج المقاومة والنضال، هن حواريات أم الخير، وفاطمة بن عثمان، ومبروكة العلاقية، وغيرهن ممن غيّبن عن توثيق حكاياهن، من طالتهن أحكام الإعدام، وفجّرتهن الألغام، ومؤنّن كمداً جراء التحرش والعنف الجنسي، ومن جرى نفيهن رفقة عائلاتهن. مناضلات اليوم، يناهضن الاستبداد والطغيان بكل أشكاله، طالبات جامعيي بنغازي وطرابلس، منهن أول سجينية سياسية ثمانينيات القرن المنصرم فاطمة التايب. لم يهبن مواجهة قوى التطرف، وقوى الهيمنة والإقصاء للفعل النسووي الحر، البرلمانية فريحة البركاوي، والحقوقية سلوى بوعقيص، والناشطة المدنية انتصار الحصائر، والإذاعية نصيّب كرنافة.

وقبل وبعد يُدرس تاريخ النضال بتغيّب طرف أصيل فيه، وتكتب سردية المقاومة دونهن، سنتطلّع إلى عُملة ليبية تحمل صورة مناضلات مقاومات، وإلى سير تعريفية بهن في قائمة مفردات مناهجنا تطالعها الأجيال،

أسماؤهن تزين بفخر أعلى جدران شوارعنا، وواجهات مؤسسات، أم سنظل
نطالع سردية تاريخ وطني أبطالها من الذكور، وبلا عدالة وإنصاف تبقى
فيها مدونة النساء المناضلات في مدار الصمت والتغييب عن مؤسسات
حفظ الذاكرة الوطنية!

حسام الثنبي

مُرايف عليهم خاطري ولهان

حسام الثنبي

”يا خوي يا مشكاي“، بهذه الجملة الرقيقة، من خلف قضبان زنزانة موحشة في حضيض المنفى، ينادي ”الشلماني“ أخاه الطائر، وهو طائر اختار أن يش��و إليه قسوة السجّان، ومراة شوقة إلى الأهل، و يجعله مرسألاً يخبر عمن مات من رفاقه في السجن.

كانت المحكمة الإيطالية عام 1914، قد أدانت ”فضيل حسين الشلماني“ (1877 – 1952)، ومجموعة من رفاقه في قضية تواصل مع المقاومين الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي، حُكِم عليه بالسجن مدة 30 سنة، قضى منها سبعاً مع رفاق محته المنسية، في سجن سيء السمعة في المنفى الإيطالي بجزيرة ”فافينيانا“، قبل أن يشملهم عفو عام صدر من ملك إيطاليا، في 1921.

في السجن الإيطالي كتب الشلماني بعاطفة باللغة الرقة، قصائد مشحونة بالشوق والإحساس العميق بالألم والظلم القاتم، قصائد ما زلت أحسبها لم تُكتَشَف بعد:

يا طير يا طيّار يا حايم السّما
يا اللي خلق لك ربّنا جنحان
تعال هنا نُشكِّي لك عليّ حال ما جرى
راني غَرَّيب وانت م الحبّان

يا خُويْ يا مَسْكَاي راخْ لوطننا
بلغ سلامي والسلام أمان.

كثيراً ما تحضر ثيمة "الرياف" في نص الشلمني، وهي واحدة من أكثر عبارات الحنين في الشرق الليبي دفءاً؛ يعني "الرياف" الاشتياق الممزوج بفطرة الرقة، "مُرَايَفْ عَلَيْهِمْ خَاطِرِي وَلَهَانْ". بيت الشلمني "ريافه" إلى الوطن، والأهل، والجيران، يبُثُّ ريافه إلى "جيران الجيران"، وكلابهم، وحتى "الذيب في الوديان"، يبُثُّه إلى الذي "يلحظ النار من بعيد"، وإلى تفاصيل الحياة في موطن مولده وصباه "البطنان"، وأغلبظن أنه قد اعتُقل وهو أب لطفل حديث الولادة، أو أنه قد ترك خلفه زوجةً حُبلى، وهو ما يمكن تحسسه في بيت يحلم فيه بلحظة عودته إلى أهله:

ونَقْلَعْ رِيَافَ وَلَيْدَ
شَوْقَه بِيَ
وَنُخَبَّرَ عَلَى مَادِيرْ فِي وَصَارَ.

الثابت أن الشلمني كان قد تزوج بنواحي بلدة "قمينس" سنة 1914، وهو ما ثبّنته لجنة جمع التراث في "ديوان الشعر الشعبي"، الصادر عن منشورات جامعة قاريونس 1989. كان الشاعر قد هاجر إلى "قمينس" نزوحاً من الجفاف الذي أصاب موطنه في "المرصص" (أو في رواية أخرى قصد قمينس لاسترجاع إبله التي صادرتها السلطات الإيطالية). والمرصص قرية تقع على ضواحي طبرق، وكان الشلمني قد ولد بها، وتعلم القراءة والكتابة وعلوم الفقه وحفظ القرآن في زاويتها، وعمل في الرعي، والفلاحة،

التي نجدها في عذب شعره:
ويا هل فلاحه
في وطا السماحه
لَيُشْ فِي عَلَوِي
وَلَيُشْ فِي وَدِيَان
فِي وَسْطِ بَرَقَه
حَامِلِينَ الْطَّرَقَه
سُمَاحَ الْوَتَانَه
بَرَهَ وَفِي الْحِيشَانَ.

خَبَرُ الشَّلْمَانِيِّ مَحْتَنِيْنَ مِنْ عَظَائِمِ مَحْنِ جَيْلِهِ (الْمَعْتَقَلَاتُ فِي الْمَنْفِيِّ الإِيطَالِيِّ)، وَ(الْمَعْتَقَلَاتُ الْجَمَاعِيَّةُ فِي بَرَقَه)؛ إِذَا كَانَ قَدْ عَاشَ التَّجَرِبَتَيْنِ الْمَرِيرَتَيْنِ، فَبَعْدِ إِطْلَاقِ سَرَاحَهُ مِنْ سَجْنِهِ الْأَوَّلِ، وَعُودَتِهِ مِنَ الْمَنْفِيِّ إِلَى لَيْبِيَا، وَبَعْدِ سَبْعِ سَنَوَاتٍ أَوْ ثَمَانٍ، أَنْشَأَتُ السُّلْطَاتُ الإِيطَالِيَّةُ مَعْتَقَلَاتَهَا الشَّهِيرَهُ 1929 تَقْرِيَّبًا، وَشَرَعَتْ فِي سَوقِ الْأَهَالِيِّ قَسْرًا إِلَى مَعْسَكَرَاتِ اعْتَقَالِ جَمَاعِيِّ فِي الصَّحَرَاءِ، كَانَ الشَّلْمَانِيِّ مِنْ بَيْنِ أُولَئِكَ الَّذِينَ اعْتَقَلُوا مَعَ عَائِلَاتِهِمْ فِي (خَبَسِ الْمَقْرُونِ)، حِيثُ قُضِيَ فِيهِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، فِي ظَرُوفَ إِنْسَانِيَّهُ سَيِّهَهُ جَدًّا، بَعِيَّدًا عَنْ زَوْجَتِهِ "الْعَبِيدِيَّهُ" الَّتِي سُجِّنَتْ فِي (خَبَسِ الْعَقِيلَهُ)، وَالَّتِي لَقِيتْ فِيهِ حَتْفَهَا رَمِيًّا بِالرَّصَاصِ مَعَ أَخِيهَا، إِثْرَ مَحاوَلَهُ هَرَبَ فَاشِلَهُ.

أَمَّا عَنْ قَصَّهُ اعْتَقَالَهُ الْأَوَّلُ، وَنَفِيَهُ إِلَى السُّجَنِ الإِيطَالِيِّ، فَيَحْكِيُ فَتَرَهُ تَقْهِيرَ الْجَيْشِ الإِيطَالِيِّ أَمَّا مِنْ "الْأَدَوارِ" الْلَّيْبِيَّهُ، وَارْتِفَاعَ مَعْنَوَيَاتِ الْمَقاوِمَهُ

وحماس الشعراء، أخذ الناس يتبادلون الرسائل الشعرية التي تحمل أخبار انتصاراتهم، مع أقاربهم وأصدقائهم في المناطق المحتلة، واتُّفق أن كانت ”قمينس“ يومها تحت السيطرة الإيطالية، وأن أحد أبناء عمومه الشاعر، وهو أحد رفاقه في المقاومة أيضًا، ويعرف باسم ”نويجي“؛ كان قد أرسل رسالة إلى ابن عمه الشلماني، مع رجل لقبه ”العرفي“، وكان ”العرفي“ أحد الذين يتربّدون على قمينس لغرض التجارة، ولم يكن يعرف ”الشلماني“ شخصيًّا، ولا فحوى الرسالة، ولسوء حظ المرسال والمُرسَل إليه، فقد ضبطت دورية تفتيش إيطالية تلك الرسالة، وفُيض ظلماً على حاملها الذي كان يجهل محتواها، وعلى الشلماني أيضًا، وأودع السجن في بنغازي، في زنزانة واحدة، وفُيّدا في قيد حديدي واحد، وكانت هذه المحنة فرصة ليعرف كلُّ منهما الآخر، قبل أن يُرخَّلا إلى الجزر الإيطالية:

يَا نَا الِي طَابَنِ الْيَوْمِ يَدِيَ
وَرَاحَنْ تَقُولُ مَحَرَّقَاتِ بُنَارِ
بَابُورَهُمْ عَيَّطِ
يَحْذَرُ فِيَّ
نَوْيِ شَيْلَنَا مِنْ وَطَئَنَا الْعَقَارِ.

ولعلَّ حادثة أسر المرسال المظلوم ”العرفي“؛ قد حَرَّت في نفس الشلماني، وأشعرته بتأنيب ضمير، إذ إنه قد تسَبَّب دون قصد في كربه العظيم، وربما كانت قصيده ”والقلوب شفاقه“ بمثابة اعتذار شفيف وتعزية لرفيقه، وهي قصيدة يُقرُّ فيها لـ”قرينه“ العRFي بعظيم حضوره ومواساته، وأنه يراه رفيقه الوحيد في كربته:

مُفِيتِ رَوْلِ وَاحِدٍ
مَا مُعَايِرٌ رَفَاقَه
مَقْرُونٌ فِي
وَيَحْنَنُ تَقُولُ عَدِيدٍ
فِي حَجْفٍ ضَيْقٍ
زَارَنِي طَاقَه
وَمِنْ الْعَصْرِ يَاتُونِي بِقَفلِ حَدِيدٍ
وَتَبَقِي مَطْوَحٍ
شَبَهَهُ الشَّلْفَاقَه
لَا عِنْدَ لَمْبَاكَرٍ
وَهُوَ فِي لِيدٍ.

وهي القصيدة التي على ما فيها من رقة ولين، يعود فيها ويصب جام سخطه على الطليان وأعوانهم، آملاً في زوال حكمهم:
تَنِئُ يَقْطَعُ الْطَّلْلَانَ وَاللَّقَاقَه
الَّلِي كَمَلُوا لَسْلَامَ بِالْتَّحْشِيدِ
يَكْمَلُ كَلَامِي رَبِّنَا بِاصْدَاقَه
وَيَحْيِي حُكْمَهُمْ مِنْ وَطْنَنَا تَحْيِيدِ.

لقد كتب الشلماني بحرارة دمه شعراً صافياً عن الشوق والحنون والمودة، كتب عن الدماثة والتعاطف، والصبر في مكافحة المشقة، فيما ناهض الظلم والإهانة والجوع والعرى والإذلال رافضاً الانكسار، وحين تجلّت في شعره مراة العجز والضعف؛ نطق نبوءته على طريقة عَرَافٍ:

بُجاه من قَرُوا في الحزب
وَانْعِيشِيه

وَقَامُوا صَلَادَه بُوضُو في لَفْجَار
سَلَطَ عَلَيْهِمْ جَيْشَ بَرَانَيَه
بَقْوَه وَتَاهُ ما يَعْرُفُوا لَهُ كَار.

تُوْفَّيَ في "الأَبْيَار"، وَدُفِنَ بِهَا. إِنَّهُ الشَّلْمَانِي، إِلَّا إِنَّهُ الْإِنْسَانُ الْمُظْلُومُ الَّذِي يَفِيضُ
شِعرَه رَقَّه وَعَذُوبَه، مِنْ كَتَبِ ذَاتِ يَوْمٍ، قَبْلَ مِئَةِ عَامٍ:

يَا عَزِّ ضَيْفِ اللَّهِ
فِي الْكَرْبِ وَالرَّخَا
يَا بُو فَرِيقًا يَشْبَعُ الْجَيْعَانَ.
مِنْ غَيْرِ رِبِّنَا
مَا لِي كَرِيمًا نَطَّلْبُه
صَاحِبُ الْعَطَا وَالْجُود
عِنْ إِلَّا إِنْسَانَ
يَا تِي بْعَفُو عَمُومَ
يُطْلِقُ سَجْنَنَا

وَيَفْرَجُ عَلَى الْلِّي خَاطِرُه مَلِيَان١

1 كلية الآداب، لجنة جمع التراث، ديوان الشعر الشعبي، ط2، منشورات جامعة قاربونس، بنغازي 1989.

2 يونس فتوش، الهمالي شعيب، ديوان الشاعر المجاهد فضيل حسين الشلمني- شاعر معتقل فافينيان، ط1، مكتبة التراث الشعبي، سلسلة الدواوين، بنغازي 2001.

ميثاق الحرّابي

خلال حقبة تجاوزت ثلاثة عقود، استعمرت فيها إيطاليا ليبيا، نَكَلت القوة الاستعمارية بأبناء الشعب الليبي، ومارست فظائع قتل وترويع ونصب مشانق لمعارضيها، وأنشأت معتقلات الإبادة الجماعية التي أودت، حسب تقديرات بحثية، بحياة ثلث سكان إقليم برقة تقريباً. طوال تلك الفترة التي واجه فيها الليبيون القوة الغازية، أجبر العديد من الليبيين على الانضمام إلى عسكر إيطاليا، وانضم آخرون بحماس كبير، فاقتتل الليبيون فيما بينهم، وأعلنت قطاعات من بعض القبائل، وأحياناً قبائل بأكملها ولاءها للفاشية، وتكونت كتائب ليبية تابعة لإيطاليا لسحق المقاومة الليبية، وتورّط العديد منهم في جرائم إعدام إخوانهم الليبيين، فيما استولى بعضهم على ممتلكات مواطنיהם بالباطل. انتهى الاستعمار الإيطالي بدخول قوات الحلفاء التي كان من ضمنها قوات محلية قاتلت تحت لواء الجيش السنوسي.

بعد رحيل الاستعمار الإيطالي، بدا الوضع مرتباً في ليبيا، ويات على الليبيين التعامل مع تركة ثقيلة من الأحقاد والرغبة في الانتقام، في غياب دولة مؤسسات، أو حتى حكومة موحّدة تجيد التعامل مع تلك التحديات بالغة الصعوبة. وبينما كانت البلاد على مشارف حرب أهلية طاحنة، سعى بعض حكمائها ذوي الخبرة الاجتماعية الطويلة في حل النزاعات، إلى توحيد الكلمة باتجاه المصالحة ونبذ الصراع، والتكاتف نحو مطلب (الاستقلال)، بوصفه القضية الأولى التي تقتضيها المصالحة الوطنية، راضيين أية تصرّفات فردية أو جماعية من شأنها التشویش على المصالحة الوطنية.

فَكُلُّ المُسْعى بِالمِيَاثِقِ الْوُطْنِيِّ الَّذِي أَبْرَمْتُهُ الْهَيْئَةُ التَّأْسِيسِيَّةُ بِمَدِينَةِ بَنْغَازِيِّ بِمُوافَقَةِ الْوَفْدِ الدَّرْنَاوِيِّ بِالنِّيَابَةِ عَنِ الْمِنْطَقَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَالَّذِي تَمَّ حُضُورُهُ عَنْهُ (مِيَاثِقُ الْحَرَابِيِّ) الشَّهِيرُ تَلْبِيَّةً لِنَدَاءِ الْأَمِيرِ إِدْرِيسِ السَّنُوْسِيِّ، وَالَّذِي نَقْدَمُ نَصَّهُ هُنَا:

نص ميثاق الحرابي

”بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ“

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيْمًا.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا نَحْنُ عُمَدُ وَمَشَايِخُ قَبَائِلِ الْحَرَابِيِّ وَأَعْيَانِ مَدِينَةِ دَرْنَةِ الْمُجَتَمِعِينَ فِي الْمَؤْتَمِرِ الْوُطْنِيِّ الْمُنْعَدِ بِمَرْكَزِ جَمِيعَةِ عُمُرِ الْمُخْتَارِ بَدْرَنَةِ، يَوْمِ الْخَمِيسِ 15 جَمَادِيُّ الْأُولَى 1365 هَجَرِيِّ، الْمُوَافَقُ 18 أَبْرِيلَ 1946 مَهْرَبَ الْمُوقَفِ الْحَاضِرِ قَدْ قَرَرْنَا مَا يَأْتِي:

أَوْلًا: إِقْرَارُ المِيَاثِقِ الْوُطْنِيِّ الَّذِي أَبْرَمْتُهُ الْهَيْئَةُ التَّأْسِيسِيَّةُ بِمَدِينَةِ بَنْغَازِيِّ بِمُوافَقَةِ الْوَفْدِ الدَّرْنَاوِيِّ بِالنِّيَابَةِ عَنِ الْمِنْطَقَةِ لِبِيَّا الشَّرْقِيَّةِ.

ثَانِيًّا: عَمَلًا بِنَدَاءِ سُمُوِّ الْأَمِيرِ الْمُعْظَمِ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ إِدْرِيسِ الْمَهْدِيِّ السَّنُوْسِيِّ نَتَعَهَّدُ جَمِيعَنَا بِإِيقَافِ كُلِّ خُصُومَةٍ وَكُلِّ نِزَاعٍ مَهْمَا كَانَ نُوْعُهُ فِيمَا بَيْنَنَا، فَلَا نَسْمَحُ بِإِثَارَةِ فَتْنَةِ قَدِيمَةٍ أَوْ جَدِيدَةٍ، وَلَا نَسْمَحُ بِالْمَطَالِبَ بِحَقِّ قَدِيمٍ، سَوَاءَ كَانَ ثَأْرًا أَوْ دِيَةً قَتْلَ أَوْ جَرْحَ أَوْ حَقَّاً عَقَارِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، رَغْبَةً مَنَا فِي جَمْعِ الْكَلْمَةِ وَتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ وَتَوْحِيدِ الْمَجَهُودَاتِ وَتَوْجِيهِهَا مَتَّصَافَرَةً مُتَّحِدةً إِلَى قَضِيَّةِ الْبَلَادِ السِّيَاسِيَّةِ وَحَدَّهَا حَتَّى يَتَقَرَّرُ مَصِيرُ الْبَلَادِ وَتَؤَسِّسَ

فيها حكومة وطنية وتنظم أمورها وتستقر أحوالها.

ثالثاً: عندئذٍ فقط يجوز لكل صاحب حق مشروع أن يطالب بحقه بالوسائل المشروعة وبواسطة حكومة البلاد الشرعية.

رابعاً: ليس معنى هذا التعهد أننا ندعو أصحاب الحقوق إلى التنازل عن حقوقهم ولكننا نطالبهم بإيقاف المطالبة بها موقتاً ليتفرغوا للمطالبة بحق الأمة العام الذي له من الأهمية الكبرى ما يجعله أحق بالتقديم على حقوق الأفراد والعائلات والقبائل.

خامسًا: كل من يخالف هذا التعهد يعُد معرقلًا لمساعي الأمة ومتبنِّها لجهادها الذي نرجو أن يكُلُّ بالنجاح التام في إحراز الحرية والاستقلال إن شاء الله.



مثل ميثاق الحرabi وثيقة ملهمة للعديد من المثقفين الليبيين، واستُحضرَ خلال فترة الصراع المسلح الذي جرى بين أطراف متعددة في ليبيا في السنوات الأخيرة، حيث بدا مصدراً ملهمًا للعمل السياسي الجماعي الذي يحكم العقل ويرسخ المصلحة العامة فوق المصالح الجهوية والقبلية والشخصية. كتبت المحللة زهراء لنقي:

كان جوهر ميثاق (الحرabi) إرجاء تسوية المنازعات المحلية على مستوى العلاقة بين الأفراد والقبائل والمدن حتى قيام الدولة، وقد تضمن ذلك تأكيد عدم سقوط حقوق الأفراد موضوع تلك المنازعات. ويعُد الميثاق تجسيداً لفكرة إعطاء الأولوية للمصلحة العامة ولعدم بناء المجتمع والدولة على

المصلحة الخاصة، الجهوية والفردية. وقد كان الميثاق حجر الزاوية الذي ارتكزت عليه جهود صياغة دستور دائم للبلاد بعد ذلك ببضعة أعوام.

هذا التوافق هو الذي جعل المجتمع الدولي يدرك أنه لا يمكنه المضي قدماً في جحد حق ليبيا في تأسيس دولتها، فصدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 289 في 21 تشرين الثاني / نوفمبر 1949 الذي تضمن الاعتراف باستقلال ليبيا، والذي جاء توبجاً لتفاوض دبلوماسي وضغوطات وإقناع. وفي 1951، انطلقت أول عملية دستورية باشرتها جمعية وطنية (هيئة تأسيسية)، لينتظم الليبيون كمجتمع وطني تُسيّر شؤونه دولة تدار وفق نظام ملكي اتحادي، واستند اجتماعها السياسي إلى "عقد اجتماعي" (دستور) تمخضت عنه عملية توافقية. وقد ضمّت الجمعية الوطنية التي باشرت العملية الدستورية ممثلين عن قوى المجتمع، وعقدت اجتماعاتها بحرية وصاغت مسودة للدستور. وجرى إقرار الدستور في بنغازي في 7 تشرين الأول / أكتوبر 1951 وتقديمه للملك قبل نشره بالجريدة الرسمية، كما أُعلن الاستقلال الرسمي في 24 كانون الأول / ديسمبر 1951.¹

ويضيف الشاعر سالم العوكبي في مقال عن ميثاق الحراري أن "ورقة واحدة كانت كفيلة بأن توقف نهراً من الدماء، وأن تجعل هذا الشعب ينال استقلاله الذي كان شبه مستحيل، وأن يبني دولته التي اعتبرها الكثير من المحللين في ذاك الوقت معجزة، والمفارقة أن أغلب الموقعين على هذه الورقة وقعوا ب بصمة إيهامهم (كانوا أميين).. وكانت الحكمة هبة العقل وحصيلة التجربة،

1 الزهراء لنقي، "تجاهل الموروث الدستوري في ليبيا"، السفير العربي، بيروت، 26/4/2018.
<https://assafirarabi.com/ar/21044>
/تجاهل-الموروث-الدستوري-في-ليبيا/2018/04/26/

وروحًا سامية تنبذ العنف والحق والإنصاء كطريق إلى المستقبل.

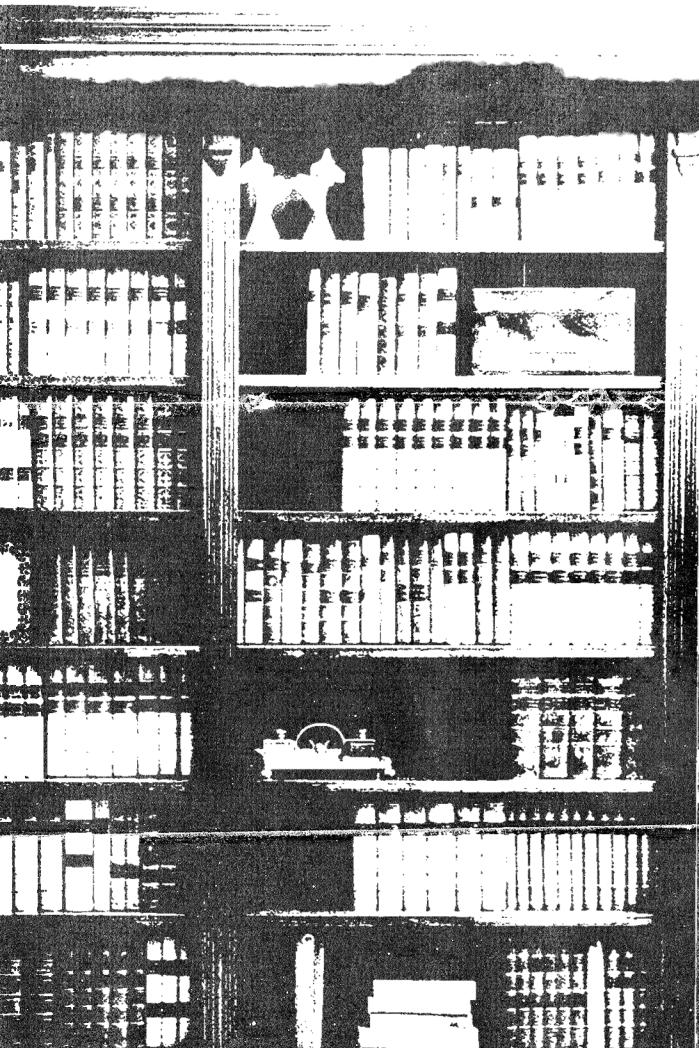
بعد هذا الميثاق لم تسجل حالة اعتداء أو اغتصاب للحق، باليد، رغم أن الجراح كانت ما زالت مفتوحة. احترم الجميع الميثاق، على أن تؤجل المطالبة بالحقوق حتى يتقرر مصير البلاد وتستقر أحوالها، ولأن الصلح والمسامحة كانا من ضمن كوابن الشخصية الليبية، لم تكتظ المحاكم بعد قيام الدولة، فكان النسيان وصفة التقدم، وكان الشعار الذي رفعه الميثاق (تحتات على ما فات) هو حكمة الليبيين آنذاك ليمضوا قدماً.

طُويت الصفحة المظلمة، ونظر الليبيون إلى الأمام، فنانوا أول استقلال دولة تقره منظمة الأمم المتحدة، والوطنيون الذين كافحوا من أجل نيل الاستقلال عمل معظمهم ضمن كادر الإدارة الإيطالية وتعلّموا في مدارسها، لأن الوطنية والتزاهة لا تقيسها لجنة، ولا يحدّدها محّررُون أقيمت دولة ليبية، ورغم كل الارتباكات، فإنها حقّقت في زمن قياسي إنجازات مهمة، تصلح كدروس لمفاهيم مثل النهضة والتنمية والمواطنة ودولة القانون، ولو فكر أجدادنا، كما نفكر الآن، في تصفية الحسابات الماضية، لما استقلت ليبيا، ولا قامت دولتها.

كم نحن الآن في حاجة إلى ميثاق ليبي شامل، كميثاق الحراري، الممهور ببصمات أنامل أجدادنا، التي تظهر كزهور أنبات في ذلك الوقت العصيّ عن بزوغ ربيع ليبي.²

2 سالم العوكلي، "كم نحن أحفاد بؤساء لأجداد عظام!!" بوابة الوسط، 2014/8/23
<https://alwasat.ly/news/opinions/30065?author=1>

قراءات



العساكر وذاكرتهم: مساران للحياة بين ليبيا وإيطاليا^١

أنطونيو إم مورون

ترجمة: خالد المطاوع

Antonio M. Morone. "Gli ascari e la loro memoria: due traiettorie di vita tra Libia e Italia." *Meridiana*, 2022, No. 104 (2022), pp. 219-240.

١. مقدمة

في عام 1911، وجد سكان المقاطعات العثمانية في طرابلس وفزان وبرقة أنفسهم يواجهون غزواً عسكرياً من قبل مملكة إيطاليا، من خلال حرب أعلنتها على الباب العالي. أرادت إيطاليا من هذا الغزو إعادة إطلاق مشروعها الاستعماري بنحت مستعمرة في البحر الأبيض المتوسط بعد هزيمتها في معركة "عدوة"، عام 1896 في شرق أفريقيا التي نتج عنها تجميد أولى مبادراتها الاستعمارية بين البحر الأحمر والمحيط الهندي. بعد عام من غزو ليبيا، أي في 1912، تفاوضت إيطاليا مع العثمانيين على معاهدة سلام أدت إلى تنزيلهم عن مقاطعاتهم في شمال أفريقيا، ولكن

١ ملاحظة المترجم: صدر هذا المقال بمطبوعة "ميريديانا" في عددها رقم 104، عام 2022 Antonio M. Morone. "Gli ascari e la loro memoria: due traiettorie di vita tra Libia e Italia."

Meridiana, 2022, No. 104 (2022), pp. 219-240.

الحرب لم تنتهِ بالفعل، وسرعان ما تحولت من صراع بين دولتين إلى صراع بين المجاهدين الليبيين والجنود الإيطاليين. بين عامي 1931 و1932، تمكّنت القوات الإيطالية من إخماد الجهاد الليبي ولكن بتكلفة عالية جدًا، قدرها عشرين عاماً من الحرب والعنف وجرائم الحرب وألاف القتلى، لم يتردّد الإيطاليون فيها باستخدام القصف الجوي والأسلحة الكيماوية، مثل الغازات الاختناق، ضد المدنيين والمقاومة الليبية، وكذلك حجز عشرات الآلاف من الرجال والنساء وكبار السن والأطفال في معسّرات الاعتقال. استخدمت حكومة إيطاليا الاعتقال والقمع في "جميع مستعمراتها" منذ نهاية القرن التاسع عشر، ولكن النظام الفاشي الذي أخذ زمام الحكم عام 1922 "حول الحبس إلى اعتقال جماعي شامل"، مدرّغاً أن ذلك قد يؤدّي إلى مقتل الرعایا المسجونين.² أما من وجهة نظر الذين حاربوا الاستعمار، فقد كانت المقاومة ضد إيطاليا جهاداً قبل كل شيء، أي صراعاً ذات دلالة دينية واضحة، لأن الاحتلال الإيطالي عَرَضَ أولوية الإسلام للخطر، وجعل مجتمع المؤمنين المسلمين عرضة لأن يكون تحت سلطة سياسية وحكومية غير مسلمة.

إن إعادة بناء تاريخ حرب الفترة الاستعمارية في ليبيا، كما حدّدها نيكولا لابانكا،³ في إشارة إلى التسلسل الزمني من 1911 إلى 1931، كانت بلا شك موضعًا للمحو ولإعادة الصياغة، من قبل الجانبين الإيطالي والليبي. في الجانب الإيطالي، بدءاً من فترة ما بعد الحرب الثانية، فقد رافقت

2 N. Labanca, *Italian colonial Internment, in Italian Colonialism*, eds. R. Ben-Ghiat and M. Fuller, Palgrave MacMillan, New York 2005, p. 30.

3 N. Labanca, *La guerra italiana per la Libia 1911-1931*, il Mulino, Bologna 2012.

جهود كتابة تاريخ إيطاليا الاستعماري أطروحة تسعى لمحو الذاكرة العامة عموماً، وحتى اليوم نجد أنه من الصعب استرداد هذه الذاكرة وزعزعة النسيان الذي صاحبها، على الرغم من البحوث العديدة التي تم نشرها بزخم متزايد منذ السبعينيات. كانت كتابة التاريخ الاستعماري الإيطالي انتقائية، حيث تم توجيه المنهج المَحْوِي بشكل خاص نحو جرائم الحرب والعنف الذي ارتكبه جيش الاستعمار، كما صاحب ذلك تحويل تدريجي وترسيب منهج لرواية تقدم تاريخ الاستعمار الإيطالي على أنه إيجابي ونزيه.⁴ أما على الجانب الليبي فقد كان العنف وجرائم الحرب التي ارتكبها الجيش الإيطالي هي ركيزة البحث التاريخي المنهجي، لا سيما بدءاً من السبعينيات، وصاحبها هذا الجهد اتهام سياسي لم يستبعد طلب التعويضات الاقتصادية، وفي الوقت نفسه صبغت صياغة تاريخ المقاومة ضد إيطاليا نبرة قومية عالية تم توظيفها أيديولوجياً في بناء دولة ليبيا القومية المستقلة. رافق التركيز الذي وُضِعَ على تسجيل تاريخ المقاومة الليبيين محاولة محو الدور الذي لعبه العساكر⁵، أي المجندين الليبيين، الذين خدموا في القوات الاستعمارية الإيطالية ضد الليبيين الآخرين.

4 A.M. Morone, *La fine del colonialismo italiano. Politica, società memorie, Le Monnier*, Firenze 2018.

5 ملاحظة المترجم: كلمة عسكري: Ascari/Askri استخدمت القوى الاستعمارية الأوروبية في أفريقيا (الإنجليزية والفرنسية والإيطالية وحتى الألمانية) كلمة "عسكري" (عربية الأصل ولكنها تستخدم أيضاً في الصومالية والسوادلية) للإشارة إلى الجنود المحليين الذين يخدمون في الوحدات العسكرية الاستعمارية في بلدانهم الأصلية، وأيضاً مع الجيوش الاستعمارية في حروبها في مستعمرات أخرى وكذلك حروب أخرى، كما جرى في استعمال فرنسا للعساكر السنغاليين والجزائريين، وكذلك بريطانيا للجنود الهنود في الحرب العالمية الثانية. في هذا المقال نستعمل مصطلح "عسكري" و"عساكر" بهذا التصنيف بالذات لوصف الجنود غير الأوروبيين من أبناء المستعمرات الذين جُنّدوا في الخدمة العسكرية الإيطالية.

السبب الواضح جدًا الذي يفسّر مثل هذه الإزالة يكمن على وجه التحديد في التفسير القومي لتلك الرواية، فإذا كانت الحرب ضد إيطاليا وحدّت الشعب الليبي ضد الاستعمار، فإن قصة العساكر لا يمكن إزاحتها لكونها مجرد انشقاق أو خيانة، وتبقى في النهاية، ذاكرة مقلقة.

في الآونة الأخيرة يبدو أن السنوات المربكة التي أعقبت سقوط الجماهيرية في عام 2011 قد أتاحت فرصةً لمساءلة سبل التاريخ السابقة، وجعلت من الممكن تخيل تاريخ ليبية الاستعماري بشكل أكثر تركيباً، يحتوي تعددية مفاهيمية لها أبعاد جغرافية واجتماعية، إذ إن الدراسات الحديثة المخصصة للفترة الملكية في ليبيا وللأقلية اللغوية تشهد على ذلك.⁶ حتى تاريخ المتعاونين مع السلطة الاستعمارية، أي تاريخ أولئك الذين شاركوا عضوياً في المشروع الاستعماري، يمكن اعتباره مساهمة مفيدة لجس النموذج القومي المتبعان؛ القصد هنا هو استعادة تاريخ اجتماعي مركب، والتغلب على التبسيط القطعي الذي يحتوي فقط معذين إيطاليين ومقاومين ليبيين، وبالتالي تعزز هذه المقالة التركيز على علاقة المتعاونين⁷ الليبيين مع القوة الاستعمارية، دون ادعاء استنفاد كل جوانبها، ولكن من خلال تقديم دراسة لحالتين من المتعاونين السابقين تم لقاوهما في طرابلس في عام 2009، في إطار التعاون العلمي مع المركز الليبي

6 للحصول على ملخصات دقيقة لأحدث المنشورات، راجع:

A. Baldinetti, "Shifting Perceptions of Shared History in Post-Independence Libya," in *Afrique e Oriente*, 3, 2018, pp. 31-7.

7 لوصف علاقة العساكر الليبيين بالاستعمار الإيطالي يستعمل المؤلف كلمتي: *intermediari* وكذلك *intermediazione* الكلمتان تعنيان "الوسسيط" و"الواسطة"، ولكننا وجدناهما غير معتبرتين حقيقةً عن هذا الدور الذي لعبه العساكر في المرحلة الاستعمارية، ولذا فضلنا مصطلحي المتعاونين والتعاون بدلاً من الوساطة والواسطة.

للمحفوظات والدراسات التاريخية، والذي سأبلغ المزيد عنه فيما بعد، علماً أن ما نستنجه من هذين الحالتين، اللتين احتفظنا بسرية هويتهما، أضيف إليهما مصادر أرشيفية إيطالية أخرى. الحالتان اللتان التقى بهما هما عسكريان قدماً خدمتهما في أفريقيا وإيطاليا، ويفكك اختلاف مسار حياتهما أن ظاهرة التعاون مع المستعمر كانت مركبة ومتعددة الجوانب. يمثل الشخص الأول الذي التقى به نموذجاً من المتعاون الذي أعاد تدوير مهاراته كعسكري في إيطاليا في خدمة المحتل الإنجليزي الجديد في أعقاب هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية، ويمثل الشخص الثاني استراتيجية مختلفة تهدف إلى التعاون مع الإيطاليين في موطنهم، أي في إيطاليا، حتى استقلال بلده الأصلي، ليبيا.

2. أسباب المحو

ظهرت أسباب المحو التاريخي في السياقات الما-بعد-استعمارية الجديدة، في ليبيا كما في أماكن أخرى في أفريقيا، مع الحاجة إلى بناء تاريخ وطني جديد يضع التاريخ "الشفوي" جانباً، ولو أنه كان يضمن بقاء معرفة الماضي ونقله من جيل إلى جيل قبل الاحتلال الاستعماري، كما أن فكرة الأمة، باعتبارها بناءً اجتماعياً حديثاً مصدره أوروبا (والاستعمار)، استلزم أيضاً اللجوء إلى أدوات سياسية وثقافية جديدة.

في ذلك الوقت كان ينظر إلى التاريخ الشفوي المحلي، على أنه تقليدي، غير مهني، وغير علمي، كما أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين، استجابت جهود تأريخية متعددة لحاجة الشعوب الأفريقية إلى صقل هوية مجتمعاتها والدفاع عنها في مواجهة التحدي الذي شَكَّله أوروبا والغزو الاستعماري المتحفز. من هنا، يمكننا أن نتحدث عن بداية كتابة تاريخ أفريقي، تم إنتاجه من خلال نسج تقاليد معرفية متعددة، بعضها من أصل أفريقي وبعضها مستمد من العلاقة مع أوروبا؛ تاريخ يحاكي السياق الأفريقي الذي ينتمي إليه المؤلفون الأفارقة أنفسهم.⁸ في سنوات الاستقلال وفي خضم التخلُّص من التركة الاستعمارية، تم تحويل هذا النوع من صياغة التاريخ بشكل تدريجي، وعلى المدى المتوسط تم استبداله، بمارسات أخرى ربطت الأساليب التاريخية التي تم استيرادها من الغرب مع مشروع بناء الأمة والمؤسسات السياسية والثقافية للأنظمة التي خلفت الاستعمار وقادتها الذين تولوا زمام الحكم في بلادهم، وبهذا المعنى تم الجمع بين الكتابة الحرفية للتاريخ في أفريقيا، من خلال إضفاء الطابع المؤسسي للمعرفة الأكademie، مع صياغة التاريخ بشكل مسيَّس يتنا gamm مع المشروع الوطني القائم في البلاد، وقد شمل ليبيا أيضًا هذا النمط في كتابة التاريخ.

كل من سي إدريس السنوسي، أمير الحركة السنوسية وعاهل ليبيا الملكية ابتداءً من عام 1951، ومعمر القذافي، زعيم ليبيا من 1969: 2011، استخدما سردية الجهاد ضد الإيطاليين لبناء التاريخ الوطني الليبي، وإن بفكرين مختلفتين لمفهوم الأمة خلال الفترة الملكية، ويرجع ذلك إلى

8 D. Peterson, G. Macola, Introduction: Homespun Historiography and the Academic Profession, in Recasting the past. History writing and political work in modern Africa, eds. Idd., Ohio U.P., Athens 2009, pp. 1-28.

وضع إدريس السنوسي زعيماً دينياً حتى قبل أن يكون زعيماً سياسياً، كان مفهوم الأمة الليبية يعتمد على انتماها إلى الأمة الإسلامية الكبرى، أما عمر القذافي فقد عمل على تحويل مفهوم الأمة الليبية إلى كيان عروبي قومي، ووجه مسار التاريخ العضوي لثورته المستوحة من الاشتراكية بحيث يكون سرداً عربياً وحدوياً يضع النضال ضد الاستعمار الإيطالي حجر الأساس في عملية بناء التاريخ الوطني الليبي، ومع هذا التوجه تراجع التفسير السابق للمقاومة للاستعمار باعتبارها مرتبطاً بشكل جوهري بالإسلام وبالحركة السنوسية⁹، ولتعزيز التاريخ الوطني الليبي، والحفاظ عليه، تم تأسيس مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي في عام 1978، ثم تم تعديل اسمه إلى "مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية"، حيث اكتسب تاريخ المقاومة ضد الاحتلال الاستعماري مركبة لا يمكن إنكارها ضمن أجندته بحثية كانت في الواقع أوسع من ذلك.¹⁰ أطلق المركز، من بين مبادرات أخرى، حملة متيرة للإعجاب لجمع المصادر الشفوية التي ركزت على ذكريات المجاهدين الليبيين الذين شاركوا في الصراع ضد إيطاليا، مع تجنب ذكر تاريخ المجندين الليبيين الآخرين مثل العساكر كممثلين للاختلاف القائم بين الليبيين خلال مقاومتهم لإيطاليا. أصبح المركز مستودعاً فعلياً لعقيدة تاريخية وطنية وثورية، كما أن نظام القذافي حدد بشدة توفير واستخدام المصادر الأرشيفية وقام بتخزين معظمها في

9 Baldinetti, *Shifting Perceptions of Shared History* cit., pp. 27-9.

10 G. Chiauzzi, *Il Centro di Studi libico in Tripoli e il seminario .Libia. Storia e Rivoluzione.*, in «Africa», 36, 1981, pp. 137-42.

قلعة طرابلس، لأنها يمكن أن تكون "أداة لنشر وجهة نظر المستعمر"¹¹، كما انتهى الأمر بتدمير محفوظات أخرى لأنها كانت تعد خطرة سياسياً، إذ إن مجرد الإغلاق عليها لم يكن كافياً، وهذا ما آل إليه أرشيف معهد الدراسات الإسلامية في البيضاء الذي تأسس عام 1963 في عهد إدريس السنوسي، وكذلك سجل الملكيات لمنطقة طرابلس، ضمن مصادر أخرى تم إعدامها.

الوضع في إيطاليا لم يختلف كثيراً عن ليبيا، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية والأرشيف التاريخي لوزارة أفريقيا الإيطالية (ASMAI) تم احتجازه كرهينة من قبل لجنة توثيق العمل الإيطالي في أفريقيا¹²، وباتت مصادر تاريخ الاحتلال الاستعماري ولibia المعاصرة حكراً على مؤسسة علمية وثقافة واحدة وفي نطاق محصور جدًّا، ما أسهم في تكوين قناعة عن التاريخ الإيطالي الاستعماري غارقة في الإنكار.

في جميع الحالات تقريباً، في تاريخ الحرب الاستعمارية في ليبيا، لم يجد الليبيون الذين اختاروا التعاون مع الاستعمار الإيطالي مكاناً واعترافاً بهم في التاريخ، فقد كان يُنظر إليهم على أنهם منحرفون وليسوا طرفاً آخر من صراع ليبي- ليبي. وفي التاريخ الليبي المعاصر تم التقليل من دوافع "المتأطلينين" (أولئك الذين ذهبوا إلى جانب الإيطاليين) بأنهم منحرفون

11 F. Di Pasquale, *La memoria senza archivio. Processi identitari e fonti archivistiche in Libia (1952-2011)*, in «Afriche e Orienti», 19, 2017, p. 40.

12 راجع A.M. Morone, *I custodi della memoria. Il Comitato per la documentazione dell'opera dell'Italia in Africa*, in «Zapruder. Rivista di storia della conflittualità sociale», 23, settembre/dicembre, 2010, pp. 24-38; M. Lenci, *Dalla storia coloniale alla storia dell'Africa*, in «Africa», 2, 2003, pp. 207-18.

عديم الأخلاق،¹³ دون النظر في السياق الاجتماعي والإشكاليات الواقعية لدعافهم. على وجه الخصوص، كانت هناك شبكات تجارية ورأسمالية في المدن الساحلية رأت الاستعمار كوسيلة لزيادة قوتها وثروتها، وبالمثل فإن العديد من المسؤولين الذين وجدوا أنفسهم من دون عمل مع رحيل العثمانيين، كانوا على استعداد للتعاون مع الإيطاليين للحفاظ على مواقعهم الإدارية. يتجلّى إنكار دور العساكر بوضوح في رصد الأضرار التي سبّبها الاستعمار الإيطالي في ليبيا. في مقال نُشر في كتاب جماعي حول الحروب الفاشية الاستعمارية، حرّره أنجيلاو ديل بوكا،¹⁴ كتب المؤرخ محمد الجراري، مدير المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، تقييماً لأضرار الاستعمار الإيطالي على ليبيا، وأصرّ قبل كل شيء على أن الاستعمار «عن قصد وبدون مبرّر قتل الآلاف من الليبيين في مسخرات الاعتقال والسجون»¹⁵، وذكر أن «5867 شهيداً شنقاً أو سجناً»، وأن «2538 ليبيًّا فقط تم تجنيدهم للخدمة مع الجيوش المحتلة أو كموظفين لتحقيق أهداف القوى الأجنبية»¹⁶. من المؤكد أن مثل هذا التفسير يقلل من تقدير الأرقام الحقيقة، إذا اعتبرنا أنه في الحرب الإيطالية الإثيوبية الثانية، وفي عام 1935 وحده تم إرسال 8000 عسكري ليبي للقتال في

13 A. A. Ahmida, State and Class Formation and Collaboration in Colonial Libya, in Italian Colonialism, eds. R. Ben-Ghiat and M. Fuller, Palgrave MacMillan, New York 2005, p. 64.

14 A. Del Boca, I crimini del colonialismo fascista, in Le guerre coloniali del fascismo, a cura di Id., Laterza, Roma-Bari 2008, pp. 232-55.

15 M.T. Jerary, I danni causati alla Libia dal colonialismo fascista (documentazione del punto di vista libico), in Le guerre coloniali del fascismo, a cura di A. del Boca, Laterza, Roma-Bari 2008, p. 398.

16 Ivi, p. 395.

إثيوبيا¹⁷. لم يكن الأمر مجرد إخفاء لقصة المتعاونين وتقليل عددهم، بل وصفهم بأنهم مُدانون للاستعمار تم تجنيدهم عنوة بدون أي رغبة منهم. في حين أن الواقع، كما ينبعق من المصادر الشفوية المقدمة في هذا المقال، كان متعدد الأوجه وأكثر تعقيداً.

كان الإيطاليون هم أول من بدأ بتكثيم تاريخ العساكر خلال الفترة الاستعمارية وفي العقود التالية، ما سهل الاستمرار على هذا المنوال. رأى المؤرخون الاستعماريون أن وجود عساكر من الشعوب المستعمرة ضمن الجيش الإيطالي أمر محرج¹⁸، وذلك لأنه في السرد الاستعماري كان ينبغي أن يكون هؤلاء العساكر مجرد خدم مخلصين تابعين للقوة الاستعمارية التي جسّدها الضباط الإيطاليون البواسل الذين لا ينبغي أن يُسرق المشهد منهم. في منظور الدعاية الاستعمارية، كانت رواية شجاعة وبطولة المستعمر لا بد أن تسود على الرغم من إخلاص رعاياه من العساكر الذين في الحقيقة قدّموا جهداً أعظم في الحرب وضحّوا بحياتهم بنسبة أعلى من الجنود الإيطاليين. بعد نهاية الاستعمار الإيطالي ومع بداية السبعينيات تم توحيد منهج التاريخ بشكل حاسم فيما يتعلق بالهيمنة السابقة على أفريقيا، ما أدى إلى دراسة ديناميات الحرب والعنف والجرائم المرتبطة بالاستعمار بشكل أكبر، ولكن مع ذلك بقي التاريخ الاجتماعي

17 G. Rochat, *Le guerre italiane 1935-1943: dall'impero d'Etiopia alla disfatta*, Einaudi, Torino 2005, p. 42.

18 N. Labanca, *In marcia verso Adua*, Einaudi, Torino 1993, p. 223.

للعساكر مهمّشاً.¹⁹

تبع ذلك تغيير خجول في كتابة تاريخ العساكر في ليبيا عام 2008، وهو نفس العام الذي تم فيه توقيع معاهدة الصداقة الإيطالية الليبية للشراكة والتعاون في بنغازي، وعلى الرغم من أن الاتفاقية ركّزت على أهداف سياسية واقتصادية محددة للغاية، فإنها كانت في الواقع اتفاقاً تاريخياً، إذ تضمنّت مقدمة الاتفاقية اعترافاً بـ"الحقبة المؤلمة من الماضي"، وـ"المعاناة التي تكبّدها الشعب الليبي خلال وبعد الاستعمار الإيطالي"، وكان رئيس وزراء إيطاليا آنذاك، سيلفيو بيرلسكوني، هو الذي قدم هذا الاعتراف بذنب الاستعمار الإيطالي. نتج عن الاتفاق نقل المحفوظات الليبية غير المتاحة سابقاً إلى مقر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، والذي تمت إعادة تسميته لـ"المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية".

إعادة تنظيم أنشطة المركز وترتيب أرشيفه، لم تؤدّ للأسف إلى الانفتاح العام للمصادر حتى الآن، ولكن إدارة المركز أطلقت حملة لتجميع مصادر شفوية جديدة، فُصّد بها هذه المرة تسجيل ذكريات العساكر الليبيين.

19 للحصول على ملخص للتاريخ عن حالة الحرب الاستعمارية الإيطالية في ليبيا انظر: Labanca, La guerra italiana per la Libia cit. On the theme of askaris in particular, see: N. Arielli, Colonial Soldiers in Italian Counter-insurgency. Operations in Libya, 1922-32, en «British Journal for Military History», 1, 2015, pp. 47-66; C. Sirianni, VI Battaglione libico. Diario della campagna di Etiopia (1936-1937), a cura di O. De Napoli, Viella, Roma 2016; A.M. Morone, Nuovi e vecchi intermediari libici tra ingerenze esterne e spinte nazionaliste, en La fine del colonialismo. Politica, società e memorie, a cura di Id., Le Monnier, Firenze 2018, pp. 31-59; A. Volterra, Askaris and the Great War. Colonial Troops Recruited in Libya for the War but Never Sent to the Austrian Front, in The First World War from Tripoli to Addis Ababa (1911-1924), eds. S. Bekele, U.C. Dirar, A. Volterra and M. Zaccaria, OpenEdition Books, Addis Ababa 2018, <https://books.openedition.org/cfee/1400>.

انقطع عمل هذه الحملة عند اندلاع الصراع المدني في ليبيا عام 2011، ولم يتم تنظيم المواد التي تم جمعها، سواء من حيث الفهرسة أو الدراسة. لهذا السبب، لا يمكنني أن أستطلع أو أقدر النتائج التي وصل إليها زملائي الليبيون في هذا الموضوع، فقط أُوْتُّقُ أنه سُمِحَ لي بالمشاركة بشكل مستقل في جلسة تسجيل جرت في 3 نوفمبر 2009، نتج عنها إجراء المقابلتين اللتين تناقشهما هذه المقالة. أجريت المقابلتين باللغة الإيطالية لأن الشخصين الذين تم مقابلتهما أرادا التحدث بالإيطالية، أولاً لإثبات معرفتهما باللغة والثقافة الإيطالية، ثانياً لإظهار تعاطفهم مع الباحثين الإيطاليين الذين كانوا يحاورنها. في التعامل مع الأشخاص الذين قدمهم المركز، كان للكاتب الحرية في اختيار شاهدين مختلفين على أساس الأصل الجغرافي والفئة العمرية والخبرة الخدمية، كما سُمِحَ للكاتب وضع الخطوط العريضة للمقابلات دون أي تدخل من المركز مما ضَمِّنَ له استقلالية كاملة في البحث. تم تسجيل المقابلتين بالفيديو، واستغرقت كل مقابلة حوالي ساعة من الوقت.

3. ملامح التعاون

من وجهة نظر منهجية، تمثل ظاهرة التعاون أحد المفاتيح المحتملة لفهم المجتمع الاستعماري عموماً، وليس الإيطالي بالأخص: ردود الأفعال للاستعمار تتضمن التكيف والتجاوب والتدبر في المزايا الحقيقية التي قد يتحصل عليها المستعمر [...، فمن ضمن الشعوب المستعمرة انحاز

بعض الناس إلى السلطة الاستعمارية، ولهذا السبب لا يمكن تحليل الظاهرة الاستعمارية كعملية أحادية الخط ومتجانسة داخلية²⁰.

هؤلاء الأفراد المتعاونون أو (في كثير من الأحيان) مجموعات كاملة أو فئات اجتماعية، قاموا بوظائف أسلهمت في إنشاء وإدارة النظام الاستعماري؛ كما أنهم لم يفعلوا ذلك من موقف الخضوع ولكن لمتابعة مصالحهم من خلال استراتيجية التعاون، للحفاظ أو الحصول على موقع في السلطة السياسية الجديدة، أو للحفاظ أو تعزيز مكانتهم الاجتماعية ووضعيتهم الاقتصادية في السياق الاستعماري²¹. إن مفهوم المتعاون يعُد ويحتجز الفصل الصارم بين المستعمر والمستعمَر، وبين المواطنين والرعايا، وذلك لأن المتعاونين الذين ”قايضوا“ توافقهم مع القوة المهيمنة بشرط معينة، باتوا أشخاصاً فاعلين في المجتمع الاستعماري²²، وبالمثل فإن هذا المفهوم يقلب توصيف المتعاونين على أنهم مجرد عمال، أو أسوأ من ذلك، أنهم كانوا منفذين بسطاء للسلطة الاستعمارية.

لم يكن التعاون أبداً وببساطة علاقة رعايا ومستعمرٍ، ولكن كان دائماً، بشكل مباشر أو غير مباشر، علاقة مع الأشخاص المستعمرٍ الآخرين، وكما كان وضع المتعاونين يستلزم علاقة مميزة مع القوة الاستعمارية تطلب

20 I. Taddia, Il silenzio dei colonizzati e il lavoro dello storico: oralità e scrittura nell’Africa italiana, in *Le guerre coloniali del fascismo*, a cura di A. del Boca, Laterza, Roma-Bari 2008, p. 512.

21 B.N. Lawrence, E.L. Osborn, R.L. Roberts, *Intermediaries, Interpreters, and Clerks: African Employees in the Making of Colonial Africa*, University of Wisconsin Press, Madison 2006.

22 R. Robinson, *Non-European Foundations of European Imperialism: Sketch for a Theory of Collaboration*, in *Studies in the Theory of Imperialism*, eds. R. Owen and R.B. Sutcliffe, Longman, London 1972, pp. 128-51.

أيضاً أن يكونوا متفوقين على المستعمررين الآخرين. شارك هؤلاء الأفارقة المتعاونون في الإدارة الاستعمارية كموظفي في الأجهزة الإدارية التي أنشأتها القوة الاستعمارية، أو واصلوا أدوارهم في المؤسسات التي كانت موجودة قبل الاستعمار، أو مراكزهم الاجتماعية التقليدية التي تم الاعتراف بها ودمجها داخل الإدارة الجديدة، بالإضافة إلى القادة، وهكذا تم تعريفهم بشكل عام، كان هناك متعاونون آخرون في الشؤون الثقافية واللغوية، مثل المترجمين الغوريين؛ وفي الشؤون الاقتصادية التجار والمهنيين؛ وأخيراً، المتعاونين العسكريين الذين بدون مشاركتهم ما كان لأي دولة أوروبية أن تخوض أي حرب استعمارية في المقام الأول.

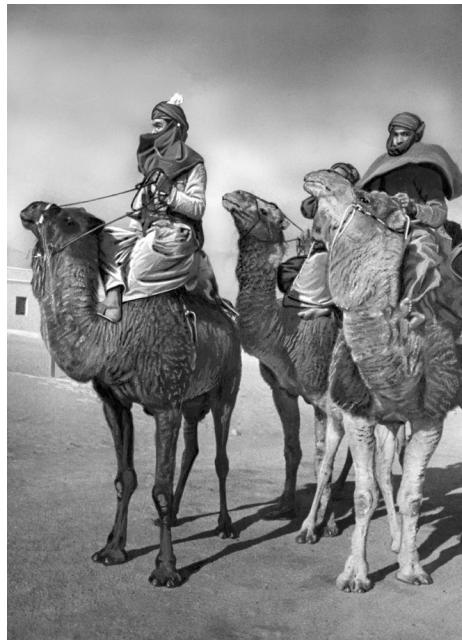
كانت أهمية العساكر لتاريخ التوسيع الاستعماري الإيطالي أعظم من غيره، إذ إن تاريخ الاستعمار الإيطالي تخلّل سلسلة من الحروب والعمليات العسكرية دون انقطاع من عام 1882 حتى الحرب العالمية الثانية، بعد أول حرب أفريقية خاضتها إيطاليا ضد الدولة الإثيوبية وعاهلها مينيليك الثاني والهزيمة التي نالتها في معركة "عدوة" في عام 1896، استخدمت إيطاليا العساكر لتوحيد وجودها الاستعماري الضعيف الذي ظل في إريتريا والصومال. كان دور العساكر حاسماً في الحرب الإيطالية في ليبيا من 1911 إلى 1932، وفي الوقت نفسه للدفاع عن الممتلكات الإيطالية على سواحل شبه الجزيرة الصومالية في الفترة بين 1899 و1920، وبخاصةً ضد جهاد السيد محمد عبد الله حسن الذي تمركز في وادي نوجال، وحارب القوات البريطانية والإيطالية والإثيوبية هناك. أيضاً في الصومال، قام حاكم المستعمرة، دي فيكي (De Vecchi)، أحد الرباعي القيادي في المسيرة على روما وشخصية

رائدة في النظام الفاشي)، في عام 1924 بإعادة تنظيم القوى الاستعمارية من خلال إنشاء كيان اسمه “زابتي” (Zaptié)²³ في الصومال الإيطالية وفيق اسمه دوبات (Dubat)²⁴، بقصد التحضير لحرب جديدة. من أكتوبر 1925 إلى فبراير 1927، غزت قوات دي فيكي ممميتين مستقلتين في شمال الصومال، هوبيو وماجرتين، اللتين أنشئتا في عام 1889، ودمجتهما مع مقاطعة بنادر في مستعمرة الصومال الإيطالية. بعدها ساد الهدوء ليبيا والصومال، عادت إيطاليا إلى أهدافها التوسعية في إثيوبيا. حرب إيطاليا الإثيوبية الثانية التي اندلعت عام 1935، بلغت ذروتها بإعلان إمبراطورية شرق أفريقيا الإيطالية، إلا إن المقاومة المسلحة الإثيوبية لم تتوّقف، إذ بقيت أجزاء من إثيوبيا خارج الهيمنة الإيطالية حتى سقوط الحكم الإيطالي تماماً في شرق أفريقيا في عام 1941 تحت تقدّم القوات البريطانية والكومونولث. في حرب ليبية، لم يتم توظيف عساكر الليبيين فحسب، بل تم أيضًا جلب عساكر من القرن الأفريقي الذين عملوا مع القوات الاستعمارية الملكية في إريتريا، كما يتضح ذلك عبر تاريخ الكتيبة الإريترية التي تناوبت في التمركز في الجبهة الليبية لعدة سنوات؛ بنفس الطريقة التي تم بها توظيف عساكر ليبيين في الحرب ضد إثيوبيا²⁵. استخدمت إيطاليا استراتيجية التناوب هذه للتقليل من إمكانية التمرد ضمن العساكر؛ كانت الفكرة الأساسية هي الفصل

23 ملاحظة للمترجم: “زابتي” هي التسمية الممنوحة لوحدات الدرك التي كونتها إيطاليا في مستعمراتها في ليبيا وإريتريا وأرض الصومال بين عامي 1889 و1943.

24 ملاحظة للمترجم: “دوبات” هو الاسم الممنوح لأعضاء الفرق المسلحة غير المنظمة التي استخدمها الفيلق الملكي للقوات الاستعمارية الإيطالي في الصومال الإيطالية من عام 1924 إلى عام 1941. تم اشتغال كلمة Dubat من عبارة صومالية تعني “العماقم البيضاء”.

25 M. Zaccaria, Anch’io per la tua bandiera. Il V battaglione ascani in missione sul fronte libico (1912), Giorgio Pozzi Editore, Ravenna 2012.



زابتي، وحدات الدرك المحلية في ليبيا تحت الاستعمار الإيطالي.



سلاح الفرسان وحصن سلطنة هوبيو

العنصري والثقافي، بحيث لا تكون هناك روابط عرقية أو ثقافية بين العساكر وأهالي المناطق التي يحاربون فيها، خوفاً من هروب العساكر. في جوهرها كانت القوات الاستعمارية لا تمنح الثقة الكاملة للعساكر، وبخاصة أولئك الذين استدعوا للقتال مع السلطة الاستعمارية ضد من يشاركونهم الديانة أو أفراد نفس العشائر والمكونات الاجتماعية. لم تكن هذه السياسة تُطبق بشكل مُطلق، وكانت هناك حالات متكررة من العساكر الذين خدموا وقاتلوا في مناطقهم الأصلية. على كل حال، شَكَّلَ هؤلاء العساكر القوات التي قاتلت في الخطوط الأمامية، أكثر من الجنود الإيطاليين، ولم يقتصر الأمر تحملهم وطأة القتال، بل وقاموا بذلك بوسائل محدودة ومعدات وتدريب أقل بالمقارنة من زملائهم الإيطاليين. يكشف هذا التصرُّف عن التمييز العنصري الذي عانى منه العساكر الذين تم حصرهم في حالة خضوع مؤلمة تعرضت فيها حياتهم للخطر.

لم يكن تجنيد العساكر إلزامياً بالمعنى الصارم، على عكس تجنيد الإيطاليين. كان مواطنون (الإيطاليون) هم الوحيدون الذين فُرِضَت عليهم الخدمة العسكرية، في حين أن الليبيين وغيرهم من الرعايا المستعمرين، سُمح لهم في ظروف معينة التسجيل في القوات الاستعمارية الملكية، وبهذه الطريقة تم تأكيد الفرق في الوضعية القانونية الاجتماعية بين الجنود الإيطاليين والعساكر منذ بدء التجنيد. كانت رواتب العساكر الأفارقة أقل من رواتب الجنود الوطنيين، علاوة على ذلك، كان الحد الأقصى للرتب العسكرية التي يمكن أن يطمح إليها العسكري هو رتبة Sciumbasci، أي ما يعادل رتبة ضابط صف، وحتى بالنسبة لتكريم الأداء العسكري في ساحة القتال

كان الحد الأقصى للعسكري الأفريقي هو ميدالية فضية، إذ إن الميداليات الذهبية كانت محسورة للإيطاليين، لذلك تميّزت العلاقة بين الضباط والجنود الإيطاليين والعساكر الأفريقيبة بالأبوبية، تطابقًا لأيديولوجية المشروع الاستعماري والمهمة الحضارية المفترضة للرجل الأبيض في أفريقيا.

إذا لم يلغ التجنيد الفرق بين الرعایا ومن يحكمهم، لكنه قلل من ذلك عبر بعض المزايا الموضوعية. من المؤكد أن الحالة الاقتصادية للفرد كانت أحد أسباب التقدم للتجنيد؛ فالراتب الذي تحصل عليه العسكري مكنه من التوفير لأسرته، وبالتالي كان دافعًا مهمًا، بالإضافة إلى ذلك، وفر الجيش فوائد إضافية، مثل الملابس والأحذية والسكن والرعاية الطبية، كما أن علاقة العسكري المحلي مع الضابط الإيطالي الذي يرأسه قد توفر له اعتبارًا أكبر أو معاملة أفضل مع السلطات الإيطالية. في المجتمع الاستعماري مثلّت الخدمة العسكرية فرصة للرقي الاجتماعي؛ كونك عسكريًا أو جنديًا أو ضابطًا يعني أنك لعبت دورًا مرموقًا في المجتمع الاستعماري، حيث كان الجيش الاستعماري رمزاً مميزاً للحداثة والسلطة. هذه الفوائد الاقتصادية والاجتماعية قد تسمح لعسكري شاب بالزواج، وأن يكُون عائلة خاصة به، ولهذا السبب لم يكن من غير المأثور على الإطلاق أن ينضم شاب محظوظ بمثال والده الذي سبقه في التجنيد، ما يجعل الخدمة العسكرية ظاهرة عابرة للأجيال، وبالتالي يمكن أن تكون الألفة مع الخدمة العسكرية سبباً آخر للتجنيد، فمع امتداد فوائد الخدمة العسكرية إلى العائلات، وما ينتج عنها من التنقل الاجتماعي لمجموعات أسرية، ازدادت إمكانية التقارب من عالم المستعمر والتمازج الثقافي معه.

ما سبق تقادمه من طرح لإيجابيات التجنيد الطوعي للعساكر يجب أن ينظر إليه ضمن سياق المجتمع الاستعماري، حيث لم يكتسب الرعایا المحليون نفس الحقوق التي تتمتع مواطني الدولة الاستعمارية، علاوة على ذلك ينبغي أن لا ننفي أن السلطات الاستعمارية لجأت في بعض الحالات إلى التجنيد الإلزامي الصرف، من خلال استقطاب القادة المحليين. قام هؤلاء المتعاونون ذوو النفوذ المحلي بمهمة جلب متعاونين عساكر جدد، وبما أن السياسات الاستعمارية، بشكل مباشر أو غير مباشر، مبنية على تثبيت فروقات و هويات عنصرية من خلال تجنيد العساكر، فإن الانضمام وخيار القتال مع الجيش الاستعماري لم يصدر على الإطلاق من موقف عنصري أو ثقافي، ولكن بناء على خيارات واعية قام بها أفراد أو مجموعات.

أخيراً ترکز جُل استفادة العساكر من وضعهم العالي نسبياً في المجتمع الاستعماري في علاقتهم مع المستعمرين الآخرين. وبهذا المعنى فإن كون العسكري أداة حرب وتسليط ضد الأفارقة الآخرين، امتد إلى السياق الاجتماعي الذي جاء منه أساساً، إذ لم تقتصر ممارسة القوة والهيمنة النسبية خلال العمليات العسكرية وحدها، بل تم استنساخها أيضاً داخل المجتمع الاستعماري في العلاقات بين العساكر والمدنيين من أبناء جلدتهم، لذلك كانت الاحتجاجات والشكوى الموجهة إلى السلطات الاستعمارية من قبل المدنيين ليست فقط ضد انتهاكات الإيطاليين، ولكن على وجه التحديد ضد العساكر الذين مارسوا العنف في كثير الأحيان من أجل مكاسبهم الشخصية، واحتكروا الهيمنة ضد المدنيين بشكل يشابه التبعية والهيمنة بين المستعمرين والمستعمرين، وهكذا أسس العساكر أنفسهم كمستعمرين



اثنان من المظلويين الليبيين المنضمين للجيش الإيطالي أثناء التدريب، مايو 1941.

صغر في علاقتهم مع المدنيين، ما يدل على أن الاستعمار كان يُجذّر في المجتمعات المستعمرة الاستخدام الواسع للعنف والسلط والاستغلال، ما أدى إلى الحديث عن وجود حقيقي لنموذج "الاستبداد اللامركزي".²⁶

في أعقاب الاضطرابات التي نجمت عن الحرب العالمية الثانية في ليبيا، وجد جزء غير هين من الليبيين الذين شاركوا في المشروع الاستعماري واستفادوا منه سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، أنفسهم يشاركون في فكرة عودة إيطاليا إلى مستعمراتها، وجهزوا أنفسهم للتعاون في هذا الغرض، بينما قام جزء آخر بالتكيف والتعاون مع المحتلين البريطانيين الجدد. من وجهة نظر هذه الفئة الثانية فقد شاهدوا تغيير الجهة الحاكمة، ولكن منطق النظام الاستعماري بقي كما هو. كانت هذه قصة أحد العسكريين الذين يقدمهم هذا المقال، بينما تعاون العسكري مع الإيطاليين، ربما بطريقة غريبة، إذ قدم خدمته لإيطاليا داخل أراضيها. تشير ديناميات ووجهات النظر حول تعاون العسكري، من منطلق تحليلي، إلى التاريخ السياسي، ولكنها قبل كل شيء ترتكز على التاريخ الاجتماعي، فالتعاون بالنسبة للعسكري، هو مشروع للحرراك الاجتماعي والارتقاء الاقتصادي، سواء في الموطن الأصلي أو في بعض الحالات، من خلال الهجرة إلى إيطاليا، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل المتعاونين هم الهدف المفضل للنقد بين القوميين في سياستهم ودعایاتهم، ففي خلفية الصراع بين المستعمرات والقوميين على مستقبل المستعمرات بعد الحرب، كانت هناك أيضاً منافسة شديدة بين الأفارق لتحديد من سيقود مؤسسات الدول المستقلة في المستقبل. إذن،

26 M. Mamdani, *Citizen and subject. Contemporary Africa and the legacy of late colonialism*, James Currey, London 1996.

يجب فهم أزمة النظام الاستعماري الإيطالي بعد الحرب العالمية الثانية ودراستها ليس فقط كحالة منافسة بين مشاريع استعمارية مختلفة بين إيطاليا وإنجلترا وفرنسا، ولكن أيضًا من منظور الصراع القائم حينها بين مشاريع أفريقية مختلفة كلها تسعى نحو الارتقاء الاجتماعي. بدون شك، لم يحقق المتعاونون مع الاستعمار استعادة النظام الاستعماري، ولكنهم حفّقوا أقصى استفادة من حيز المساومة الذي ظهر بسبب الشروخ التي تكونت في هيكل الهيمنة الأوروبية، إذ كان دورهم توفير حل سائغ كبديل لمطالب القوميين، ولكن أيضًا بشروط تتطلب إصلاح النظام الاستعماري. بعد الحرب العالمية الثانية، طالب المتعاونون بنظام استعماري يخلو من سياسات الفصل العنصري التي طبّقها النظام الفاشي ويوسّس لوضعية أكثر مساواة بين الرعايا والمستعمرين.

في أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، سعت إيطاليا إلى دعم إنشاء أحزاب وجمعيات قرية منها تناهض القوى القومية، ما أتاح للعساكر إمكانية غير مسبوقة للعب دور سياسي مهم يرجح حصولهم على فوائد اجتماعية واقتصادية أعظم مما كانوا سيحصلون عليها من خلال مشاريع القوميين للاستقلال. من عام 1944 إلى عام 1949، كان العساكر من بين المحاورين الرئيسيين للسياسة الاستعمارية الإيطالية الجديدة نظرًا إلى مشاركتهم في التنظيم العسكري وولائهم المفترض للسلطة الإيطالية. الحقيقة أن إخلاص العساكر للعلم الثلاثي الألوان هو بالتأكيد إحدى أساطير الاستعمار الإيطالي العظيمة التي كانت في كثير من الأحيان تخفي حقائق تناقضها. حتى بعد الحرب العالمية الثانية، ظلت السلطات الإيطالية مخدوعة بتلك الأسطورة

التي رُرعت في أذهانهم من أمد طويل، فإذا استمرَّ بعض العساكر في تعاونهم مع إيطاليا، رفض آخرون ذلك، بل قام آخرون بالانضمام إلى المعسكر القومي في صراعه ضد إيطاليا. كانت الخدمة العسكرية النشطة قد توقفت بعد الحرب العالمية الثانية، في حين أن التزام العساكر السياسي هو الذي نما باطراد، حيث إن العساكر شَكَلُوا العمود الفقري لبعض التكوينات السياسية في ليبيا، وكذلك في المستعمرات الأخرى، إذ أيدوا الخطة الاستعمارية لإيطاليا الجمهورية. بعد فشل الجمعية العامة للأمم المتحدة في الموافقة على مقترن بيـن سفورزا²⁷ في عام 1949، فقد عساكر كثيرون صلاحيات علاقتهم بإيطاليا لأنهم غيروا موقفهم السياسي، على الأقل بشكل رسمي، من خلال قرارهم بدعم الاستقلال.

بعد عام 1949، غادر العديد من العساكر الحياة السياسية، بينما انتقل آخرون تدريجياً من حالة التعاون مع إيطاليا إلى تقارب متزايد مع الحراك القومي، ما دفعهم إلى دعم استقلال بلادهم، بل تطور الأمر إلى إنشاء جمعية من العساكر تتنافس جمعية عساكر أخرى تؤيد إيطاليا. كانت

27 ملاحظة المترجم: "مشروع بيـن سفورزا هو مشروع خطة وصاية جرت بين وزير خارجية إيطاليا كارلو سفورزا وزير خارجية بريطانيا إرنست بفرين، وفيه تم الاتفاق بين الدولتين على أن ليبيا تحصل على استقلالها بعد عشر سنوات، على أن توضع أقاليم ليبيا الثلاثة خلال هذه الفترة تحت وصاية دولية، تتولى بريطانيا الوصاية على برقة، وتتولى إيطاليا بموجبها إدارة طرابلس، وتتولى فرنسا إدارة فزان. وقدم المشروع للأمم المتحدة للتصويت عليه أمام الجمعية العامة في 17 مايو 1949، ولتمريره كان يتطلب موافقة ثلثي الأعضاء الحاضرين وعددهم 58 دولة. ونجح أحد أعضاء الوفد الليبي (د. علي نور الدين العيني) في كسب تأييد مثل دولة هايتي (اميل سان لو) لدى الأمم المتحدة، وكان صوته هو المرجح الذي أدى إلى سقوط المشروع. (المصدر مكتبة نور عن ويكيبيديا):

مشروع-بيـن-سفورزا/<https://www.noor-book.com/tag/>.

مجموعة العسكر المعارضة لإيطاليا هذه تحت قيادة محمد بيلوسي²⁸ الذي لم يكن بالنسبة للإيطاليين أكثر من عميل إنجليزي، علاوة على كونه أحد وبالفعل شرعت . المنظمين لمذبحة ضد الأقلية اليهودية في عام²⁹ 1945 جمعية العسكر هذه في تأسيس فيلق وطني عسكري ليضاف إلى برنامج استقلال ووحدة ليبيا ضمن تيار العروبة، وكجزء من الحزب القومي للكتلة كانت رؤية هذه الجمعية تعارض بشكل مضاد تماماً³⁰. الوطنية الحرة توجّه رابطة العسكر التي مؤلتها إيطاليا، ما يدل على أن التشدّد القومي فعلاً تناهى ضمن بعض الفئات التي قامت بالخدمة في الجيش الاستعماري الإيطالي، مما كان غير متوقعاً في منطق التعاون بعد الحرب العالمية الثانية.

أما بالنسبة لخدمة "الموطن الأم" (إيطاليا)، فقد رجع بعض العسكر الليبيين، أثناء الحرب وبعدها إلى سواحل شبه الجزيرة الإيطالية بعد إطلاق سراحهم من الأسر مع ضباطهم الإيطاليين. تقع هؤلاء أن الإقامة في إيطاليا -والعودة إلى العمل كعساكر إيطاليين بدون نظام استعماري- يمكن

28 ملاحظة المترجم: لم نجد أي معلومات عن محمد بيلوسي أو Mohammed Bellusi . كاتب المقال د. مورون يقول إن هناك معلومات عنه في الأرشيف التاريخي الدبلوماسي لوزارة الخارجية (ASDMAE) كما هو مذكور في المصدر اللاتيني.

29 Archivio Storico diplomatico del ministero degli Affari esteri (Asdmae), Affari politici (Ap), Ufficio (Uf.), b. 52, promemoria del Servizio informazioni militare, 12 novembre 1949.

30 نفس المصدر السابق.

31 ملاحظة المترجم: الكتلة الوطنية الحرة هي حزب سياسي ليبي تأسّس في طرابلس بتاريخ 30 مايو 1946 برئاسة علي الفقيه حسن. كانت أهداف الكتلة منصرفة إلى المطالبة باستقلال ليبيا ووحدتها وانضمامها إلى جامعة الدول العربية، وكانت منشورات الكتلة صريحة في ذلك، كما كان من مطالب الكتلة إنشاء جمعية تأسيسية للبت في تشكيل الحكومة المستقبلية. ألقى القبض على رئيس الكتلة علي الفقيه حسن وسكرتيره في 17 فبراير 1947 وأرغم على الاستقالة من قبل الإدارة البريطانية في طرابلس بتاريخ 5 أبريل 1948. (المصدر: موسوعة عريق: https://areq.net/m/الكتلة_الوطنية_الحرة.html).

أن تضمن استئناف رقיהם الاجتماعي الذي توقف خلال الحرب وهزيمة إيطاليا. في البدء تم التسامح مع وجود هؤلاء العساكر على أراضي الموطن الأأم كونه جزءاً من الدعاية السياسية لعودة إيطاليا إلى أفريقيا، ولكن كان من غير المعقول أن يترك لهؤلاء الأشخاص حرية التحرك على الأراضي الإيطالية، ولهذا وبشكل منهجي تم استدعاء هؤلاء العساكر وحصرهم في ثكناتهم.³² وجود هؤلاء العساكر في إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية كان بإمكانه أن يُضعف الحدود الاجتماعية والسياسية الصارمة التي حالت دون وصولهم إلى البلد الأأم قبل الحرب، ولكن في الواقع أدى وجودهم في إيطاليا لعرضهم لأساليب متعددة من السيطرة، والذي يوضح لنا أن العنصرية والتمييز والفكر الاستعماري عموماً ظلت توجه سياسات إيطاليا الجمهورية تجاه الأفارقة. في نهاية الأمر كان العساكر ضحايا لحملة اعتقال وترحيل قسري للبيبا في عملية خاطفة في عام 1949، بعدما بدأت إيطاليا في تغيير سياستها نحو استقلال المستعمرات. تمكّن عدد قليل جداً من العساكر من البقاء في إيطاليا، لظروف استثنائية وشخصية تماماً، لذا عندما نسرد حكاية تبادل المصالح بين النظام الاستعماري والعساكر، لا بد أن نذكر أنه في نهاية الأمر تغلّبت مصلحة المستعمر على رغبة العساكر في تجديد تعاونهم مع إيطاليا والتغلب على التحيز العنصري الذي لاقوه فيها.

32 A.M. Morone, Ascari, clandestini e meticci: mobilit. fisica e sociale nel secondo dopoguerra, in *Governare l'Oltremare. Istituzioni, funzionari e società. nel colonialismo italiano*, a cura di G. Dore et al., Carocci, Roma 2013, pp. 203-19.

4. سيرة عسكريين

إن قصّي حياة العسكريين، أحمد وعلي، اللتين تم تسجيلهما في طرابلس في عام 2009، متشابهتان من نواحٍ كثيرة فيما يتعلق بالفترة الاستعمارية، لكن اندلاع الحرب العالمية الثانية فصل مسار حياتهما تماماً: أقام أحمد لفترة طويلة نسبياً في إيطاليا، بينما شهد علي الهيمنة الإنجليزية على ليبيا طوال فترة ما بعد الحرب. حسب الهوية التي قدمها أحمد، نعلم أنه ولد في 1 يناير 1922 في غريان، جنوب طرابلس. كون يوم ميلاده الأول من يناير يدل أن ذلك تاريخاً وهميّاً: كان شائعاً الإشارة إلى 1 يناير كيوم الميلاد حين إصدار وثيقة هوية عندما يفتقر المواطن إلى شهادة رسمية تثبت يوم ميلاده. من ناحية أخرى، ولد علي في عام 1917 بالخمس، وصرح أنه لم ليس من السهل معرفة تاريخ ميلاده بشكل دقيق. أحمد وعلي تم تجنيدهما في القوات الاستعمارية في عامي 1937، و1941 تباعاً، وكان التجنيد هو الموضوع الأول الذي تم تناوله معهما. الجدير بالذكر هنا أن أبويهما سبق أن خدموا في وحدات الكارابينيري الاستعمارية، وبالتالي قد يكون هذا الإمام بوظيفة العسكري في الجيش الاستعماري عاملاً في تجنيد أحمد وعلي. في سرد حياة كليهما، في عدة مناسبات، يستشعر المرء بأنهما فخوران بمشاركتهما في الخدمة العسكرية الاستعمارية، وفخوران كذلك بخدمة أبويهما. كان علي بالذات فخوراً بالميدالية الفضية التي حصل عليها والده للبسالة العسكرية واعتبرها شرفاً يعتز به، وكانت هذه الميدالية أعلى تقدير ممكن أن يتحصل عليه مجند غير إيطالي في القوات الاستعمارية، لذلك فيمكننا أن نتصوّر أن مهنة العسكري، ولو في الجيش الاستعماري، كانت

تدل على مكانة اجتماعية مرتفعة، قبل أي مميزات اقتصادية تمنحها، ما يدل أيضًا على أنها كانت وظيفة مرغوبًا بها بحيث أنها تنتقل من الأب إلى الابن.

ومع ذلك في قصتي حياة أحمد وعلي، عندما سئلا بالضبط عن كيفية تجنيدهما، يتضح لنا أن قرارهما كان طوعيًّا، وذلك لأن الانضمام إلى الخدمة العسكرية بات تقليديًّا عائليًّا مؤثراً، ولكن لازم قرارهما ضغط من القائد المحلي الذي كان يمثل نظام الإدارة الاستعمارية في أطراف مجال سلطتها. يخبرنا أحمد أن القيادة العسكرية تواصلت معه عبر الزعيم المحلي الذي كان يدير عملية توجيه تجنيد العسكري في منطقته. يشرح أحمد:

لم يكن التزاماً حَقّاً، دعنا نُقلُّ إنه كان يمكنه أن تتجنّب التجنيد، ولكن عندما يأتي موعد معين فكان عليك تقديم نفسك إلى المديرية العسكرية. بعض الناس تطوعوا لأنهم أرادوا العمل، فلم يكن هناك فرص كثيرة للعمل، وهكذا ذهبتُ لأكون جنديًّا؛ ثم كان هناك من تم تجنيدهم قسراً.³³

الحالة الثانية، قصة علي، تؤكّد هذا الانطباع. يخبرنا علي بأنه انضم إلى القوات الاستعمارية "بأمر من الحكومة: أرسلت الحكومة خطاباً إلى الزعيم المحلي تقول إنها تريد الكثير من المتطوعين، وبذلك قام هذا الزعيم بتصيدهم، ومن كان سيصطاد؟ ابن الفقير طبعاً".³⁴ كان من الواضح أنّ بعد السياسي مرتبط أيضًا بالحالة الاقتصادية للأفراد، بحيث كانت

33 Interview with the author by Ahmad, Tripoli, November 3, 2009 (the name is fictitious).

34 Interview with the author of 'Ali, Tripoli, 3 November 2009 (the name is fictitious).

الضغوط الاجتماعية والسياسية تُمارس بشكل أعظم على الأفراد الذين كانوا في ظروف اقتصادية غير مستقرة. بالنسبة للحواfax، فقد التعاون مع القوة الاستعمارية، في هذه الحالة (الخدمة العسكرية) ييسر للتقارب مع ثقافة ونمط حياة أكثر ازدهاراً، وقبل كل شيء، التواصل باللغة الإيطالية. الجدير بالذكر أنه خلال المقابلتين، تحدث العسكريان السابقان بالإيطالية، على الرغم من أنهما لم يمارسا ذلك لسنوات عديدة. كان التحدث بالإيطالية علامة على المهارة والتميز الاجتماعي في البيئة الاستعمارية، وبالنسبة لأحمد بالذات، فقد سمح له إيطاليته الجيدة، بمجرد تجنيده، من أن يصبح رقيباً لضابط إيطالي، وبالتالي تولى منصباً ذا أهمية خاصة في الخدمة العسكرية، كما أذت المعرفة باللغة الإيطالية إلى نوع من الانتماء إلى المجتمع الإيطالي، وبرز ذلك بالتحديد، كما علق على عند بدء المقابلة، بأننا "ستتحدث بلغتنا"، كما ظهرت بوادر القرب من الإيطاليين في حديثه عن علاقته مع الضباط المشرفين عليه مصرحاً أنه كان دائمًا له "علاقات جيدة" معهم، وكذلك أنه كون صداقات مع العديد من الإيطاليين.

بعد الحرب فقدَ علي وظيفته كجندي في القوات الاستعمارية الإيطالية، ولكنه سرعان ما تحصل على نفس الوظيفة مع جهة أخرى مماثلة. في 1943 انضم علي إلى شرطة الإدارة العسكرية البريطانية (BMA) برتبة رقيب حتى استقلال ليبيا عام 1951 عندما غير مهنته ليصبح سائقاً. أظهر علي قدرة ملحوظة على التكيف مع تغيير النظام الحاكم، لكنه ظل يعتقد أن الأسياد القدامى كانوا أفضل من الجدد، لأن "الإيطاليين كانوا هنا لسنوات عديدة واختلطوا معنا. لقد كنا معًا، كان الإيطاليون أفضل من الإنجليز لأنه

كان هناك حمّالون بين أبناء الإيطاليين. أما مع الإنجليز فالأمور اختلفت وكل شيء أصبح أسوأ، لذلك فإن العلاقة الأقوى مع المستعمر الإيطالي نتجت عن القرب البدني بين المستعمر والمستعمرين في الفضاء الاستعماري، ويكون هذا قيمة اجتماعية إضافية، مقارنةً بالعلاقة مع البريطانيين الذين أثناء تجنيدهم العساكر في BMA لم ينظروا ب كثير من التعاطف نحو المتعاونين، ليس فقط العساكر، ولكن نحو جميع الذين تفاعلوا مع القوة الاستعمارية الإيطالية لفترة طويلة. أضف إلى ذلك صورة الاستعمار الإيطالي القائم على مفهوم الاستعمار الديموغرافي الذي، على الرغم من أنه كان مجرد أسطورة مفيدة لتبرئة الذات لا علاقة له بالواقع، فإنه جلب الكثير من الفقراء الإيطاليين والفقراء جدًا منهم ليشاركون الليبيين مساحات العمل، بل وفي كثير من الأحيان تنافسوا معهم للحصول على العمل، ما أدى إلى حصر الليبيين في حالة أكثر تهميشاً وخوضوعاً.

بشكل عام، تبرز حالة المجنّد العلاقة الوثيقة مع المستعمر الإيطالي، إذ كان أول ما أراد أن يقوله علي، وبتعبير دقيق وبصوت واضح، هو أن "العدو أصبح صديقاً" في إشارة واضحة إلى معاهد الصداقة والشراكة والتعاون الموقّعة في عام 2008، أي قبل عام واحد من المقابلة، حيث تحوّل "يوم الانقمام"، في خطاب نظام القذافي، إلى يوم الصداقة مع إيطاليا. خلال أربعين عاماً من حكم القذافي شابت العلاقة مع المستعمر السابق وصمة الذنب والاتهام بجرائم الحرب طبقاً لأيديولوجية القذافي القومية الثورية. خلال هذه الفترة الطويلة، كما ذكرنا، تمت إزالة ذكرى المتعاونين الليبيين بشكل منهجي من التاريخ الوطني والذاكرة الجماعية والحوار الرسمي،

ولكن مع توقيع معاهدة عام 2008، تم تنقيح العلاقات الثنائية مع إيطاليا بشكل جذري، ما مكّن الذين تم استبعادهم من سردية النظام الخروج من الظل لرواية صيغتهم من قصة الاستعمار. صرّح علي: ”لقد أصبح العدو صديقاً“، بتعاطف مع محاوره الإيطالي، ولكن المقوله قد تنطبق عليه أيضاً، هو الذي تم تهميشه لفترة طويلة في ليبيا القذافي بسبب علاقته بإيطاليا، لذلك فإن استعادة العلاقة مع إيطاليا مكّنت بعض الليبيين من استعادة مكانهم في المجتمع الليبي.

بالتأكيد لا يمكن اعتبار قصة حياة العسكري علي بعد الحرب العالمية الثانية بأنها مثل شائع بين المتعاونين، خصوصاً أولئك الذين دعموا الادعاءات الاستعمارية لجمهورية إيطاليا الجديدة وأضفوا الشرعية عليها،³⁵ وذلك لأن علي تقدم للعمل مع الشرطة الجديدة (British Military Administration BMA) التي أسسها الإنجليز وليس مع جمعية عساكر قريبة سياسياً من إيطاليا، والتي أسسها عسكري اسمه ”عبد السلام سيلابي“ بفضل «المساعدات الإيطالية السرية وعلى

35 Morone, Nuovi e vecchi intermediari cit., pp. 31-60.

36 ملاحظة المترجم: لم تجد معلومات تكفي عن المدعو Abdussalam Sellabi والذي عربنا اسمه بـ: عبد السلام سيلابي بأنه ممثل لجمعية الجنود السابقين، هذا الاسم مذكور في إحدى نشرات الأمم المتحدة الصادرة عام 1950: United Nations Bulletin, Volume 6, 1950, p. 49.

”Mr. Sellabi maintained that during the thirty years of Italian administration in Libya the welfare of the population had been a determining factor in the government's policies and that great strides had been made in every field of activity.

الترجمة: ”أكّد السيد سيلابي أنه خلال الثلاثين عاماً من الإدارة الإيطالية في ليبيا كانت رفاهية السكان عاملأ حاسماً في سياسات الحكومة، وأنه تم قطع خطوات كبيرة في كل مجالات النشاط البشري.“

الرغم من عرقلة السلطات الإنجليزية³⁷ لها، إذ تمكّن هذا العسكري القيادي عبد السلام سيلاني، من ضم حوالي 20000 من الأتباع إلى حركته مع عام 1949.³⁸ لقد اختار علي استراتيجية أكثر براغماتية، حيث تخلى عن افتراضية عودة إيطاليا وما قد يعنيه ذلك من فوائد اقتصادية واجتماعية له، مفضلاً دمج نفسه في وضع اجتماعي واقتصادي في متناول اليد من خلال الخدمة في شرطة BMA الإنجليزية، وإن كان قد "احتفظ بشعور قوي بالارتباط نحو المستعمر القديم".

قصة العسكري أحمد كانت مختلفة أيضاً. خلال الحرب تم أسره في طبرق في عام 1941 وأمضى السنوات التالية في السجن بين تونس والجزائر، وفي عام 1945 تم نقله وإطلاق سراحه مع الضباط الإيطاليين في نابولي، وكان من بين 200، ربما 250، من العسكريين والإيتريين الذين وصلوا إلى السواحل الإيطالية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان وجودهم هناك أول سلسلة هجرة على الإطلاق من أفريقيا إلى إيطاليا في العصر الحديث.³⁹ بالنسبة لهؤلاء الرعايا الأفارقة، كان هناك اعتقاد بأنهم في إيطاليا قد يجدون العمل ووضعاً اجتماعياً مناسباً ما كانوا ليحصلوا عليه

37 Asdmae, Ap. Uf. III, 1946-50, b. 52, promemoria del Servizio militare informazioni, 12 novembre 1949.

38 Asdmae, Ap. Uf. III, 1946-50, b. 52, promemoria del Servizio militare informazioni, 12 novembre 1949.

39 Morone, Ascari, clandestini e meticci cit.; Id., L'Italianità degli altri. Le migrazioni degli ex sudditi coloniali dall'Africa all'Italia, in «Altreitalie», gennaio-giugno, 50, 2015, pp. 71-86; V. Deplano, La madrepatria. una terra straniera. Libici, eritrei e somali nell'Italia del dopoguerra (1945-1960), Le Monnier, Firenze 2017; Id., Within and Outside the Nation: Former Colonial Subjects in Post-War Italy, in «Modern Italy», Nation, .Race., and Racisms in Twentieth-Century Italy, eds. V. Deplano and S. Patriarca, 23, 2018, pp. 395-410.

في ليبيا بسبب الاحتلال العسكري البريطاني. أصبحت هذه الرعايا نماذج فريدة للتعاون المباشر مع المستعمر على أراضي الوطن الأم، وبما أن المستعمرات كانت تحتلها قوى أجنبية، كان الأمل يكمن في إعادة تفعيل روابط الصلة التي شعر بها المستعمرون نحو الوطن الأم، وبشكل يوازن بين الإيطاليين والأفارقة ويرتب وضعهم على أنهم أفارقة إيطاليون، ولكن هذا الطموح اضطر إلى الاحتكاك باللعبة السياسية في إيطاليا التي اهتمت باستغلال الامتيازات السياسية والدعائية لوجود هؤلاء الأفارقة في الوطن الأم دون أن تقدم لهم وضعية اجتماعية واقتصادية مستقرة هناك.

بمجرد وصوله إلى نابولي، لم يطلب أحمد إعادته إلى ليبيا، حيث كان يحق له ذلك منذ أن أخذ كأسير حرب في طبرق، وفضل البقاء في إيطاليا: "كنت عربياً-إيطالياً لأن دولتنا لم تكن ليبيا، بل إيطاليا، وكان هذا من حظي، لأنني في غريان [بلدة ميلاده] لم أكن سأفعل أي شيء، وبدلًا عن ذلك كنت في إيطاليا، وبهذا ربحت". هذه الكلمات القليلة تكشف تجربة أحمد وتوقعاته: كان البقاء في إيطاليا قبل كل شيء اختياراً للحياة، والإقامة في الوطن الأم كانت ستتضمن استئناف العمل كجندي وما يتربّط على ذلك من دخل. إضافة إلى ذلك أن ليبيا التي احتلّها البريطانيون، والتي لم تعد مستعمرة إيطالية، انتهت فيها وظيفة العسكري، وكذلك المرجعية الثقافية والسياسية والاجتماعية التي ترعرع فيها أحمد. لم تكن ليبيا مستقلة بعد، كانت فقط رؤية مثالية محصورة بين مجموعات القوميين. ما كان موجوداً بالنسبة لمعظم ليبيا هو استعمار جديد يسيطر عليه البريطانيون، حيث إن أولئك الذين تعاونوا مع الإيطاليين لم يجدوا وضعًا يمكّنهم من الحصول

على وظائف وتوزع وضعهم الاجتماعي في بيئه متغيرة. في حالة علي فقد تمكّن من التعاون مع البريطانيين، ولكن وضع أحمد واختياره كانا مختلفين عزّره شعوره بأنه عربي-إيطالي. هذه ليست مجرد إشارة إلى الهوية التي شكلّها الاستعمار فحسب، بل أيضًا إلى الوضع القانوني الدقيق للمواطنة الليبية-العربية تحت الاستعمار الإيطالي.

في عام 1919، مع نهاية الحرب العالمية الأولى، تحكمت المقاومة الليبية في موضع إضافية بليبيا، ما أجبر الإيطاليين على العودة إلى الساحل. وعندما طرحت إيطاليا مسارًا سياسياً في مواجهة الليبيين من خلال إصدار قوانين تخصُّ طرابلس وبرقة، يصاحبها خطة لاستيعاب الرعايا الليبيين من خلال إصلاح دستوري يدفع نحو الحكم الذاتي والمشاركة في الحكومة⁴⁰، حيث تم استبدال الوضع القانوني للرعايا الليبيين بـ"المواطنة الليبية-الإيطالية"، كبديل يشمل حقوقاً مدنية مهمة وإن كان أقلّ قدراً من الجنسية الإيطالية، لكن مع ظهور الفاشية تم سحب هذه القوانين وتمرير سياسة استعمارية أخرى تخلّت عن الاستيعاب، مفضّلة التعاون بين المستعمرات والمستعمرين، وهي وضعية فرضت التمييز الصارم بين طرفي المجتمع الاستعماري، ثم في عام 1939، بالنسبة للمقاطعات الساحلية الأربع الليبية؛ طرابلس ومصراته ودرنة وبنغازي، أعلنت إيطاليا عن "المواطنة الإيطالية الخاصة" لـ"بعض الليبيين الذي يستوفون بشروط خاصة، وفي الواقع كان الهدف من هذه المواطنة" حفر خندق جديد بين سكان

40 G.P. Calchi Novati, *Amministrazione e politica indigena in Libia nella prima fase del colonialismo italiano (1911-1919)*, in «*Studi Urbinati di Scienze Giuridiche, Politiche ed Economiche*», 57-58, 41-42, 1988-89/1989-90, pp. 370-1.

الداخل وسكان المدن”⁴¹ الهدف منها استيعاب الفضاء الليبي بدلاً من سكانه، ومع ذلك وعلى الرغم من التفضيل الواضح للإيطاليين عن سكان المدن الليبيين، رأت بعض فئات المتعاونين أن في هذه المواطنة الجديدة اعتراضاً بحق التنافس على الوظائف العامة في أفريقيا الإيطالية وممارسة المهن، وبالنسبة للعساكر حمل السلاح والوصول إلى رتب أعلى في القوات الاستعمارية المتواخة لليبيا⁴².

في المرة الأولى التي رأى فيها أحمد نابولي وإيطاليا في عام 1945، ظهر المواطن الأم كأنه “أعجوبة”， وبعد إقامة وجيزة في نابولي وإعادة الاندماج في القوات المسلحة، نُقل أحمد إلى الخدمة في باليرمو بصفة حي ث كان تحت إمرة قائد الفوج الذي تعاطف مع قصته إلى حد كبير وبات “مثلاً للأب” للأحمد. في إيطاليا عاش أحمد، وفقاً لكلامه، حياة مرضية ليس فقط بالنسبة للعمل ووضعه المادي، ولكن أيضاً على المستوى الشخصي، إذ كان لأحمد العديد من الأصدقاء:

الإيطاليون لا يعرفون أنني ليبي، ويعتبرونني إيطالياً. أنا أتحدث الإيطالية بشكل جيد، هم لا يعرفون. لقد انخرطت مع فتاة جميلة لمدة ست سنوات، اسمها جوليا. كنا مخطوبين، تركتها كما كانت، عفيفة. عندما تزوجت جوليا من إيطالي، والدتها أرسلت إليّ رسالة لأنني احترمت ابنتها وهي دخلت إلى الكنيسة عذراء بفستان أبيض.

41 A.B. Bertola, *Storia e politica coloniale e dei territori non autonomi*, Giappichelli Editore, Torino 1956, p. 279.

42 Articolo 6, *Regio Decreto-Legge n. 70, 9 gennaio 1939*.

درس أحمد وحصل على الشهادة الإعدادية وعاش حياة تشبه جيرانه الإيطاليين، إلى حد أنه قام بخطوبة فتاة، ولعلَّ أهم شيء هو أنه لم يُعرف بأنه أفريقي، بل إن الإيطاليين الآخرين اعترفوا به كإيطالي.

التغيير الجذري الذي حدث في حياة أحمد كان سببه تغير في الأحوال السياسية الدولية، ضمنها استقلال ليبيا والسياسة الإيطالية الجديدة التي، بعد عام 1949، وَصَّت بإعادة جميع العساكر الذين بقوا في إيطاليا إلى بلدانهم. حينها قررَ أحمد العودة بشكل دائم إلى ليبيا عندما أصبح أجنبياً في إيطاليا وفقد وضعه كرعية استعمارية واكتسب الجنسية الليبية الجديدة تلقائياً. من ناحية أخرى، كان السعي للحصول على المواطنَة الإيطالية غير عملي من الناحية القانونية. بمجرد عودته إلى ليبيا، فكرَ أحمد "في الاستمرار كجندى، لكننى كنت أكبر سنًا من أن أكون في الجيش". انضم إلى الإدارة العامة حيث عمل أولاً في مديرية الآثار ثم في بلدية طرابلس، وعلى الرغم من أن حكاية أحمد وُضعت جانباً مثل العديد من حكايات عساكر آخرين، إلى جزء من ذاكرة الفترة الاستعمارية، بالخصوص خبرته كعسكري، سرى في عائلته إلى أولاده وأحفاده الذين انخرط العديد منهم في جيش وشرطَة ليبيا المستقلة.

5. خاتمة

سيرتاً الحياة التي تم تقديمها هنا، مع اختلافهما، تقدماً مقطعاً عرضياً بعض استراتيجيات التعاون مع القوة الاستعمارية من قبل فئة اجتماعية مهمة في تاريخ الاستعمار الإيطالي في ليبيا، وهي فئة العساكر، وكيف

تغيرت هذه الاستراتيجيات وتم تكييفها مع الوضع الدولي المتغير. في كلتا السيرتين، تظهر مركبة العلاقة مع إيطاليا والإيطاليين بشكل واضح، وأنها كانت مبنية على الحوار والتفاوض وليس على التبعية البسيطة. العلاقة مع إيطاليا لم تقتصر على وظيفة ومرتب، وبالتالي الرفاهية الاقتصادية، ولكن أيضاً تضمنت الصداقة وال العلاقات الحميمة مع الإيطاليين، من دون نكران الهيمنة والاضطهاد المرتبط بالاستعمار، ولكنه بشكل يسعى إلى تقليل جوانب تلك الهيمنة والاضطهاد عبر التعاون من السلطة الاستعمارية. بالنسبة لأحمد فـ"الاستعمار سيء. هل تحب أن تستعمر أمة أخرى؟ لا! إنه أمر سيء"، ومع ذلك لم يكن الاستعمار شيئاً فريداً ولم يكن حالة أبدية، خصوصاً إذا نظرنا خارج إطار السياسات والمؤسسات الاستعمارية، ولكن من منطلق الناس العاديين من الإيطاليين: "إذا كان الإيطالي شريراً وانضم إلى الفاشية يجب محاربته، ولكن إذا كان الإيطالي جيداً، فإنه سينضم إلى العرب، ويأكل معهم ويعمل معهم".

لذلك يمثل استقلال ليبيا نقطة تحول للحالتين اللتين تم تقديمها وتحليلهما هنا، حيث إن الاستقلال أنهى مشروع أحمد للوساطة مع المؤسسات الاستعمارية الإيطالية المتبقية في إيطاليا، وكذلك أنهى سعي علي لأن يتعاون بشكل مختلف مع المحتل البريطاني الجديد. لم يغير الاستقلال فقط مسار حياتهما، بل وبشكل نهائي وضع حدّاً لخدمتهما في القوات الأمنية. الاختيارات التي قام بها أحمد وعلى مع نهاية الاستعمار والانتقال إلى الاستقلال توضح أن قصتهما تجاوزتا ما نعرفه عن التعاون مع المستعمر، بل وتبذلان سعيهما للانطلاق في حياتهما كأفراد. في حالة

أحمد، كان اختياره الخاص هو إعادة بناء حياته وتكوين عائلة في إيطاليا، وبالنسبة لعلي فكان التحدي هو عدم مغادرة ليبيا والتكيف مع الوضع المتغير. لم يكن التعاون إذن مجرد ممارسة تهدف إلى التطابق مع النظير، بل بالأساس مشروع نمو شخصي يتحقق من خلال التعاون، ولذا ينبغي البث فيه وإن كان له بعد استعماري.

العلاقة التي تربط العساكر بذاكرتهم الخاصة فيما يتعلق بوظيفتهم كعساكر في السلطة الاستعمارية تختلف تماماً عما قيل عنهم وعن إزالتهم من الذاكرة الوطنية. في الواقع، لم يفهم كلُّ من العسكريين، علي وأحمد، سؤالاً وجه إليهما، بخصوص ما إذا كان قد قام أحد بتوبيقهما بسبب تعاونهما مع إيطاليا. من الواضح أن عدم فهم السؤال لم يكن سببه صعوبة في فهم الإيطالية، بل عن عدم القدرة على فهم مسألة إزالة العساكر من الذاكرة الليبية العامة. مما لا شك فيه، أن هذا الصمت يكشف أنه، على المستوى الشخصي، لم يكن هذان العسكريان السابقان يعيشان تحت وصمة معينة في حياتهما الخاصة، ولكن هذا الصمت يوضح أيضاً أن قصة حياتهما ظلت حقيقة خاصة بهما فقط، لدرجة أنه لم يُطلب منها سردها إلا في عام 2009. بهذا المعنى، لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أن هناك انفصلاً جلياً بين الذاكرة العامة والذكريات الخاصة. يبقى لنا أن نرى ما إذا كانت الذاكرة الخاصة في المستقبل قادرة على القيام بإجراء تصحيفي في الذاكرة العامة لإبراز إشكالية وتشابك التاريخ، سواء في فترة الاستعمار أو فترة ما بعد الاستعمار!

ليبيا خلال الاستعمار من منظور إثيوبي

سعد العشة

غيبرييسوس هايلو.

”المجنّد: رواية حبسية عن حرب ليبيا ضد الاستعمار.“

ترجمة: فرج الترهوني.

دار الفرجاني، طرابلس

2023



يستهل غيرماي نجاش مقدّمه لرواية (المجنّد) بأن ”ليس هذا هو المكان المناسب للدخول في مناقشة طويلة للكتاب، أو لتقديم سيرة موسّعة للروائي“. نجاش، كما يعرّفه فرج الترهوني، هو أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب الأفريقي يقسم اللغة الإنجليزية، ومدير برنامج الدراسات الأفريقية في جامعة أوهایو، ومؤسس قسم اللغات والآداب الإريترية بجامعة أسمرا”. الترهوني كاتب ومتّرجم ليبي نقل عن الإنجليزية رواية (المجنّد)، الصادرة في طبعتها العربية الأولى العام الفائت (دار الفرجاني). وبالعودة إلى نجاش، فقد نقل هو الآخر النص التغريني الأصلي إلى الإنجليزية لأول مرة في 2012. الروائي أخيراً هو جيبرييسوس هايلو (1906 – 1993). هذا التخيّط في التعريفات لا يبتعد كثيراً عن مالات الرواية، فبطل الرواية مجنّد حبشي في جيش الاستعمار الإيطالي، يحارب في ليبيا المستعمرة

في العقد الثاني من القرن المنصرم.

ولئن سارع نجاش في تشديده على الاقتضاب، فلن تسعنني خلفيتي الثقافية على الإمام بتحولات المؤلف وتفاصيل اللغة التغرينية التي أجهلها تماماً، على الرغم من انتماها إلى العربية في العائلة السامية الكبيرة. أقتفي إذا آثار النص كمن يجلس منصتاً إلى نبرات الحكواتي المتحول، على الرغم من احتواء الرواية أكثر من منبع إبداعي؛ فحيثما يحكى هايلو قصته شفهياً لجمهور عالمي (نتائج تراث توثيقي تغلب عليه العة والحنق والتحسر)، وحيثما يسترسل في تأملاته على نمط الإنسانية المسيحية في عصر النهضة (وهو الباحث الكاثوليكي الذي درس اللاهوت في الفاتيكان)، وحيثما يكتب بنزعة الصحفي / المثقف المناهض للاستعمار في مهده (كتُبَت الرواية في 1927 وُنشرت في 1950).

لا تشبه قصة توکابو، محور الحكاية، نظيرتها في الأدب أو التاريخ آنذاك. في تلك الحقبة، مثلاً، كتب الألماني إريك ماريا ريمارك روايته الكبرى (الوضع هادئ في الجبهة الغربية)، حيث يصطدم البطل الشاب بشناعة الحرب العالمية الأولى، وهو الذي تطوع للتورُّط فيها من أيديولوجيا قومية راسخة، إلا إن رغبة توکابو لم تنبثق من طموحات قومية، بطبع الأحوال. وفي التاريخ، يحارب إلى جانب بطلنا ليبيون من الميليشيات التي وظفتها إيطاليا في فرق أطلقت عليها *Bandas*، يساند أفرادها جيش الاستعمار بمهاراتهم ومهاراتهم في الصحراء، على أن مفهوم القتال مرتبك، فتتواءزى سيرة المجنَّد الإريتري كي لا نقل تتدخل أو تتقاطع" مع سيرة المجنَّد الليبي في محننته، وتنمايز مفاهيم الوطن والآخر كما نستدرك في متن الرواية.

ولادةٌ تصارع الموت

تحكى القصة في أقل من 70 صفحة، يبدأها هايلو بالولادة الأسطورية لـ”بطل” الرواية، إذ ينجو الفتى من موته مبكرًا كان قد طال سلفًا أشقاءه وشقيقاته الخمس، ولكي يكتمل التصوير الميثولوجي لهذه الولادة، تحلم أمه بيده مجهولة تقطع خمس زهارات وتبقي على السادسة في أول تجليات الموت المسيحية، كامنةً في المنجل القاتل الرحيم. ولتختتم هوية البطل المسيحية، يُسمى توکوابو مدهاني آليم، أي نعمة الله.

إشارتان إلى تحديات توکوابو المقبلة نقرأها مباشرةً بعد مشهد الولادة: الأولى ارتباطه الحميم بال المسلمين في قريته حين استأجرت عائلته الثرية عائلة مسلمة للاعتناء بالماشية، وينذهب هو ليرعى ماشية عائلة مسلمة أخرى. الثانية يكاد هايلو يهمس بها وسط صخب الطبيعة الموصوف، فيكتب ”في قلبه الشاب، ظل يتساءل عن سبب هروب قردة البابون أمامهما وهي الأكثر عدداً منهما، لكنه احتفظ بهذه الأفكار لنفسه“، ولعلَّ هذا السؤال هو ما يطرحه الحكواتي في ثنایا النص عن أسباب عجز المستعمر عن المقاومة.

وإثر القرع الهادر لطبول الحرب، نقرأ أن ”زعماء أحباباً“ يتولّون، ”يا إلهنا، لا تجعلنا خاملين، أرجوك أحضر لنا الحرب“. هذا السرد الصادم لا ينحو منحى أخلاقيات الحرب المعهودة، فالرغبة في الحرب هنا ليست وليدة عقب الاستعمار أو العدوان، بل متّصلة في أن ”التمرين قد يساعد على إصلاح أجسامهم المترهلة“.

الحج إلى الحرب

في وصف أسمرا، يثنى الراوي جماليًا على تحويل الإيطاليين المدينة إلى جنة ما. هنا ينطلق توکوابو مع رفقاء المجندين صوب "طرابلس"، أي ليبيا، للقتال في معركةٍ لا يعرفون عنها شيئاً. يذكرني هذا الوصف بإيمان راسخ لدى شريحة كبيرة من الليبيين: أن الاستعمار الإيطالي كان الأبغض بين إمبراطوريات أوروبا، لأن فرنسا وبريطانيا، مثلاً، خلقتا "حضارة" و"ثقافة" في المنطقة، بعكس الإيطاليين، بيد أن هايلو مدرك لهذا الفخ، فيصف مباشرةً معاملة الشرطة الوحشية للمجندين في محطة القطار المعاذرة في أولى حلقات المجاز الحيواني في الرواية، فالتشبيه بمعاملة البهائم يتغلغل في أطراف النص كافًّا.

انطلاقاً من القطار إلى السفينة، ينبعر الجنود بالبحر وسحر الترحال، وهي ظاهرة إنسانية نلاحظها في أغلب الجيوش، لا سيما جيوش الإمبراطوريات، حيث رغبة الجنود في رؤية العالم عارمة. وفي غبطة التماهي مع جمال الطبيعة، يتيقّن الجنود من التمييز الصارخ تجاههم من الضباط الإيطاليين، فها هم يتحنطون تحت نار الشمس، فيما ينعم موظفوهم ببذخ الرحلات السياحية.

يزداد الأمر تعقيداً حين ترسو السفينة في ميناء بورتسودان، فإثر العطش والقبيط، نرى التصوُّف ماثلاً في نفوس المجندين، في عبارات من قبيل "هناك ميلٌ إنساني إلى تحويل انتباه المرء عن التفكير في العطش عندما يكون محاطاً بالماء"، لكن لقاء الإريتري بجاره السوداني يكتنفه مونولوج

داخلي ملؤه الكره والترصد، فالسودانيون يفگرون: ”هؤلاء العبيد! إنهم ذاهبون إلى طرابلس من أجل المال!“، فيما يقول الإريتريون في أنفسهم: ”هؤلاء السود! لا يمكنهم أبداً أن يكونوا متفوقين علينا“. تنمّق الطبيعة كموحدة للإنسانية وتفگك الهوية الجامعة للأفريقيين عامّةً، ولشعوب شرق أفريقيا خاصةً.

تمضي السفينة في مسيرتها الرايرة جغرافيا الكتاب المقدس، ويستطرد الحكواتي في الحكي، فها هم المجندون الورعون يحيون كل معلم بإجلال: إجلال يسير معه جهل (استعارة من المعري) فـ ”لو كان بعضهم على دراية بالكتاب المقدس، لعرفوا أن معنى إريتريا هو ‘الحمراء‘، وكانوا قد فهموا أنهم موجودون الآن في البحر الأحمر، أو كانت مشاعرهم قد طفت وجاشت عواطفهم وهم يستعيدون مدح النبي موسى لعظمة الله.“.

بعد سيناء، آخر محطات الكتاب المقدس، ينهر المجندون بثقافة المصريين في السويس، في ربط يكاد يكون سورياً مع الجار العدو. قطيعة الحكواتي مع ملالات شخص الرواية، لا سيما توکابو، كامنة في أطول فصول الرواية وأكثرها تعقيداً. فهنا يعود الحكواتي ليتهكم بدون مرارة، على سذاجة المجندين المنبهرين بمقر البطريق في الإسكندرية، فيقول: ”كالمعتاد، يرگزون على جانب الخير“، ولكنهم ”يجهلون شرور بعض البطاركة الذين تم إرسالهم من المكان نفسه إلى إثيوبيا، وتسبّبوا في الكثير من الأذى للناس“، ولعل في اقتباسنا هذا يتّأثّر الجامع لـ ”متحديثين الثلاثة“، فالحكواتي يحكى / يتكلّم / يتحدث عن المجندين بسلامة وعفوية، وعالم اللاهوت الإنساني يشجب دور البطاركة في الاستعمار،

والمثقف يؤرّخ أساليب القمع التراكمية، حيث ينصلّح المستعمر في ثقافة المستعمر.

تنتهي المسيرة في درنة "الأسطورية"، ومنها إلى رمال الصحراء الحارقة، حيث الحرب والضنك مسک ختام الترحال والاحتراك مع البشرية.

على أن الصحراء ليست مجازاً بالكامل، فهنا فعلاً يقتل الجنود ويُقتلون، ويموت التائه من العطش، ويأكل البشر جثامين رفقائهم.

الفردوس المفقود

"يا صديقي العزيز، هل تعتقد أن الناس يعيشون في مثل هذه الرمال الجافة؟"، يسأل توکوابو العائد إلى مسار الحكاية. يجيب صديقه العزيز: "ماذا يمكنني أن أقول؟ وأنا مثلك أنظر حيثما تأخذني عيناي. فكيف لي أن أعرف؟".

سيتأسف توکوابو هنا عن مغادرته خضرة قريته وأنهارها وبنج ألوانها وضجيج كائناتها، ولسوف تزداد حدة الافتراق والرهبة بقدر التمييز المتعاظم تجاه المجندين الذين أنهكهم السير والعطش. سينبثق آنئياً "صوت داخلي" انتاب توکوابو في مطلع الرواية، يحثّه على الرحيل والقتال، وهو هو يؤنّبه الآن على هجر النعيم والمسير صوب التهلكة. يعقب هذا الصوت الداخلي في الحالتين مثلّ شعبيّ يذيل شخصية توکوابو الثقافية، حيث "قشاع الضباع القبيح، ونباح الكلاب وصراخها، وهو ما يُذهب توکوابو ويخيفه أيضًا"، فبقي وطنه "كنّا في ذاكرته".

فهل نستنتج من هذا أن رغبة توکواپو في الرحيل والقتال منبثقة من غياب الأيديولوجيا (حيث الوطن لصيق بالطبيعة، بعكس الأيديولوجيات القومية)؟ هذا التسطيح لا يحيد أهمية التناقض البيئي (قسوة الصحراء ضد وفرة أرض الوطن) في نقد المجندي لذاته. هذا تسطيح لأنه مع اقتراب المعركة، يصبح الضابط الإيطالي مخاطبًا المجندين: “أيها العسكر الإريتريون الأسود، أولئك الذين ستقاتلونهم الآن مجرد حفنة من الرعاه. ربما تكونون خائفين منهم بسبب بشرتهم البيضاء، لكنهم ليسوا مثلنا...”， فيسترسل بأن جنود المقاومة لا يملكون السلاح، وأن المجندين سيثابون بأكل اللحوم، عدا الغنية... إلخ.

على هامش خاتمة خطاب الضابط الصادح: ”تحيا إيطاليا، ويعيش مليكنا إيمانويل!“، ينسحب خطاب الحکواتي على التاريخي-القومجي، فهو لا يتوقع خطابًا أقل حدةً تجاه ”مرتزقة“، ولكن الضابط ”نسى أنه كان يخاطب الأحباس الذين لديهم تاريخ طويل من المقاومة... على عكس بعض الأفارقة الآخرين ممَّن ليس لديهم فخر بتاريخهم وببلادهم. نسي القائد أن جنود الحبše كانوا يقاتلون لأنهم يبحثون عن معاني الشجاعة والبطولة، وليس من أجل حفنة من المال.“.

أيجيب الحکواتي هنا عن سؤالي السطحي؟ ليس بعد. فصحيح أن توکواپو قادم من أسرة ثرية وليس في حاجة إلى الاسترزاق. صحيح أيضًا أن نكسة الأرضي الإريتريه ومن بعدها إثيوبيا في الحرب الإيطالية الإثيوبية الثانية، كان شبيهًا بالصدمة بعد انتصار الإمبراطور منليك الثاني الحاسم في الحرب الأولى في 1896. على أن هذه الفورة صارت تعليقًا على الاعتراف

بالمملك إيمانويل، حيث يرفض ”الشرفاء“، ومنهم توکوابو، تردید العبارة، كما جاء في النص الخالص في نهاية الفقرة إلى: ”أبناء الحبشة الذين لم يفعلوا شيئاً في البداية عندما تم الاستيلاء على أرضهم وانحناوا للإيطاليين كالكلاب...“.

أما الانتقال من ”الشرف“ إلى البراغماتية في فن الحرب نلتمسه في الفقرة ذاتها، حيث يشيد الراوي ببراعة الليبيين في أرض المعركة لأنهم يقاتلون بلا قائد وبلا ملك، وهم ”الذين أرادوا فقط الدفاع عن بلادهم“، حيث صار الأحباس وسيلة لاستعمار جيرانهم من الأفارقة ”دون أي شيء مفيد لبلدهم أو مجتمعهم“. ويعوض هذا التحقيق التاريخي أكثر في مالات الحرب، حيث تفهم العداوة بين العرب والأفارقة السود لأن بينهم ”عداوة تاريخية“، لكن الراوي يحذر من تكرار التاريخ لذات ”المأزق“، ”فإذا جاؤوا إلى بلدنا في يوم من الأيام لقتالنا بقيادة فرنسي أو إيطالي ما، ألا يعلم أهل الحبشة أن الليبيين سوف يقومون بالانتقام؟“.

في تصنيفي الثلاثي للراوي، أقرأ في هذه الترجمة البراغماتية لمسار الحرب صوت المثقف وهو يناشد أبناء جيله في مقال رأي. والباهر في هذا الرأي الاستشهاد بالفرنسي والإيطالي ك وسيطين للانتقام، في فهم عميق لحروب الوكالة الإمبريالية التي لم تتغير عدا تقنياتها.

”العربي“ بعين ”الحبشي“

على لسان إحدى الشخصيات، نقرأ ”إن أسوأ إساءة عربية يذكرها أي حبشي عائد من أسره في بلاد العرب هي إجباره على شرب حليب الإبل“.

ولتمضي هذه النادرة في نثرٍ ساحرٍ ينيف عن عشر صفحات، يقدم فيه هايلو فسيفساء من القصص والنكت الدائرة من حول "العرب"، وهم في هذه الحالة الليبيون. الطريف أن هذه النوادر المكتوبة بقلم روائي إريتري في أواخر عشرينيات القرن الماضي نسمع ما يشابهها اليوم في شرق ليبيا. على أي حال، يسرد هايلو نسل العرب وأشكالهم وطبعهم ويفكّ الصور النمطية التي رسمها الإيطاليون عنهم.

من هذه الصور، كسل الليبيين الذي قيل فيه نكت أشرتُ إليها. على أن الراوي يتحدث عن "كيف يقوم الليبيون بتسليح أنفسهم والاستعداد للقتال عندما قيل لهم إن هناك جيشاً غريباً قادماً لمحاجتهم؛ لا يمكن لأحد بعد كل شيء أن يصدق هذا الكسل المفترض عندهم". وفي تماهي الراوي مع الطبيعة، يتتعجب مجدداً من العدو، "فلم يكن لهم قادة يصدرون الأوامر والتعليمات، وبدوا مثل قطيع من الأبقار في مواجهة الصباع المهاجمة"، ذاك أن التوصيف الحيواني للمشاهد ليس بالضوره احتقارياً وليس بالضوره "بريئة"، وهنا تكمن روح الحداثة في تنوع التكرار ونبذ "أخلاقوية" المجاز.

في الصفحات العشر المشار إليها، يغيب توکوابو للمرة الثانية، فالرواية تبلغ ذروتها وبشاشة المشهد -وجماله أيضاً- لا يحتمل تكرار بطلنا للهواجس ذاتها، فالمعركة "كانت لحظة مرعبة وغريبة ومحيرة حين مشاهدة الليبيين وهم يركضون، والأحباش يطاردونهم، بينما الإيطاليون يصرخون: جميع الثقافات الثلاث المختلفة معًا، وبأساليب قتال مختلفة، اختلطت في تلك المعركة".

”وهكذا انتهت المعركة بنصر ساحق للأحباش. لا، لقد أخطأت. كان النصر للإيطاليين“، صوت المثقف الطامِس لعفوية الحكواتي.

عودة توکابو

بعد الانتصار، يقوم توکابو بواجب الحراسة في حدة اغترابه عن الأرض. يتفكر الحكواتي: ”في بلدنا لا يشعر المرء بالوحدة أبداً؛ فحتى إن كان سماع أصوات الحيوانات البرية في الليل يبعث على الخوف في الإنسان، لكن مع ذلك فالاستماع إليها يرُوح عن القلب قليلاً حيث تشعر بوجود شيء ما من حولك“. لتنتقل مباشرة حالة التفكُّر هذه إلى توکابو نفسه، فيتساءل: ”وهل يسمون هذه بلاداً لكن مهلاً... فالليبيون يقاتلون من أجل هذه الأرض القاحلة. أما نحن؟ علينا اللعنة! لم نحرك ساكناً عندما جاء الإيطاليون للاستيلاء على أرضنا الخصبة... عندما تفكُّر في الأمر، فالليبيون في هذا المكان من البدو، وكان ينبغي ألا يهتموا كثيراً، حيث بإمكانهم التحرك بسهولة تاركين هذه الأرض القاحلة للإيطاليين، لكن رغم كل هذا، لم يركعوا للحكم الإيطالي.“.

إنه ”تكرار بطلنا للهواجس ذاتها“، لكن هذه الهواجس الآن منطقية وتنساق مع خطاب الروائي في ذات الفقرة، فقد بات ”الجحيم“ الذي وُصفت به الصحراء واقعاً لا يطاق، فسُمِّي فصل الرواية الأخير ”العطش القاتل“، وهو ما يصير لأنجل أفراد الفرقة. يهرب الضابط الإيطالي مخافة أن يقتله مرتزقة على حافة الموت عطشاً، ”لكن في الحقيقة، لم يكن أحد منهم يجرؤ على ذلك.“.



مجندون أفارقة في الجيش الإيطالي.

”دعونا نقل الحقيقة“، يقول الحكواتي - ومن غيره! - ”هل يجرؤ الحبشي على الثورة ضد إيطالي؟“، يهلك أغلب الجنود، وينجو آخرون، بينهم بطننا، بعد العثور على بئر، وفي خضم لعبة النجاة، ينجو آخرون، لكنهم ”تصرّفوا مثل الغوغاء“، أو مثل الذباب الطنان الذي يسقط فوق وعاء من الحلوى، وماتوا وهم يدوسون بعضهم البعض“.

هذه المشاهد تذكّرنا بلوحة إيليا ريبين، بحارة على نهر الفولغا، حيث الوهن واليأس على أشدّه. ”نتمنى ألا يرى آباءبني الحبšeة هذا...“ في خاتمة مشهديه تنتقل من التقرير إلى الإنماء المناهض للإمبريالية.

يتحسّر بطننا مجدّداً، ويتمتّنّ لو أن السفر كان لغرض التجارة أو الصيد أو لأي شيء ”غير ضار“. لا يفهم اختياره الحرب والمهانة والجوع والموت، كما ينصّ الراوي الذي يذكر والديه، ويخرج الحكواتي على السطح، قائلاً: ”ولكن بما أننا نتحدّث عن والدي توکوابو، فلنرجع إليهما“.

من فرحتها بقدوم الابن، تموت الأم. ولعل موت الأم في الحكايات لازمة نراها مع الهزيمة (هزيمة الحرب في العام، وهزيمة المثاليات في الخاص). هنا نقرأ قليلاً عن طيش الشباب ومرونته على تخطي المحنّة، بعكس الأب الذي فقد زوجته وقد يفقد ابنه.

في العودة أيضًا يتجلّي القمع لبطننا في أشكال أخرى، الآن وقد صار خبيئاً في التعايش في مجتمع قمعي-استعماري، بيد أن الراوي لا ينقل الإحاطة على لسانه، فيكتب: ”كان من المحزن رؤية الأحباش من عملاء السلطة هناك، والذين كانوا يصيرون بفخر ’برونتو‘ وهم يردون على الهاتف باللغة الإيطالية، لكنهم ببساطة تجاهلوا أو استهزلوا بأسئلةبني وطنهم، بل جرى

الأسوأ من ذلك، ففي بعض الأحيان هناك جلد وضرب ودفع”.

فيما يخص لقاء توکوابو بأبيه، يكتب هايلو بروح الحداثة: ”من الأسهل تخيل ذلك بدلاً من التعبير عنه بالكلمات“.

يختتم المجند العائد، كي لا نقول ”ينهي“ حكايته بقصيدة يجلد فيها ذاته ويرثي أمه، يبدأها بـ ”ذاهب إلى أرض بعيدة / ليس من أجل رفعة وطني...“ وينهيها كي لا نقول ”يختتمها“، بـ ”انتهيت من التجنيد وكل الميداليات الإيطالية. / وداعاً للسلاح!“.

تحول تجليات الأبطال الحلوة/ المرأة من الأسطورة -من جلجامش إلى أوديسيوس- إلى الحداثة- من مرتزقة الاستعمار إلى مجندي الدكتاتوريات.

ما تعلّمَهُ "لورانس الدنماركي" في ليبيا

فريدريك ويري

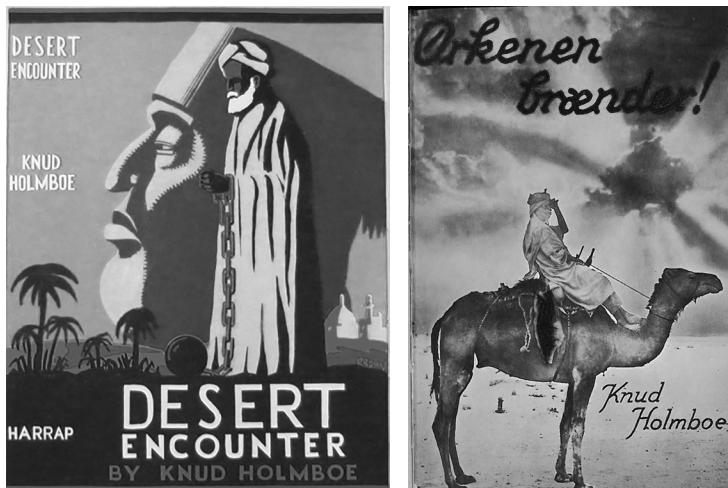
ترجمة: سعد العشة

صدر المقال في نيويورك ريفيو أوف بوكس، عدد 25. نوفمبر 2019

برواية مغامرته الليبية، صار هولمبو أحد الشهود الغربيين القلائل على فظائع النظام الإيطالي الاستعماري في حملته لمكافحة التمرُّد، وبات الكتاب الأفضل مبيعاً في الولايات المتحدة وأوروبا. وفي معرض مراجعته الكتاب في 1936، كتب جورج أورويل: "خليقٌ بالجماهير الإنجليزية المبجّلة لموسوليني أن يلقوا نظرة على الكتاب".

في صيف 1931، قامت السلطات الأمنية في سوريا الفرنسية باحتجاز وترحيل صحفي دنماركي، كان قد قضى السنة الماضية وقتاً في إقليمي طرابلس وبرقة في شمال أفريقيا، وهما كيانان ضمن ما سُيعرف لاحقاً بدولة ليبيا الحديثة. وبحسب ما ورد، فإن السلطات الفاشية الإيطالية طلبت سلفاً من الفرنسيين أن يطردوا الرحالَة البالغ من العمر آنذاك ثمانية وعشرين عاماً بحجة التخريب والتمرد. احتاج المسؤولون الفرنسيون في سوريا إلى من يقنعهم بهذه التهم، فسمعة هذا الدنماركي الفارع أُزْرِق العينين قد سبقته، حيث إن تقاريره بشأن ليبيا، كما رأوها، أَجَّجَت أعمال شغبٍ ضد إيطاليا على الأراضي السورية، فسقط العديد من الضحايا. بُعْدٌ

فريديريك ويري



إلى اليمين الطبعة الدنماركية من كتاب "مجابهة صحراوية" وعلى اليسار الطبعة الإنجليزية

هذه الاضطرابات، وُسِّمَ الشاب في مقالة في إحدى الصحف البريطانية بـ”لورانس الدنماركي“، في إشارة إلى توماس إدوارد لورنس، الضابط العسكري البريطاني في الحرب العالمية الأولى، المعروف بـ”لورانس العرب“.

في الظاهر نرى العديد من أوجه الشبه ما بين سيرتي الرجلين، الدنماركي المسمى كنود هولمبو ولورانس الذي بات أسطورة، فقد تحدّث الرجالان العربية وصارا مولعين بالثقافة العربية، رغم أن هولمبو ذهب أبعد من ذلك واعتنق الإسلام، حيث نقض كرهه القديم للمسلمين والعرب. كلاهما ارتحل عبر الشرق الأوسط وكتب بشأنه، ومن منظورٍ صارم على المشاريع الاستعمارية الأوروبية، رغم أن الرّحالة الدنماركي لم ينخرط في مخططات ومكائد كما صار مع عالم الآثار وضابط الاستخبارات البريطاني. الخلاصة: كان الرجالان نصيريَّ الحمّلات العربية المناهضة للاستعمار. بحلول اليوم الذي احتجز فيه الفرنسيُّون هولمبو، كان الأخير قد سُجِّنَ سلُّقًا في مصر بتهمة التآمر مع معارضين ليبيين ضد إيطاليا، وهم أعضاء في الجماعة السنوسية الصوفية، لكي يعيدوا إمداد قاعدة محاصرة من الثوار عبر الحدود في جنوب ليبيا.

ما حفَّز هولمبو على نشاطه ضد الإيطاليين كامنٌ في رحلته على الطريق في 1930، عبر ليبيا الواقعة تحت الحكم الإيطالي. بصرف النظر عن قربه من الأحداث المميتة، فقد كشفت له الرحلة عن قسوة العمليات الإيطالية المكافحة للتمرُّد، وبخاصةٍ في شرق ليبيا، حيث معسكرات الاعتقال والشنق وقنابل الغاز السام والتهجير القسري وتجويع المدنيين.

تشير تقديرات عدد القتلى في الشرق، حيث يصفها المؤرخون الإيطاليون والليبيون بأنها “إبادة جماعية”， إلى أنها تتراوح بين 35000 و70000. كان هولمبو أحد الشهود القلائل من العالم الغربي على هذه الهمجية، وخطوته أولى في سلسلة التهديدات التي عمدت إلى إسكاته، قام الإيطاليون بترحيله على متن سفينة سجن عفنة في ختام رحلته في 1930. وبرفضه الخنوع، نُشرت) نشر هولمبو في 1931 كتاباً يروي الأوديسا الخاصة به بالدنماركية وهو عنوان Desert Encounter¹ بعد خمس سنوات بالإنجليزية بعنوان صار الكتاب .(مُخَفَّفٌ عن الدنماركي الأصلي، المُتَرَجَّمُ صحراءً ملتهبًّا الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة وأوروبا، على الرغم من الحظر الفوري المتوقع في إيطاليا، إذ لم تبصر الترجمة الإيطالية النور إلا في 2004.

ولطالما شغل هولمبو تفكيري في أثناء ترحالي عبر ليبيا خلال العقد المنصرم، حيث تتبعُ أحياناً خطى مسيرته، على أني لم أجلب كتاب مجابهة صحراوية في ترحالي إلا في هذا الصيف، أغرق في ثنايا صفحاته طيلة الأصائل المتناقلة في طرابلس، وفي المساء في جبهات القتال طيلة فترات الهدنة ما بين الميليشيات المتناقلة، وإذ يمزج الكتاب أدب الرحلة مع التأملات الروحانية والنقد الاجتماعي والصحافة الاستقصائية، فهو يتجنب أساليب النثر الأوبرالية وطموحات الملاحم الهوميروسية التي تستشفعُها في كتاب لورانس، أعمدة الحكمة السبعة. يخلو الكتاب أيضًا من الكليشيهات الاستشراقية التي أغدقَت روايات الرحالَة الغربيين آنذاك، فالكتاب يبدو أحياناً كروايةٍ نقرأها في مجلة Boys' Own وعلى شاكلة مغامرات تان تان،

1 ”مجابهة صحراوية.“ المترجم

على الرغم من أن الكتاب ينحو أحياً منحى العضة والتعالي، وقد وسمت صحيفة نيويورك تايمز الكتاب بـ“المشوق”，أما في ذي أوبرفر، لم يكن غراهام غرين بتلك الحماسة: “إن حكاية هولمبو حماسية وفحوى مادته مهمة جدًّا، لكن مواهبه الأدبية شحيحة”.

مهما يكن من الأمر، يظل كتاب مجابهة صحراوية وثيقة تاريخية دامجة، وهو جدير بالذكر لما يسرده من فظاعات الحكم الإيطالي، فها هو هولمبو يصف مشاهد دموية تشي في سرياليتها، كما أرى، بما سرده إسحاق بابل في سلاح الفرسان الأحمر وما سرده كورزيو مالابارته في كابوت. يمر عبر القرى المدمرة والمهجورة، حيث ردم الإيطاليون آبارها بالرمال والإسمنت. يرى حطام الطائرات الإيطالية بفعل بنادق المتمردين الليبيين وتنعر خطواته فوق جثث نصف عارية، فيما تنخر أطرافها الذئاب، حينما “تأتلق عيونها الصفراء كاللومض الفوسفورى”，وها هو يحضر إعدامًا بشنق ليبيين، إذ يدير منصة الإعدام جيش الاحتياط الاستعماري الإيطالي، المكون من إيتيريين مسيحيين “تزدان أعناقهم بصلبان فضية كبيرة”. ولئن أنعم النظر في الجمهور الحاضر، لاحظ أن المستوطنيين الإيطاليين قد جلبوا كامياراتهم.

وبالنظر فيما وراء شهادته على النهب الحاصل في حقبة استعمار ما بين الحربين، فثمة ما يحيلنا إلى زيارة كنود هولمبو مرة ثانية. لقد أقت مسيرته الانقلابية الحادة بظلّها على الانقسامات والنعرات التي لا تزال تفرق بيننا، فهو كان مسيحيًّا وبات مسلماً، كان يدعو إلى التفوق العنصري الأوروبي وأضحى مناصراً لتحقيق المصير العربي، وتحول من كونه

مراسلاً إلى ناشطٍ سريٍّ، وصار أيضًا نذيرًا بعصره المضطرب، وربما بعصرنا المضطرب، إذ حذر من قدرة الفاشية في ممارسة العنف المتطرف، في زمنٍ كانت فيه شعوب الغرب إما شاردة عن هذه المخاطر وإما متورطة في مآربها. “خليق بالجماهير الإنجليزية المبجلة لموسوليini أن يلقو نظرة على الكتاب”. يكتب جورج أورويل في معرض مراجعته كتاب مجابهة صحراوية في 1936، أي قبل شهر من وصوله إلى برشلونة لكي يقاتل ضد جيش فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية.



ولد كنود فالديمار غلدنج هولمبو في الجزء الدنماركي من شبه جزيرة يوتلاند في 1902، وهو البكر بين سبعة أولاد وبنات، لعائلة من أعلى الطبقة الوسطى. وتحللت بيئته طفولته إلى دوامة من إنسية رحبة وولع أدبي وشغف روحي سيصبح ترحاله المُقبل. وقد أصبح أحد إخوته، فاغن، ملحنًا للوتريات الكلاسيكية، وشتهر بتكنيك “الانسلاخ – metamorphosis” الخاص به، حيث وُصفَ مرّةً في الصحف بـ“تيرة إيقاعية” كامنة في “حالة من التطور الدائم”. قد يكون هذا التجديد الموسيقي بمثابة كنایة عن المسارات والتحولات التي شَكَّلت هوية كنود هولمبو وفكرة.

في عمر التاسعة عشرة، قضى وقتًا في دير بيندكتي في لوكسemburg، آملًا في أن يصير راهبًا، لكنه صار عوضًا عن ذلك صحفياً يكتب للجرائد الدنماركية. نشر تقاريره بدءًا من الدنمارك وأوروبا، ومن ثم حول تركيزه إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، حيث الانطلاق إلى المغرب أولاً، وهناك قابل أميرًا دنماركيًا يحارب في صف الفيلق الأجنبي الفرنسي. وفي الكتاب روایته

لأحداث جبهات القتال في حرب التمرد التي شنّها المغاربة في عشرينات القرن العشرين ضد قوات الاستعمار الإسباني والفرنسي، والتي تُعرف بحرب الريف. يزخر السرد بالتنميط العنصري: فالرجال "الداكنون" الذين قارعوا الاحتلال، كما كتب، هم "قطاع طرق" مدفوعون بـ"التعصب الديني". وكان مؤلف هذه الأسطر ليس من كتب مجاهدة صحراوية المنشور بعد إحدى عشرة سنة، إذ يوصف المقاتلون المغاربة ذاتهم بـ"ساكنى الجبال البواسل".

ما الذي طرأ فغيّر بهذه الشدة؟ حين راقب إقامة الصلاة في القدس في 1926، بدا الأمر كشرارة اهتمامٍ تبجيلى بالإسلام. "عمّت السكينة تماماً"، كما كتب لاحقاً عن التجربة، "فليس ثمة قس يحتفي بالقدس أو يعظ أو يحول الخبز والنبيذ إلى الرب، ليس ثمة موسيقى تفتّن الفؤاد وتُضليله عن التفهُّم". وبعد أشهر، زار مسجداً في الجبال المغربية واستمع إلى خطبة إمامٍ هرم عن فضائل الإسلام. في 1929، إبان زيارته إنجلترا، دخل الإسلام رسمياً.

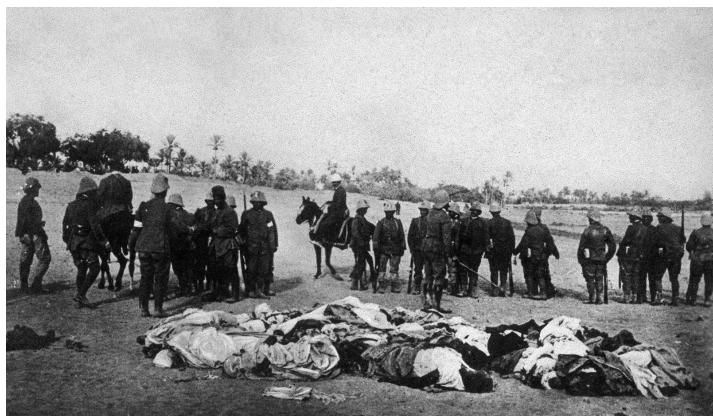
على هذه الخلفيّة شرع هولمبو في رحلته عبر شمال أفريقيا في 1930. كان قد نوى سلفاً أن يسافر بحراً من إسبانيا إلى مصر، ومن ثم إلى مكة والمدينة المنورة، فإذا بمحادثة عرضية في بهو فندق في مدينة سبتة الإسبانية، المحصورة في شمال المغرب، تقنعه أن يرتحل براً عبر المغرب العربي. "ألف لنا كتاباً عن شمال أفريقيا كما يراه العرب" كما جاء على لسان الغريب في رواية هولمبو في كتاب مجاهدة صحراوية. ولئن قبل بالتحدي، فقد آل على نفسه أن يجتاز حداً نفسياً ومتافيزيقياً بقدر ما كان جغرافياً. وقد بين أنه "سيكون يومي الأخير بصفتي أوروبياً". وباعتباره البرنوسي المغربي حيث بدا من "غير الممكن التعرُّف" عليه، قام باختيار وسيلة نقله: عربة شيفروليه

فريدريك ويري



كونراد فالديمار - صورة ملتقطة في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين

موديل 1928، مزودة بمحرك رباعي الأسطوانات وبخزان وقود مكّبّر. إبان دخوله ليبيا، قاد سيارته عبر طريق دشّنها الإيطاليون ("أبهى طريق أراها في حياتي، حتى في أوروبا")، ووصل إلى العاصمة، طرابلس، حيث وطّد نظام موسوليني الفاشي مشهدية سلطوية فظة. فها هو يكتب أن "المبني تبهّج بالرخام وألق النحاس"، فيما يسير شبيبة ميليشيا القمصان السوداء في الشوارع وهم يزدّانون بصور إل دوتشي المزخرفة بالنقوش الكاتبة: "من ليس معنا، فهو ضدنا". لقد أضحت الإيطاليون *Sono* "واثقين من انتصارهم الوشيك ضد من بقي من المتمردين الليبيين هكذا كان يهمس الحاكم الإيطالي، ("لقد تمت تصفيتهم")" *liquidati* المارشال بييترو بادوليو، في أذن الدبلوماسيين الوافدين. بيّد أن هولمبو كان يسمع أخباراً من شرق ليبيا عن مأثر قائد فدائي مراوغ يُدعى عمر المختار، وهو معلم صوفي سابق كان يقود غارات خاطفة على الجنود الإيطاليين من مخابئه الجبلية. "كما اعتقّدنا بوجوده في موقعٍ ما واعتنّمنا القبض عليه - يختفي!"، كما أخبر جندي من منطقة تيروول الإيطالية هولمبو وفي عزمه على لقاء هؤلاء الثوار، مضى هولمبو في طريقه صوب الشرق. بمكّانٍ ما في الصحراء على تخوم سرت، حيث تعصف الرياح بسهول الأشواك والأعشاب، تعطلت سيارته فهام أياماً بلا ماء. وإن أنقذه جنود إيطاليون، قيد إلى مدينة بنغازي، عاصمة مستعمرة برقة الشرقية، وهي القاعدة تحت حكم الأمر الواقع بقبضة الجنرال رودولفو غراتسياني الحديدية. بذقنه الحليق ووجهه المتورّد، "وعينيه المقاربتيّن إلى السواد"، كان غراتسياني مشرقاً على عملية إخلاء السكان الواقعة في الريف بالقرب



استشهاد المجاهدين الليبيين على يد الإيطاليين

من بنغازي لقهر المقاومة. وقد أسفرت النتيجة عن قتامة معسكرات الاعتقال المحوّطة بالأسلاك الشائكة، حيث سيق أكثر من مئة ألف بدوي كالقطuan.

زار هولمبو أحد هذه المعسكرات ونستقي من وصفه إدانةً صريحة، فقد وجد ما يقرب عن 1500 خيمة تأوي 6000 - 8000 نسمة، حيث كان جلهم "يعانون من المرض والشقاء، تراهم يرجعون وظهورهم مقوسة، أو ترى أذرعهم وسيقانهم مشوّهة بالكامل". حين ظهرت روايته أخيراً بالإنجليزية بعد ست سنوات، فجّرت قنبلة بما قدّمه بالتعارض مع البروباغاندا التي أدارها فاشيُو إيطاليا على مر السنين عن مشاريعهم المتمدّنة، في ليبيا ومناطق أخرى في أفريقيا "لمن المؤسف أن ننتظر خمس سنوات هذه الترجمة"، كما كتب أحد مراجعي مجابهة صحراوية في بريطانيا في 1937. "كان حريًّا بنا التخلُّص من أي وهمٍ ماضٍ بشأن مساعي إيطاليا وسياساتها في بلاد الحبشة". بالنسبة لهولمبو، ربما باتت زيارة المعسكر الدافع في مساعيه الراديكالية: "أي مواطن أوروبي يلمح سمات الحكم الإيطالي"، كما كتب، "لا بد أن يشعر بالخزي كونه ينتمي إلى العرق الأبيض".

وشاءت أن تمضي رحلته شاهدةً على ارتقائه من مدوّن يؤرخ للأحداث إلى نصيرٍ في الحرب. فإثر انفصاله عن رتلٍ إيطالي في الجبل الأخضر شرقاً، قبضت عليه قوات المختار، إذ نجا من الإعدام بتلاوته القرآن. وفي جلسة حول نار المخيّم، استرسل مضييفوه في سرد الانتهاكات الإيطالية، من ضمنها حكاية موجعة عن طفلٍ ليبي اختطفها الإيطاليون وباعوها إلى مأمور. وإبان إعتاقها، ابْتَلَيت بمرضٍ غامضٍ، فتوسّلت إلى أبيها أن يقتلها.

قبلها الشيخ الهرم على جبينها وامتثل لطلبيها. "وها أنا أؤكّد لك". قال الحاكي لهولمبو، "إن كل إيطالي يصادفني، مصيره الموت". وفي أعقاب مكوثه في كنف هؤلاء الرجال، وعدهم هولمبو بلقاء زعيمهم المنفي في مصر، إدريس السنوسي، الرجل الذي سيغدو ملك ليبية المستقلة في 1951.

عقب وقوعه في قبضة الإيطاليين مجدداً، طرد هولمبو عاجلاً من إقليم برقة. ومن هناك، شق طريقه إلى الإسكندرية في مصر، باحثاً عن الزعيم السنوسي كما تعهّد. بدوره، خطّ إدريس السنوسي خطاب تعريف ليعطيه هولمبو إلى الثوار في واحة الكفرة الليبية، بالقرب من الحدود المصرية، ما يدلّ على أن هولمبو لم يعد الآن محض مراقب. وبالعودة إلى الفندق بعد اللقاء، يعرض علينا سرداً مختزلاً وآسراً عن التفسّخ الأخلاقي الغربي، مستحضرًا كتابات بول بولز اللاحقة. يمر عبر أحيا العاهرات التي تعج بالنساء المبهّجة، وبالبخارية السكارى، وبرائحة "الويسكي والبخور والأجساد المتعرّقة". وخلال الهرج، يسمع هدير لحن بيتهوفن، سوناتا ضوء القمر، وهي تنوح من بيانو كهربائي، على أن نصف النوتات غائبة. آنذاك، صارت النغمة لدى هولمبو بمثابة "رعبٍ متقطّع ومتلعثم".



بعد قرابة القرن من أوديسا هولمبو، تغيّر المشهد الليبي جذريّاً وهو يحمل ندبات فورة النفط، وعقود من فوضى حكم الدكتاتور معمر القذافي، والانتفاضة الشعبية، والتركة الثقيلة. أمّا العاصمة التي بناها الإيطاليون وزارها هولمبو، حيث الساحات المُق نظرة وواجهات الطراز الموريسكي

الجديد، فهي اليوم مطوقة بالمساكن الخرسانية وناطحات السحاب نصف المكتملة. وفيما يخص الطرق التي شيدتها الإيطاليون ولهج بها هولمبو في ترحاله، فقد صارت بالإهمال وعرا وانتشرت فيها الحواجز الخاصة بالميليشيات. وبالنسبة لفندق Albergo Italia الفخم حيث نزل في بنغازي، فلم يعد له وجود، بعدها دمرته قذائف الحلفاء بشكل جزئي في الحرب العالمية الثانية، بينما حطم الاقتتال القريب قصراً مروقاً شاهد فيه هولمبو يوماً ما غراتسياني وهو يخاطب القوات الإيطالية من شرفته.

لا شك أن الحضارة قد بُنيت في بنغازي، يكتب الدنماركي إبان دخوله شرق ليبيا، لكن أي حضارة هذه؟ فالزيف في الحكم الإيطالي لليبيا كامنٌ في أن إنجازاتهم المعمارية المُهَلَّة -المسارح، والواجهات البحرية التي تصطف فيها أشجار النخيل، ومباني الحفلات الموسيقية- قد لازمها خراب المجتمع الليبي. فبافتقارهم إلى حكم الوصاية الذي اتبعه المستوطنون الفرنسيون، قام الإيطاليون بسحق الطبقة المثقفة الوليدة التي واجهوها في البدء، وبمرور العقود، تعزّز الانتماء القبلي في الوقت الذي حجبوا التعليم عن الليبيين (بحلول استقلال ليبيا، كانت الأممية متفشية). "يُكمن الشر الاستثنائي هنا في أن الإيطاليين لا يبدون أي اهتمام برعاياهم على الإطلاق"، هذا ما انتبه إليه أورويل في مراجعته لكتاب مجابهة صحراوية.

اليوم نرى باحثين وكُتابًا ليبيين من مختلف الأجيال وهم يدللون بدلولهم فيما يخصُّ الحقبة التي أرَّخها هولمبو، عبر البحث في الأرشيف وبالسرد المتخَيل الراهن، في المذكرات والشعر والفنون، ومع ذلك يظل هولمبو جزءاً عضوياً من هذه الذاكرة. نرى بورتريه صورته معلقة في المتحف

الوطني بطرابلس، فضلاً عن تكريم ابنته وأحفاده في زيارتهم لليبيا في ظل حكم النظام السابق. وقبل بضع سنوات، عقد شباب ليبيون نادي قراءة للنقاش حول هولمبو في مدينة البيضاء بالجبل الأخضر، بالقرب من البقعة التي قبضت عليه فيها قوات المختار.

ما زال إرث الحقبة الإيطالية حاضراً في ليبيا في نواحٍ أخرى: في غياب مؤسسات حكومية تشمل الجميع؛ في تشظي المجتمع الليبي إلى كيانات قبلية وجهوية؛ في اتّكال النخب المحلية على الوصاية الخارجية؛ وفي العنف المستشري الذي بات بمثابة عملة سياسية. الراهن في عيني هولمبو مألف. هنا نجد أكبر مدينتين في الغرب والشرق، طرابلس وبنغازي تباعاً، متحاريتين مجدداً، ليس بفعل ميليشيا القمصان السوداء أو قوات الكارabinieri، بل بفعل ميليشيات ليبية تتراحم لنيل السلطة والثروة. يقود ميليشيات الشرق مارشال أوتوقراطي يكتسي بلون الكاكي ويدعى خليفة حفتر، وهو الذي يشن حرباً منذ أبريل العام المنصرم للإطاحة بالحكومة المعترف بها دولياً في طرابلس، حيثما يحبذ العروض العسكرية البادحة، في استحسانٍ مفترض من غرatisياني وبادوليو.

ولم تُدفن أياً أشباح الاستعمار الإيطالي الهادرة، فحتى اليوم تُلْحِق الحكومات الإيطالية المتلاحقة الأضرار المستجدة على إقليم طرابلس، ومجدداً في صورة المعسكرات: لصد مد المهاجرين الأفارقة العابرين الأبيض المتوسط، وقد دعمت روما اعتقالهم الشائن في مراكز حجز مزدية تديرها الميليشيات الليبية. علاوة على ذلك، نرى التدخل الدولي المستجد، فها هنا نجد الطائرات الأجنبية - وهي طائرات مُسيرة عن بعد

تستبدل الطائرات أحادية السطح التي شهد حطامها هولمبو- وهي تقصف الليبيين بحصانةِ الجنود المرتزقة الأفارقة، لم يعد أفرادهم من الجيش “العسكري” الأريتيري، بل من الجنд التشادي والسوداني، يتحاربون اليوم على الأراضي الليبية، في صفوف الفصائل المتحاربة في البلد.

إثر قراءتي لهولمبو، وجدتني أتفكر في همته المثبتة -وليس في تفاجئه- التي أرجح أن ترتتبه في ظل التحول السلطوي والقومجي الذي سلكته أوروبا المعاصرة. لقد كان يحس في عصره بنزعـة ضد الليبرالية؛ وبقيـنا لم يكن هو بأمنـ من جاذبيـتها، حيث أقرـ بأن هذه النـزعـة ”وضـعت الأمـور في نـصـابـها في إـيطـالـيا“. بيـدـ أنه في خـتـامـ مـجاـبـهـ صـحـراـويـةـ، نـجـدـهـ يـحـذـرـ منـ أنـ ”ـفـاشـيـةـ تـمـدـ مـخـالـبـهاـ“. الدـوـاءـ، كـماـ آـمـنـ بـهـ، كـامـنـ فـيـ إـسـلـامـ.“ـإـسـلـامـ“ـ كـماـ كـتـبـ، ”ـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ الـبـلـشـفـيـةـ، وـالـاشـتـراكـيـةـ، وـكـلـ الـأـفـكـارـ الـحـدـاثـوـيـةـ الـأـخـرـىـ الـرـامـيـةـ إـلـىـ سـعـادـ الـبـشـرـ، قـادـرـ تـمـامـاـ عـلـىـ إـسـعـادـ الـجـمـيـعـ“. يـشـاطـرـهـ الرـأـيـ الـيـوـمـ الـعـدـيدـ مـعـنـقـيـ إـسـلـامـ الـأـورـوـبـيـينـ، حـيـثـ قـامـ بـعـضـهـمـ، عـلـىـ غـرـارـ الدـنـمـارـكـيـ، بـالـهـجـرـةـ فـيـ سـبـيلـ الـقـضـاـيـاـ إـسـلـامـيـةـ. لـوـ كـانـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ الـآنـ، لـوـجـدـ هـوـلـمـبـوـ نـفـسـهـ، عـلـىـ الـأـرـجـحـ، مـطـارـدـاـ مـنـ الـمـخـابـراتـ بـصـفـتـهـ مـحـارـيـاـ أـجـنـبـيـاـ أـوـ ضـحـيـةـ إـسـلـامـوـفـوـبـيـاـ الـمـتـصـاعـدـةـ فـيـ أـورـوـبـاـ.

كان ليشعر بالخزي، وليس بالصدمة كما أشرنا، إذا رأى مواقف بلده المناهض لل المسلمين مرتبطةً بشكل غير مباشر بانتفاضة الليبيين في 2011 ضد عمر القذافي. ففي أواخر 2005، قامت جريدة في الدنمارك بنشر كارتون ساخر يستهزئ بالنبي محمد، ما أثار احتجاجات المسلمين عبر العالم، لا سيما في بنغازي، حيث قتلت قوات الأمن الليبية، في الأقل،

عشرة متظاهرين في 2006. في أوائل 2011، عندما نَظَم نشطاء ليبيون في بنغازي والمهجر احتجاجات شَكَّلت جزءاً من الرياح العربي الجاري، اختاروا الذكرى السنوية لهذه الأحداث المميتة، أي في 17 فبراير. هذا التاريخ يجسّد الآن شرارة الثورة وبداية النهاية في حكم الدكتاتور الليبي.

لم ينجح كنود هولمبو في تحقيق جهوده الرامية إلى مساعدة الثوار الليبيين ضد الإيطاليين: ففي فبراير 1931، اجتاح الجيش الإيطالي آخر معاقل السنوسية في واحة الكفرة، وفي سبتمبر من السنة ذاتها، أُسرَ أخيراً المختار، قائدتهم الأسطوري، وُشُنقَ على الملاً في بلدة سلوق في الشرق. وإذا سُحقت المقاومة، سيستمر الحكم الإيطالي في ليبيا اثني عشر عاماً. في ختام مواجهة صحراوية، يقف هولمبو على متن سفينة شحن في 1930، محدّقاً في أفق الأبيض المتوسط ويتفرّغ في حلم موسوليني أن يحوّل البحر إلى "بحيرة إيطالية"، في إحياءٍ لمطالبة رومانية قديمة *mare nostrum* ("بحرنا"). سخافة هذه الأفكار تتجلّى في تنويهات الدنماركي، أن رقع المياه في نهاية المطاف تربط، ولا تفرّق، بين أفريقيا وأوروبا، وبين الشرق والغرب.

ومن المرجح أن مساعي هولمبو في بناء جسورٍ بين هذه العوالم قد كَلَّفَه حياته. في أكتوبر 1931، وفي طريقه إلى الحج، نصبَت له ثلاثة من البدو كميناً وقتلته على طريقٍ صحراوي بالقرب من الحدود السعودية-الأردنية. كان في التاسعة والعشرين. وقد ترددَ أن قاتليه عملوا بأوامر المخابرات الإيطالية، على أن الخبر لم يؤكّد، ولم يُعثَرَ على رفاته إلى يومنا هذا.

دلالةٌ غامضةٌ هائلةٌ

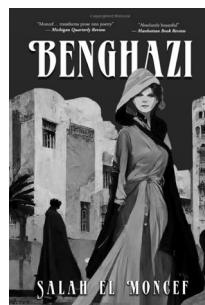
عن رواية "بنغازي" لصلاح المنصف

بقلم: ستيفين وات
ترجمة: نافع الطشاني

صلاح المنصف.

"بنغازي"
بنيلوي بيوكس، لندن.

2022



في مقدمتها لرواية "ذا أوفرينج"، "القُربان"، (2015) وصفت ماري روتني رواية صلاح المنصف الرائعة بأنها "قصةٌ خلابةٌ عن القتل، والغوضى، والمرض العقلي"، ولكنها في ذات الوقت، سرعان ما توضح أنه فيما وقع سرد أحداث هذه الرواية ذات الطبقات، المحموم أحياناً، قد يجعل القراء "يلهثون" ليتابعوه، إلا إنه أبداً ليس سبب جاذبيتها الوحيد؛ فعلى سبيل المثال: كلٌ من غموض وتعقيد شخصية بطل الرواية طارق عباسى لهما جاذبية متساوية، فطارق الذي تعرّض لإصابة في الدماغ تؤدي إلى تهشّم ذاكرته عن حادث مأساوي وعواقبه التي غيرت حياته، يأمل في فهم هذه العواقب بشكل أوضح، وأن يخفّف من ألم الحادث المبرح، الألم الذي

يحيط محاولته للبدء في حياة جديدة في باريس، ثم بوردو التي يشعر أنها أيضاً "قابلة للسكنى". وفي هذا الصدد كما شدّدت في مقالٍ المنشور في "لوس أنجلوس ريفيو أوف بوكس"، "مراجعة لوس أنجلوس للكتب"، (نشر بتاريخ 4 أبريل، 2015)، مع أن سرد "القريان" الروائي يشغل القراء بالأحاجي وتفاصيل حياة طارق الموجعة للقلوب (وموته)، المذكور في الفقرة الثانية من الكتاب، هذه المعاناة تجد صداتها في مغزى أكبر بكثير، وهو جزئياً ترميز معاناة رعايا الشتات الذين، في الغالب الأعم، يشعرون بالغرابة في بلدانهم الجديدة، أو حتى في بلدانهم القديمة. وعلى نحو مشابه تعرّف روتي، في تقديمها لرواية "بنغازي" (2023) التي تجري أغلب أحداثها في "هذه المدينة العالمية المطلة على البحر الأبيض المتوسط" في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين في زمن استعمار نظام بنیتو موسوليني لها، تعرّف الكثير من الإيحاءات التاريخية المدوية للرواية القصيرة، حيث تعدد "ذات دلالةٍ غامضةٍ هائلةٍ... بكل ما للكلمة من معنى، فهي نصٌّ مثير للعواطف، متكمٌ لحدٍّ ما، يستثير رغبة القراء للمزيد".

لقد أصابت في الوجهين، وذلك لأن رواية "بنغازي" تصوّر العمليات الاستعمارية الفاشية في منتصف العشرينات مع كشفها أثر هذه العمليات على نفسية أبطالها، مريم خلون، وعائلتها، فالقارئ فعلًا يرغب في المزيد: المزيد عن تاريخ العالم، المزيد عن سنوات مراهقتها في فجر الحرب العالمية الثانية، المزيد من الوصف الغني من كاتبٍ كثيئًا ما تحول قريحته النثر إلى شعر. من بين أوسع الدلالات لهذه الرواية القصيرة سبر مؤلفها صلاح المنصف لأغوار المشاعر المتناهية للأشخاص الخاضعين لكلٍّ من

الطغمة السياسية والأبوية العائلية، وسرده للحياة المحفوفة بالمخاطر المتزايدة لليهود الذين يعيشون في مدينة تناهى تحت نير المعاداة للسامية الثقيل والمظاهر الفاشية، وأثر الاستعمار في التعليم والحياة المدنية، وغير ذلك الكثير.

على الرغم من أن أصول حياة مريم الداخلية - وتملّصها طوال ثلاثة عاماً من تدوين ذكريات طفولتها المتواترة- أقل تعقيداً من تلك العوامل المسببة لحيرة طارق وآلامه، فإنها لا تقل أهمية عنها، وهي أكثر مباشرة في أثرها. فرواية "القربان"، كما تبين مقدمتها، تحكي قصةً، وفي ذات الوقت، هي "قصة تلك القصة"، فهي تحكي كيفية استرجاع النص من "تجاويف حاسوب محمول على وشك التلف" يرجع إلى مؤلفها المتوفى، ورفض الناشرين غير المهتمين المتذكر لها، وتوصيلها لمحرر أمريكي قام "بترقيعها بأحسن ما في الإمكان"، ونضد حروفها في إنجلترا، وطباعتها اللاحقة. بالمقارنة، تفتتح رواية "بنغازي" بمشهد نرى فيه مريم وزوجها باسل، الأستاذ في جامعة إنديانا في بلومونغتون، يتلذّذان بتناول كعك الشوكولاتة والقهوة ذات أصبوحة مشمسة من صباحات شهر أبريل سنة 1976. يتركها لوهلة ليعود بعدها حاملاً ظرفاً منتفخاً، منقوشاً عليه: "مع التمنيات بالشفاء العاجل" بالحروف الذهبية. تكتشف بداخله هدية وملاحظة، تقترح الجملة الافتتاحية فيها شيئاً: ملامة هديته لها (قلم حبر باركر)، وتذكيراً بطيئاً من ماضيها يعوق تقدمها كمؤلفة:

إحدى طرق التعامل مع علّي الماضي قد تكون في افتراضنا أن ما أصابنا بالعلّة صار الآن ضروريًّا لشفائنا على المدى الطويل. أرجوكم أكملي قصتك

الرائعة، وسأكون فخوراً بترجمة باقيها بنفس السرور الذي ترجمت به الجزء الأول.

تشي نبرة صوته التي يتناوب فيها التوسل والتشجيع، وحروف "الشفاء العاجل" المنقوشة على الظرف، يشي كل هذا بأن حالة مريم هي أحياناً منهكة كما أنها مستمرة. هل سيسيفها إنهاء كتابة القصة؟ تنتهي مقدمة القصة بعزمها على فعل ذلك بالضبط: "لعلَّ هذا هو أنساب وقت للقيام بهذا؛ إنهاء ما بدأته". الآن، بعد مرور ثلاثة عقود وعلى بعد نصف الكرة الأرضية من بنغازي، حان الوقت لمواجهة ذاك "الربيع الآخر" و"السنوات المضطربة التي أَدَتْ إِلَيْهِ".

ينقل مشروع مريم الأدبي القراء من أمريكا السبعينيات إلى ليبيا في سنة 1942، ثم إلى أوائل العام 1939 عندما تعرَّض والدها لأزمة قلبية قاتلة، وأخيراً إلى سنة 1937، وهو العام الذي جاء فيه بنفيتو موسوليني إلى بنغازي. كانت زيارته حدثاً مهماً، وعمل المنظمون على جعل وصوله فخماً كما لو كانوا يصمّمون عملاً مسرحيّاً أوبراً، فتم تركيب منصة في قلب ميدان المدينة الرئيس ترفّف عليه الأعلام والرايات من كل جانب (بما فيها علم إيطاليا ثلاثي الألوان "تريكولوري"). والأعلام، كما تلاحظ أنا بربنر في روايتها الحائز على جائزة مان بوكر "ميلكمان" "بائع الحليب" (2018)، وبخاصة الأعلام الوطنية، "اختُرِعْتْ" لتكون "غريزية وعاطفية - غالباً عاطفية من النوع المَرْضي النرجسي"-. وهكذا كان الوضع في تلك العشية في بنغازي، فعندما دخل "الدوشي"، "الزعيم"، في حُلْته العسكرية المزданة بالأوسمة والنياشين ممتنعياً حصاناً عربياً أسود اللون

حياه الحضور ”بعاصفة من التصفيق والتهليل“؛ وبلغ ”جنون“ الجمهور مداه عندما استلَّ موسوليني ”سيف الإسلام“ ولوَّح به فوق رأسه منتصراً. وصل القوي، وصل الكبير، وصل محاطاً بكل الفخامة والأبهة المصمَّمة خصيصاً لتلقي بهذه المناسبة العظيمة.

ازداد يوم الزيارة أهمية بالنسبة لآل خلدون عندما تم الإعلان قبلها أن موسوليني لن يزور المدرسة الإيطالية، ”سكولا إليمينتاري إي ميديا جيوفاني جينتيلي“ ”مدرسة جيوفاني جنتيلي الابتدائية والمتوسطة“، التي تدرس فيها مريم وأختها زينب فحسب، بل إن الأختين قد اختيرتا لتسلِّماً عليه بصفتهما ممثلتين عن المدرسة، وتم منح زينب الشرف الأكبر بتقديم ترحيب المدرسة الرسمي. تسبَّب ”صوتها الصافي النقي“ ولغتها الإيطالية السلسة عند قراءتها خطاب الترحيب في انتفاح موسوليني فخراً، بل وصل الأمر بضيوفهم المميز بالذهول:

يبدو أن هذا الإنجاز قد وجد طريقه بسرعة إلى قلب الطاغية شبه المهرج الذي ظهر متصلباً ومحمراً، كما لو أنه تم تقييده في بُرْتَه العجيبة، فقد رفع حاجبيه، وحظى بعينيه، وأعطى أخي إيماءة برأسه تنم عن الإعجاب العميق المشوب بالاحترام.

كانت إيماءة إعجاب موسوليني مصحوبةً بقوله ”براها، براها“ ”أحسنتِ، أحسنتِ“ المتحمَّسة. ومع هذا كان في نظر مريم، في نضح غير معتادٍ ”طاغيةً شبه مهرج“ يرتدي بزة ”عجيبة“ . من أين جاء هذا الأسلوب اللاذع؟ وهي نزعةٌ لم نتعرَّف عليها حتى الآن. ما العوامل التي أظهرت أسلوب مريم الساخر؟ هل كان الدكتاتور حَقّاً كوميدياً أحمق هابط

المستوى، مبشرًا بطغاة اليوم المنتخرين الذين يتباخرون في مسرحيات الهزل السياسي الرخيصة.

كما ستعلم لاحقًا، لم يشارك كل أفراد عائلتها، التي كانت تقدر فضيلة الإخلاص أيمًا تقدير، في هذا الزهو. فعلى ما يبدو، لم يُسر الجميع بأبهة الموكب واستعراض "التريكولوري" [العلم الإيطالي الثلاثي الألوان]. في الحقيقة، قبل هذه العشية الاستثنائية بزمن، أثار تسجيل مريم وزينب في "مدرسة موسوليني" اعتراضًا مكتومًا في بعض أجزاء العائلة، لكن ألم يكن هذا الخلاف على المدارس أو مشاركة البنتين في الترحيب "بالدولي" [الزعيم] هو المسؤول بالتأكيد عن قلق مريم؟ بل إن مجرد طرح سؤال كهذا يستدعي معضلة ماري روتى في مقدمتها لرواية القربان: "أَنَّى لِي مناقشة هذه الرواية دون البوح ببعض عناصر حبكتها التي تجعل منها تجربة قراءة مميزة جدًا؟" كان الحل، المعقول جدًا، الذي توصلت إليه يتمثل في تجنبها للسرد الروائي و"التمسُّك بمغزى الرواية العاطفي والوجودي"، وسأحدو أنا حذوها، إلا إنه في بعض الأحيان يفضل التقتير عن التجنب الكامل، مهما كانت استراتيجية الشُّح بالمعلومات هذه غير مرضية، لذا لن أفصح إلا عن الآتي: حدث شيء آخر نتيجة لذاك اليوم المهم، وبعد مرور ما يقرب من أربعين عامًا على ظهور الفاشي الإيطالي في ليبيا، تقرر مريم، مشمولةً بتشجيع زوجها ومتأثرة باستعطافه، تقرر أن تواجه شيئاً لم تكتب عنه، بل لم تستطِع أن تكتب عنه. وها هُنا فُتات معلومة صغيرة أخيرة: هذا "الشيء"، الذي ينكشف شيئاً فشيئًا مع سير الرواية قُدُّمًا، موصوف بجمالٍ لا يضاهيه سوى إيلامه، ومروري بُلطفٍ بارع.

والأجمل من هذا كله هو أوصاف بنغازي العديدة، أوصاف المدينة وهي تشكل، كما تلاحظ روتى، شخصيتها المستقلة بذاتها والمصورة في المناظر الطبيعية والمدنية التفصيلية. ومما يدعو إلى الفرح وفرة هذه المناظر في الرواية لدرجة أن اختيار أحداً كمثال لا يتطلب سوى مجهود يسير ولا يشكل أي خطأ في البوح بأكثر مما يجب عن حبكة الرواية. خذ مثلاً نظرة مريم إلى ميدان السوق في بنغازي من منظورها وهي راكبة في حافلة متوقفة عن قرب:

تنتصب أشجار البرتقال الكاملة الحجم التي تحوط ساحة سوقنا الخارجي ذات الأجر الأحمر، في أصصها الخشبية، مشرقة كالعهد بها دوماً. أوراقها اليابعة تم تنظيفها بملمع أوراق الشجر، كالعاده، وثمار برتقال أبو سرة تضيء كالقناديل وسط الأوراق الخضراء الكثيفة. وخلف هذه الأصص المرتبة بنظام، تقع مناظر سوقنا المتنوع المعتادة: صفوف من الورود والزهور المبهرة على بسطات بائعي الورود، وأروع الفواكه والخضروات المرتبة بفن على طاولات بائعي الخضار وعرباتهم، ألوانها تلمع مشهية من بعيد مثل الأطياف الساحرة لألوان القيشاني الشرقي المنمق.

تمتلئ رواية "بنغازي" بالكثير من استرجاعات الزمان والمكان المذهله: العمارة شمال الأفريقية وحياة المدينة المفعمة بالحيوية؛ التفاعل العائلي والأثر المكثف؛ الدقة المحكمة والغموض المثير. وهكذا، مع إمكانية حدوث انسجام عند القارئ، كما هو الحال مع رواية القربان، فمن خلال تشويق البحث في الأدلة وسبر أغوار ذاكرة شخصية روائية، تمنحنا رواية بنغازي فرضاً عدداً للاسترسال في رفاهية جمال العالم الخارجي الذي

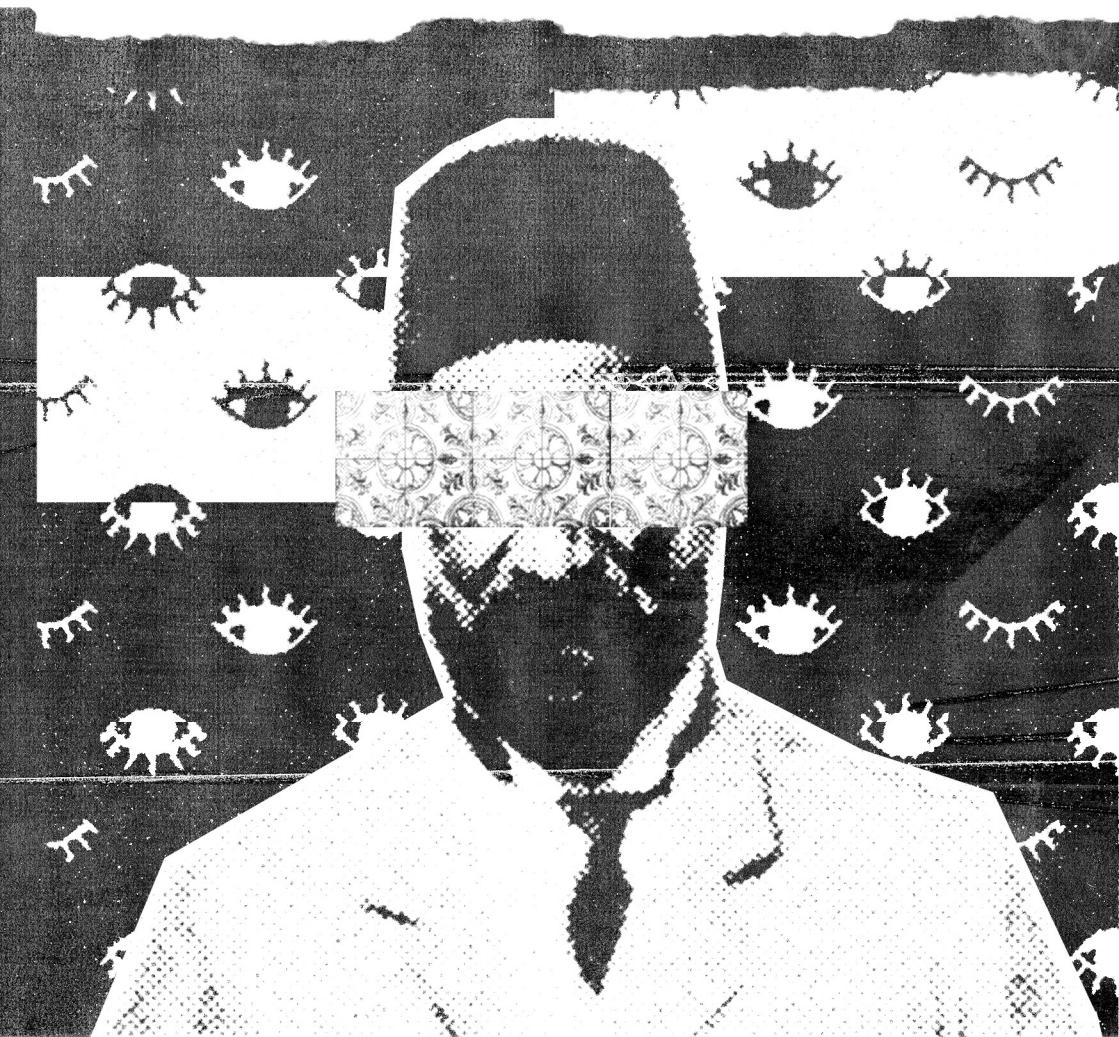


جانب من شوارع بنغازي، بالقرب من ميدان الشجرة

يبدعه المنصف.

وأخيراً، هذا العالم عبر وطني، وحيوات شخصيات صلاح المنصف هي كذلك "عبر وطنية". مع صعوبتها واستحالتها أحياناً، الحياة عبر الوطنية هذه هي الحياة الوحيدة التي يرحب طارق عباسى في رواية القربان أن يعيشها "على الرغم من أضرار الكراهية العنصرية والعنف"، وهي الكوابيس التي نجت منها مريم البالغة في بلدة جامعية أمريكية صغيرة، فإن المواطن عبر الوطني ذا وجهة النظر الدولية عليه، لا محالة على ما يبدو، أن يناهض زحف أرتال الوطنية حتى يحل محلها عالمٌ عبر وطني أكثر تكاملاً. وإلى أن يحدث هذا، على شخصيات روائية مثل طارق ومريم أن يحملان ندوبيهما من العالم التي يعيشان فيها. أحد التعبيرات المجازية المعبّرة عن علامات الماضي هذه، التي تظهر بطرق شتى في حياة هاتين الشخصيتين، هو ما يسميه بول ريكور في تحفته الفنية "ميمروري، هيستوري، فورغيفتينغ"، "الذاكرة، التاريخ، النسيان" (2004) بالنقش. توحى كلمة "النقش" بطيفٍ من النقوشات من "مع التمنيات بالشفاء العاجل" المكتوبة على الطرف الذي تستلمه مريم من زوجها إلى الخدوش على ركيزة الذاكرة الشمعية التي يشبهها فرويد "بدفتر كتابة باطنية". لبعض النقوش، مثل نقش مريم، بعدُ زمني عميق. يرى ريكور أن هذه "أعقدها لكنها أعمقها دلالة" لأنها تشير إلى "المثابرة السلبية للانطباعات الأولى: حدث صدمنا، أثر فينا، وتظل علامة الأثر في بنا". يدرس صلاح المنصف هذه العلامات في رواية "بنغازي" كما في كثيرٍ من رواياته، ويفعل ذلك بأسلوبٍ نثريٍ بديع لن يشبع منه القراء. فسيرغبون المزيد.

إِدْرَكَاتٍ



الصعود من الشر: تأملات مشكالية في مستقبل تاريخنا

خالد المطاوع

1. تمهيد

لم أدرس التاريخ بشكل رسمي، ولكنه كان هاجسًا حاسمًا لدىًّا منذ بداية انحراطي في الكتابة، ومع التاريخ معضلة الهوية، ففي المهجـر الاثنان يتضادان أو يلتحمان، فتـجد في المهجـر من يمحـو تاريخـه رغبةً منه أو تـلبـيةً لرغبة بلـاد تـريد أن تـصـهرـه، أو سـعـيـاً لـالـاخـتفـاءـ بـيـنـ الجـمـوـعـ، أو لـالـانـطـلـاقـ فـيـ بـدـاـيـةـ جـدـيـدـةـ وـمـسـتـقـبـلـ جـدـيـدـ بـعـدـ مـعـانـةـ طـوـيـلـةـ. وـتـجـدـ أـيـضـاـ فـيـ المـهـجـرـ منـ يـتـذـكـرـ بـعـقـمـ، وـيـدـوـنـ وـيـكـتـبـ الـكـتـبـ، وـيـقـيمـ الـمـؤـتـمـرـاتـ، وـيـبـيـنـ مـتـاحـفـ لـكـيـ تـبـقـيـ ذـاـكـرـةـ موـطـنـهـ الأـصـلـيـ جـيـلـاـ بـعـدـ جـيـلـ لـيـحـفـظـ بـهـوـيـتـهـ وـيـطـوـرـهـ، بلـ وـلـيـسـانـدـ أـهـلـ موـطـنـهـ لـحـفـظـهـ. وـفـيـ المـهـجـرـ تـعـلـمـتـ مـنـ أـصـدـقـائـيـ الـفـلـسـطـيـنـيـنـ إـصـرـارـهـمـ عـلـىـ ذـاـكـرـتـهـمـ، وـكـنـتـ إـذـاـ قـاـبـلـتـ الـأـجـيـالـ الشـابـةـ مـنـهـمـ وـالـذـينـ لـمـ تـطـأـ أـقـدـامـهـمـ فـلـسـطـيـنـ أـسـأـلـهـمـ عـنـ الـقـرـيـةـ التـيـ أـتـوـنـهـاـ. لـمـ يـخـذـلـونـيـ أـبـدـاـ، دـائـمـاـ يـذـكـرـونـ اـسـمـ قـرـيـةـ أـجـدـادـهـمـ التـيـ فـيـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـحـيـانـ تـمـتـ إـزـالـتـهـاـ وـإـعـادـةـ تـسـمـيـتـهـاـ وـلـكـنـهاـ بـقـيـتـ فـيـ ذـاـكـرـتـهـمـ كـحـقـ مـهـضـومـ يـحـفـزـ لـلـحـيـاـ. وـهـنـاـ يـأـتـيـ عـاـمـلـ التـارـيـخـ وـالـتـحـاـمـهـ بـالـهـوـيـةـ التـيـ بـحـكـمـ طـبـيـعـتـهـاـ تـنـظـرـ إـلـىـ الـمـاضـيـ وـالـمـسـتـقـبـلـ مـعـاـ، وـتـسـتـسـقـيـ مـنـهـمـاـ الـوـاقـعـ وـالـأـمـلـ الـذـينـ تـتـغـذـيـ

منهما الذات.

كتبت هذه التأملات بتحفizer من كتاب أخي الأستاذ على حميده "الإبادة الجماعية في ليبيا - الشر، تاريخ استعماري مخفي"، والذي أثار أسئلة جديدة، وبث النشاط في أسئلة قديمة لدى. كما اقترح هذا الكتاب القيم سبيلاً جديداً لدراسة وكتابية تاريخنا، بل وأجج آمالاً وطموحات جديدة لمستقبلنا ومستقبل تاريخنا. تتطرق هذه التأملات إلى مواضيع عديدة قد يكون بعضها شائجاً وغير مريح، كما توسع حيز التأمل في تاريخنا والتنظير والمقارنة ربما بشكل يستغريه أو يستهجنـه الكثيرون. ما أطرحـه هنا يسعى إلى تحفيـزـنا لكتابـةـ تاريخـ أكثرـ واقعـيةـ وأـكـثـرـ شـمـوـلاًـ،ـ تاريخـ لاـ يـنـسـيـ الصـحـاـيـاـ،ـ وتـارـيـخـ يـحـمـيـ نـفـسـهـ وـيـحـمـيـ نـفـسـهـ منـ استـغـلـالـ الـذـاـكـرـةـ وـتـغـيـيـمـهـاـ.ـ كـمـاـ أـمـلـيـ منـ هـذـاـ طـرـحـ أـنـ يـحـفـزـنـاـ لـنـكـتـبـ تـارـيـخـاـ يـسـعـىـ إـلـىـ اـسـتـجـوـابـ أـوـلـوـيـاتـنـاـ وـمـبـادـئـنـاـ،ـ عـلـّـنـاـ عـنـدـمـاـ نـكـتـبـ تـارـيـخـاـ أـكـثـرـ عـمـقـاـ وـأـمـانـةـ نـجـدـ مـاـ نـسـتـدـلـ بـهـ لـيـخـرـجـنـاـ مـنـ مـحـنـنـاـ،ـ وـهـيـ كـثـيـرـةـ.

2. التاريخ بين الظلام والظلم

خلف وأحياناً حتى في صميم ذكريات الناس غير المؤرخة ساد الظلام التاريخي، وفي ذلك الظلام الذي يغلف المكان والزمان ترعرعنا.

في. إس. نايبل

مثل العديد من الليبيين، علمت بالمعتقلات الإيطالية بجرعات متقطعة. برنامج درامي على التلفزيون ربما، أو فيلم قصير بالأبيض والأسود عن

غيث الصغير. التمثيل الميلودرامي والشعور بالظلمة يكاد يخنق أصوات الممثلين، ما يجعلهم غير مقنعين، ثم ببرامج عديدة حيث مذيع شاب يدفع الميكروفون أمام الناجين القدامي ويطلب منهم أن يبوحوا بما صابهم بالمعتقلات بشكل مختصر، كلها ممارسات ارتجمالية حجبت مدى الفجيعة التي لا زالت تسري في كواليس وعينا. أما التاريخ الوطني الذي يُعلم في المدارس فكان مجرد تلقين وجزء من التكوين الأيديولوجي الذي يرتكز على عظمة الأمة ونقاء تاريخها، وهذا حال أغلب دول العالم.

بالنسبة لما ذكره شخصياً، وما يذكره الأستاذ حميده في كتابه، فمع نهاية السبعينيات ومع بداية الحقبة التي بدأ فيها القذافي وضع نظريته العالمية الثالثة في الممارسة العملية، ومع ظاهرة عبادة الشخصية التي عجّ بها الأثير وكل مظاهر المجال العام في ليبيا، بدأت الإشارة إلى ذاكرة معسكرات الاعتقال الإيطالية تختفي. كان انقلاب الفاتح قد جعل قضيته ضد الإمبريالية والاستعمار مركز اهتمامه ومع قيود الزعيم المبجل وكتيباته الخضراء الثلاثة بات الانقلاب إعصاراً في طريقه لاقتحام العالم، وهكذا وبسرعة أصبحنا في زمن الأبطال المنتصرين لا وقت فيه للضحايا.

ومع ذلك، بالنسبة للعديد من الليبيين، ظلت ذاكرة المعتقلات في الوجود، بعضها حاد وغير قابل للنكر، وظلل البيت الأول في قصيدة رجب بو حويش، "ما بي مرض غير دار العقيلة" مدموعاً في الذاكرة الشفوية الليبية. أضاف إلى ذلك صورة الشيخ عمر المختار التي بقيت شارة تشغل ذاكرتنا بماضي الأمة. ولكن ملامح هذا التاريخ باتت غير واضحة، كما يؤكّد ذلك كتاب الأستاذ حميده في حواره مع شباب بلادنا الذين معظمهم لم يعرفوا

عن المعتقلات الفاشية، ومن كانوا يعرفون شيئاً كان مصدره السرد الشفوي من الأجداد حيث باتت قوى الذاكرة تفتر وكاد التاريخ أن يتحول إلى ماضٍ سحيق.

لم يكن الدكتاتور وحيداً في تجاهله للتاريخ الليبي، بل كان يضيف إلى زخم متراكم من التجاهل.¹ فبالنسبة للبريطانيين جعلتهم نشوة انتصارهم في شمال أفريقيا يهملون محاكمة جرائم الحرب ضد الجنرالات الإيطاليين القتلة، وربما لم يخطر عليهم الأمر أساساً، وبدون شك غير راغبين في أن تُفتح ملفات مذابحهم القديمة واللاحقة في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. وما كان للولايات المتحدة الدولة التي تكونت على أنقاض الإبادة الجماعية للهنود الحمر أن تخوض فيما قامت به إيطاليا، خاصة وهي تحتاج إلى إيطاليا ليبرالية على أنقاض الفاشية لتقف أمام المد الشيوعي. أما إيطاليا فيبعدهما شنق ثوارها موسوليني وعشيقته في ميلانو فقد شعروا بأنهم أنتموا مسيرة التنوير نحو شعوب "الفاشيتا نيرا"²، وأما عن الأضرار الجانبية مثل المجتمعات والإبادة الجماعية فهي تكلفة تصدير الحضارة، وسيكون شعور

1 تم نشر نسخة مبدئية من هذا المقال في مجلة لمة للدراسات الليبية في عددها الثاني، 2023.
<https://escholarship.org/uc/lamma>
أود أن أخص الصديق الأديب سالم العوكي بالشكر والامتنان لاطلاعه على هذا المقال ولتقديمه العديد من الملاحظات المفيدة.

للاطلاع على موقف الحلفاء من التحقيق في الإبادة الجماعية في ليبيا، راجع كتاب د. حميدة: Ahmida, Ali Abdulatif. *Genocide in Libya: Shar, A Colonial History*. New York: Routledge, 2021. P. 113.

2 Faccetta nera هي أغنية شعبية عن الحرب الإيطالية الإثيوبية (1935) كانت ينشدها الفاشيون خلال مسيرتهم الاستعراضية. في الأغنية، يخبر جندي فاشي ذو قميص أسود أثناء غزو إثيوبيا محظية شابة جميلة أنها ستتحرّر من العبودية وسيحكمها نظام عادل جديد، ثم يدعوها إلى موكب مع القمصان السوداء في روما حيث ستعيش حياة أفضل.

الرجل الأبيض بالذنب كفاراة كافية لمحو كل سيئاته.

أما المملكة الليبية حديثة المنشأ، الفقيرة كالمالم لم يكن مثل هذا الجهد من أجل الحقيقة والعدالة ممكناً بعد الحرب العالمية الثانية في بلد نسبة الأمية فيه كانت تصل إلى 90% وحين كانت ليبيا المضطربة تحاول الحصول على استقلالها من القوى العظمى. أضف إلى ذلك الانقسامات الإقليمية التي كانت بحاجة إلى عنابة خاصة. تلا ذلك البروباغاندا القومية التي نشرت الأكاذيب ضد ليبيا وقدّمتها ككبش فداء لقصورها وإحباطها. كما حاصرت توترات الحرب الباردة والصراع العربي الإسرائيلي ليبيا ولم يسْنح للبيّن حيراً كافياً لتدوين تاريخهم وترسيخ فهمهم له. ثم جاء عصر النفط وضجيج تطُوره المدوي والإمكانيات المذهلة للرفاهية التي بدت كأنها اليسر الذي لا بد أن يتبع العسر، تحفيزاً لترك ما مضى والاندفاع قدماً نحو سراب المستقبل.

أما نظام القذافي فكان أيضاً مستريراً من التاريخ، وإن قامت بعض مؤسساته بأكبر قدر في توثيقه، مثل مجموعة المحفوظات والإثنوغرافيات التي يشير إليها كتاب الأستاذ حميده. بعد سنوات قليلة من استلامه السلطة بدأ النظام في تكرار جرائم الاحتلال الإيطالي بعمليات الشنق في الجامعات والساحات العامة والصالات الرياضية، والتعذيب السادي، والمحاكمات الجائرة، والنفي، والاعتقالات إلى أجل غير مسمى مثل التي واجهها أسلافنا خلال الحقبة الإيطالية. جعلت هذه الممارسات، التي كان القذافي نفسه يتباھي بها، التنکيل بجرائم الاستعمار مجرد مهزلة أمام الليبيين.

وبعد عشر سنوات من التمرد الذي أطاح بالقذافي، يبدو أن القيادات السياسية والنخبة عموماً غير قادرة على معالجة التاريخ أيضاً. مذبحة بوسليم التي

أسهمت أكثر من أي فظائع القذافي الأخرى في سقوط نظامه، ما تزال غامضة الآن كما كانت عندما تم الكشف عنها لأول مرة قبل أكثر من عشرين عاماً. وللأسف مع استمرار اكتشاف القبور الجماعية لليبيين اغتالهم ليبيون آخرون خلال التمرد الذي أسقط نظام القذافي، بين العديد من الفظائع الأخرى التي ارتكبها المقاتلون في صراعاتنا الأهلية الحالية، نحن بعيدون جدًا عن سرد الأحداث وتاريخها على الرغم من الكم الهائل من التوثيق المتوفر لذلك. وكما كان الحال في عهد العقيد، فإن أي محاولة الآن لمعالجة الفظائع التي ارتكبها نظام القذافي، بمعزل عن تلك التي جرت بعده، ستبدو ساخرة ورائفة. لن نتوقع إذن من مصلحهم أن يُعتبر التاريخ أن يعيدهم حيًّا.

ساند هذا التجاهل الرسمي هشاشة السردية الشعبية التي تم نسجها عن تاريخنا، والتي تفتقر إلى الدقة والموضوعية، ملحمات غالب فيها الحس الأدبي على الواقع. ونأمل أن نضيف السير الفردية أو الجماعية التي تخص قبائل أو مناطق معينة وأبطالها، “التي اختزلت في سرد بعض الأحداث التاريخية التي تمجد الفرد/الزعيم تارة والقبيلة/الجهة تارة أخرى”³ يظهر فيها أسلاف المؤلف بأنهم قاموا ببشرية لم يدخلوا على الأمة شجاعتهم، ولم يسيئوا أبداً إلى جيرانهم أو تصرفوا بجشع أو طيش أبداً. عند قراءة مثل هذه السردية من الماضي الليبي، يتساءل المرء لماذا كان أداء الأمة سيئاً للغاية طيلة قرون مضت، بل ومن دون تاريخ مكتوب غير الذي كتبه الغرباء والزائرون؟ وإن كنا فعلاً بهذا النقاء لماذا، عندما جاء عهد التوثيق وبدأ يدرون ما قمنا به، وجدنا

3 محمود أحمد بوصوة، “جدلية المجال والهوية: مدخل لتاريخ ليبيا العام.” طرابلس: دار الرواد، 2012، ص 560.

تناثر في العقود الأولى في القرن العشرين⁴، بل وكَرَّنا نفس السيناريyo في القرن الحادي والعشرين؟

لعلَّ أهم العوامل التي جعلتنا نفضّل الماضي عن التاريخ هي النوستالجيا لعصور بتنا نراها أفضل من عصرنا الحالي. فهناك من ينظر إلى إيطاليا المعاصرة وما تركه الإيطاليون من معمار مميز في ليبيا والبني التحتية التي جلبت الحداثة معهما، على الرغم من أن الليبيين كانوا غير مقصودين بهذا التطور، كإرث يدل على أفضلية تلك الفترة في تاريخ البلاد. وهناك من يتذَكَّر عبر أسلافه وجود الإنجليز وأثرهم، وآخرون يتذَكَّرون الأمريكان في قaudتهم في طرابلس ومظاهر الرخاء التي جلبوها معهم بأن ذلك إرث ما كان ينبغي أن لا نفترط فيه. كما أن هناك حنيناً يخصُّ العهددين الليبيين السابقين، وعنهمما تقول الروائية وفاء البوعيسي إن "عموم الشعب (الليبي) يتشاركون على الماضي، بعضهم يريد استعادة نظام القذافي... رغم أنهم خذلوه وانفضُّوا عنه من الأسبوع الأول لاتفاقية فبراير، بعضهم يريد استعادة النظام الملكي، وغالبيتهم لم يعاصر تلك الفترة ولا يعرف عنها إلا القليل".⁵

4 يكتب الأستاذ محمود أبوصووة، مستشهدًا بالشيخ طاهر الزاوي: "... دور إيطاليا في زرع الفتن في كل إقليم على حدة، على أهميته لا يمكن أن يكون هو الآخر المسؤول الرئيس عن دخول الجزء الغربي من البلاد في حرب أهلية لا تبقي ولا تذر!... كما يشدد على ذلك الشيخ طاهر الزاوي، وتسبّبوا بالتالي في كارثة اخترط فيها المظلوم بالظلم، وتطاحن فيها الآباء مع الأبناء والأخ مع أخيه... حرب تؤى قيادتها رؤساء لم يكن لهم من الدين وازع ولا من الأخلاق رادع رؤساء أخلصت لهم الرعية فاستعملوها فيما يغضب الله ولا يرضي

الإنسان... حرب ضاعت فيها نفوس بريئة وعلى مذبح مطامع الرؤساء شهواتهم وفقد الوطن فيها من شيوخ أبنائه وكهولهم ألوًّا كانوا على استعداد للدفاع عنه يوم ينزل به البلاء ويحيط به الأعداء...، "جدلية المجال والهوية: مدخل لتاريخ Libya العام" طرابلس: دار الرواد، 2012، ص 582-83.

5 وفاء البوعيسي: "أراقب العالم الغبي من مكانٍ وهو يعود القهقرى ببطء شديد". موقع Libya المستقبل، 2021/9/29

البوعيسي-أراقب-العالم-الغبي-من-20%29958.html

يغدو هذا الحنين للماضي عاملاً نفسيّاً أولّهُما ما يسمّيه علماء النفس الكظم أو الكبت النفسي الذي يؤدي إلى نسياننا لأفكار وذكريات ومعلومات تسبّب لنا الضيق والقلق والاضطراب،⁶ ما يساعدنا في أن نستعيد توازننا النفسي لوقت ما. ونجد هنا مثلاً أن النوستalgia للاستعمار تكظم كل سيّاته وعنفه واستغلاله وتُبقي في الذاكرة ما تراها من حسناته، وكثيراً ما يتراكم ذلك على جلب الحداثة للشعوب المستعمرة. أما العامل الآخر لهذا الحنين إلى الماضي هو الإسقاط النفسي⁷ الإيجابي⁸، ما سُميّ أيضًا بـ"الاستذكار الوردي"⁹، ويحدث هذا عندما يقوم الشخص (أو الجماعة) بإعادة تشكيل وتجميل ذكرياته، ما يجعل التجارب الإيجابية السابقة أكثر إيجابية مما كانت عليه في الواقع.

ولا بد أن نذكر أن هناك وجهة نظر عتيبة متقدّدة في منطقتنا عموماً لا يرى أتباعها في التاريخ أو للتنظير للمستقبل فائدة أساساً، وما يطمحون له

6 أسعد شريف الإماري، "الكبت Repression والتفریغ التنفیس" .. شيء من التحلیل النفسي،" صحیفة المثقف، 2022/4/26.

<https://www.almothaqaf.com/aqlam-3/962644-repression--الكبت--التفریغ--التنفیس--شيء-من-التحليل-النفسي>

7 الإسقاط النفسي Projection هو آلية دفاع عن النفس عادةً ما تكون نحو المشاعر السلبية حيث يُسقط الفرد بشكل لا شعوري مشاعره السلبية نحو ذاته على الآخرين، فبدلاً من أن يلوم ذاته عليه يقرّ أن هناك آخرين يشعرون بمشاعر سلبية نحوه: <https://www.almrsal.com/post/1100823>

8 Projection of positive qualities أما الإسقاط الإيجابي أو إسقاط الصفات الإيجابية (على الآخر) يحدث حين يجعل الفرد لا شعورياً الآخرين مستوًدعاً لمشاعره الإيجابية الكامنة نحو ذاته، هنا يرفع من قدر بعض الأشخاص بأن يسقط عليهم صفات يراها أو يتمناها أن تكون في ذاته، بينما هذه الصفات لا توجد في من هو أسقطها عليهم: <https://evolutioncounseling.com/projection-of-positive-qualities>

9 عن الاستذكار الوردي:

"Rosy Retrospection and Declinism: Why the Past Looks Great and the Future Is Frightening"

<https://effectiviology.com/rosy-retrospection-and-declinism/>

في كل ما يقدّمه العالم من ابتكارات واكتشافات، فهي إما أن تخدم فكرهم وإما فلا معنى لها. كما أنهم ينفون أي علمٍ لا يثبت ما علموا به سابقاً، ولذا يحدّدون تعاملهم مع المعرفة الجديدة لإثبات معرفتهم المسبقة ولا أن يقدّموا معرفة جديدة. أما بالنسبة للتاريخ فهو سطحي ودائي، لا يتعلّمون فيه ولا ينظرون في أبعاده، فالبشر لا يتطّوروه ولا يتعلّمون من بعضهم البعض ولا يتغيّرون، ولم ولن يخرجوا أبداً عن التوقعات التي أسّستها فلسفتهم عن الإنسان وقدراته ومصيره. وإن كان هناك جزء من التاريخ البشري مفید لهم، فهو فترة نموذجية في الماضي تُغّلف بكم هائل من الإسقاط الإيجابي حتى تتجاوز كل الإنجازات الإنسانية الأخرى. الإشكالية أن هذا الإحساس بماضٍ فريد لا يمكن تكراره يفعّل الجوانب السلبية للإسقاط الإيجابي، فإذا الماضي الجميل لن يعود، فحتّماً سيشعر الناس بأن العالم في حالة انهيار وتدّهور مستمر¹⁰، وهنا يتحول هذا التوق للمستحيل إلى إحساس بأن الحياة ما هي إلا نوع من العبث. وهذا ما نراه في واقعنا الآن حيث الغالبية العظمى من شعوب منطقتنا يشعرون أنهم دون أي إحساس بالفاعلية، بل أنهم يعيشون في الوقت الضائع خارج سياق التطورات التي تجري في العالم وسيستمرون كذلك حتى يوجد القدر وتسترجع الأمة عظمتها المفقودة.

وبما أن وضعية الحاضر في أي بيئة بشرية هي التي تملي التاريخ الذي يُكتب فيها، وبما أننا في زمن تفتقد فيه القوى الفاعلة والنخبة الرؤية،

10 لم نجد ترجمة مناسبة لمصطلح Diclinism ربما قد نسميه الرؤية التقهقرية، وهي "الاعتقاد بأن بلدًا أو مجتمعاً أو مؤسسة معينة في حالة تدهور كبير وربما لا رجعة فيه"

"Why we feel the past is better compared to what the future holds: Diclinism, Explained". <https://thedecisionlab.com/biases/diclinism>

فلن نتوقع إلاكتابة تاريخ حسير البصر. ولكن بدون شك أيضًا أن في كل وضع مظلم في ليبيا هناك من يشعلون شمعة للآخرين، وأن تاريخ ليبيا يثبت أنه ليس مثل تمثال أوزيماندياس الذي غمرته الصحراء، والذي حاول ذوو السلطة دفنه أو التغاضي عنه، بل نراه يرفع الرمال عن ذاته ويواجهها بحقائقه. ولعل كتاب الأستاذ حميده عن الإبادة الجماعية الإيطالية مثالٌ جليٌّ عن ذلك، يعيد ويدركنا بتوثيقات جديدة ما كدنا ننساه، ويضع تاريخنا في سياق تاريخ الحداثة المعاصر.

3. النقد ما بعد الاستعماري وتاريخ أضعف الإيمان

من رأى منكم منكراً فليغیره بيده، فإن لم يستطع
فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف
الإيمان.

(حديث شريف)

للدفاع عن ذاتي ستكون الأدوات الوحيدة التي
تسأمسح لنفسي باستعمالها هي الصمت والمنفي
والحيلة.

جيمس جويس

إن شعوب الأرض المضطهدة ليست رموزاً
لاضطراب الضمير الأوروبي وشعوره بالذنب، بل
إنهم أشخاص فاعلون يمكن من خلالهم تعلم
كيفية ممارسة الذكاء السياسي والعمل.

ألان باديوه

إذا أردنا أن يكون لنا تاريخ حديث يخلع عن ذاته الملحمات والأساطير وثنائيات الوفاء والخيانة والشجاعة والجبن، فلا بد إذن أن نتعامل مع تنوع مواقف الناس في تلك الفترة، وأقصد هنا بالذات فترة الاستعمار، وأن ننظر إلى الأحداث بمنظور تقييمي وتحليلي أوسع. المبدأ الأول هو محاولة كتابة التاريخ ليرصد كل أنواع المقاومة وحتى أشكال التعايش مع الاستعمار لأن هذا التعايش لا يخلو من التحدي، كما أن معرفة أسباب هذه المواقف تعطينا صورة أوضح عن العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حينها. محاولة كتابة التاريخ بانتقاء بعض العوامل ونفي بعضها ليس تاريخاً إنما أسطورة أخرى.

بالنسبة لرصد المقاومة واختلاف أشكالها فكما يدلّنا الحديث النبوى الشريف عن مقاومة المنكر، فهى باليد، أو المقاومة الملموسة التي قد تصل إلى القتال، ثم باللسان وقد يضمُ ذلك كل أشكال التعبير الرمزي واللغوي والفنى، ثم أخيراً بالقلب الذى يسمى هنا أضعف الإيمان، والذى يوحى بأن الصمت أمام المنكر ليس من علامات الرضا، بل يخفى عملاً ذهنياً عميقاً لكي لا يتمكّن المنكر من وجdan الذى يقاومه. وعندما نلجم إلى النقد ما بعد الاستعماري المعاصر نجد هناك تواافقاً مع الديناميكية التي يقدمها لنا الحديث الشريف، فكما قاوم شعب Libya الاستعمار نجد في جنوب أفريقيا وكينيا وفيتنام والجزائر وفلسطين وشعوب الأمريكيةتين وغيرها تواريХ حافلة من المقاومة باليد واللسان والقلب.

ولأن الحديث هنا بالذات عن أقل أنواع المقاومة: المقاومة بالقلب، والتي هي بدون شك أكثرها شيئاً بين المستضعفين والمقهورين، فلعل جملة

جيمس جويس التي نذكرها في أعلى هذا المقطع مفيدة لنا أيضًا. يقرُّ جويس أن الصمت أداة أساسية للدفاع عن الذات ولثبيت القلب وعدم التفريط بما لديه من الفاعلية، إذ أن الصمت هنا يضمِّن نشاطًا فكريًّا وروحًّا حاسماً. وإذا تشعَّبنا في النقد ما بعد الاستعماري، نجد مصطلح "تصفية استعمار العقل" للكاتب الكيني نغوغي وا ثيينغو¹¹ (Ngugi wa Thiongo) الذي له جذوره في أعمال فرانتز فانون ويوحي بصدِّي مصطلح "القابلية للاستعمار" لدى مالك بن نبي، والمقصود به مقاومة التشكيل الفكري الذي يؤسِّسه الاستعمار في عقول الشعوب المستعمرة، وبخاصة عبر تغلُّله اللغوي في ثقافتها. كل هذا النشاط الذهني الصامت مهم لتطوير وسائل المقاومة الأخرى، وما يذكره جويس عن المنفى أو الهجرة هو امتداد لتلك المقاومة، وقد يكون فرصة للدفاع باللسان عن بعد. ولم يُستَّ فكرة المنفى أو الهجرة غريبة علينا تاريخيًّا، فكثير من قادة المقاومة وجموع كبيرة من أتباعهم اضطروا إلى الهجرة إلى المنفى ليجمعوا قواهم وليساهموا في تغيير الوضعية السيئة في موطنهم.

أما عن الوضعية غير العادلة بين المستعمر الأوروبي والشعوب المستعمرة فيقرُّ نقاد النهج ما بعد الاستعماري أنها ليست علاقة ثابتة. النقطة الأولى التي قد نثيرها هنا تخص سياسات الاستعمار التي تصرُّ على تفضيل المستعمر وإعطائه صلاحيات واسعة كقوة حاكمة وكأفراد استثنائيين يحقُّ لهم ما لا يحقُّ لمواطني البلاد التي غزوها. إلا إن القوة المهيمنة لا بد أن تبَرُّ بشكل مستمر لذاتها ولغيرها هذا التمييز والمعاملة السيئة

11 انظر نغوجي وا ثيينغو "تصفية استعمار العقل"، ترجمة سعدي يوسف. دار التنوير، دمشق، 2013.

عموماً، وتبقى في حوار معلن وغير معلن عن إمكانية المساواة في فترة ما، أو عن نوع من التخطيط المستقبلي يسعى إلى نوع من العدالة في العلاقة بينهما. إذن فالاستعمار الغربي الحديث، بحكم المفاهيم والقيم التي أسسها مفكريه مثل جان جاك روسو وجون لوك فيما يخص الحقوق الطبيعية لكل البشر وعدم منطقية التمييز بين الفئات البشرية، كان يحاول أن يرسخ شرعية حكمه على مبادئ كانت سياساته تناقضها تماماً. ومن هنا مهما تمسّك الاستعمار بمبررات صلاحيته الواسعة فهو يضطر بشكل أو آخر أن يقرّ بأن هيمنته مؤقتة حتى "تنور" الشعوب التي يحكمها وترفع نفسها فكريّاً للمساواة معه. فرضت هذه المعضلة على النظم الاستعمارية أن تقدم تبريرات هي نفسها تعلم أنها غير مقنعة، وكلما طال هذا التبرير المنافق ازدادت حالة التفسخ والهزلية في كينونة النظم الاستعمارية. قد نقول أن كل حركات التحرير بين الشعوب المستعمّرة وجدت في هذا التناقض نقطة ضعف جوهرية في خطاب الاستعمار، ومارست صراعها معه مسلحة بصواب سعيها للحرية في وجه سلطة تفتقر إلى أي شرعية أخلاقية لما تقوم به من ظلم وعنف.

إضافةً إلى فقدان الشرعية الأخلاقية، فإن مجرد الاحتكاك بين المستعمر المهيمن والشعوب التي يسيطر عليها، كما يخبرنا هومي بابا¹² يؤدي إلى تذبذب هوية المستعمر المبنية على الاختلاف عن المستعمر، فوجوده خارج مجتمعه الأصلي يحكم عليه نوع من التحولات والتأقلم تغيّر في جوهره وفي إحساس بذاته. يقر الناقد ديفيد كارتر أن "التفاعل

12 Homi K. Bhabha, *The location of Culture*. United Kingdom, Routledge, 1994.

بين المستعمر والمستعمر يؤدي إلى انصهار المعايير الثقافية التي تؤكد السلطة الاستعمارية، بل وتهدد أيضًا بزعزعة استقرارها¹³، ويضيف ديفيد هادرت، أحد نقاد النهج ما بعد الاستعماري، أن "المستعمر يعلن بقوه تفوقه على المستعمر، لكنه دائمًا ما يفكر بقلق في هويته الخاصة، والتي لا تكون أبدًا ثابتة كما يوحي عدوانه".¹⁴ وبذلك يصبح المستعمر في وجوده خارج بيئته الأصلية "مهجّنًا" ويتأثر بالبيئة التي يستعمرها كما يحاول أن يؤثّر فيها ويطوعها لأغراضه. بل ومع مرور الوقت قد يشعر أنه لم يعد ينتمي تماماً إلى موطنه الأصلي، وأن عليه أن يتعامل بمعايير تختلف، وأن الوضع يتطلّب الكثير من الارتجال والتخيّط بين فرض تمييزه واختلافه عن الذين يهيمون عليهم وكسر هذه الحواجز ليبدى نوعاً من الانتماء إلى هذه البيئة الجديدة. وذلك لأن "التفاعلات والمفاوضات وحتى تواطؤ عامة الناس والأشخاص العاديين لها تأثير كبير في وسائل تبرير التمييز والفصل بين المستعمر والمستعمر، ومع الممارسة تتحول إلى محاور للقاء والمواجهة"،¹⁵ وخاصة أنه مع تجذر المستعمر في البيئات التي يحكمها يزداد اعتماده على أهالي تلك المناطق بحيث أنه لا يمكن أن يستفيد منها دون أن يُجند أهلها للقيام بالوظائف التي تتطلّبها هيمنته.

إذن فهذا التناقض الجوهرى في أساس منطق الاستعمار وتحولات هويّته

13 Carter, David. *Literary Theory*. Pocket Essentials. Harpenden, Herts, U.K. 2006, p. 117

14 Huddart, David. *Homi Bhabha* (Routledge Critical Thinkers Series). Routledge: London, 2006, p. 43.

15 Tan See Kam. "Hong Kong Cinema: Double Marginalization and Cultural Resistance." *Southeast Asian Journal of Social Science*, 1994, Vol. 22, p. 62.

واعتماده على من يهيمن عليهم وحتمية النبول التدريجي لهيمنته تخلق حيئاً للفاعلية ضده، وضد المنكر الذي يقوم به. ما يهمنا في هذه النقطة بالذات هو أن ما سماه الحديث الشريف بأضعف الإيمان ليست حالة ساكنة وقد تضم أنواعاً من المقاومة قد لا تصل إلى مرحلة اللسان، أو ما سُميّ "قول الحقيقة في وجه السلطة"، وهي المقوله التي يقابلها في الثقافة الإسلامية ما جاء في الحديث الشريف "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"، ولكنها ذات فاعلية لا تقل عن المواجهة بالخطاب. بالنسبة لنا كليبيين سيهمنا في كتابة تاريخنا أن نرصد هذا النوع من المقاومة ضد الاستعمار على المستوى الشخصي والجماعي، وخصوصاً في وضعية لم يكن متاحاً فيها للبيبين أي فرص للعمل الجماعي السياسي، لا كفاح مسلح ولا عمل نقابي أو حتى أنواع من الاعتصام المدني، كما لم يتوافر لهم حرية الصحافة ليخاطبوا السلطة بالحقيقة. هل معنى هذا أنهم لم يعارضوا الاستعمار أو يقاوموه بوسائل أخرى غير القتال، أو أن خصوصهم له بعد هيمنته التامة على البلاد كان كاملاً ولم تشوبه بعض المقاومة؟ بدون شك لا.

أريد فقط أن أتطرق إلى مثالين بسيطين لما أقصده هنا، أولهما عن أجور العمالية الليبية في الفترة الاستعمارية. كان الإيطاليون قد أقرروا أن أجراً العمل للبيبين تكون أقل بكثير من تلك التي يتحصل عليها الإيطاليون. رضخ الكثير من الليبيين لهذه السياسة بسبب حاجتهم إلى العمل، ولكن كانت هناك فترات حيث اضطر الإيطاليون إلى رفع أجراً الليبيين

كاسرين قاعدة التمييز.¹⁶ أقول إن الإيطاليين ”اضطروا“، ولكن هذا معناه أيضاً أن الليبيين رفضوا عدم المساواة عندما استطاعوا، وفرضوا على السلطة أن ترجل وتساوم معهم، أي أنهم صنعوا لأنفسهم حيّراً من الفاعلية في ظروف صعبة، ومن دون معارضة صادمة.

المثال الآخر نجده في المقال المميز الذي كتبه د. محمد المفتى عن مجلة ليبيا المchorة، وعن مجموعة الكتاب الليبيين الذي حرّروها وكتبوا فيها.¹⁷ بدون شك السلطات الإيطالية أصدرت هذه المجلة في منتصف الثلاثينيات لدعم شرعيتها وللتواصل مع الليبيين والعرب عامة بلغتهم، ولكن أيضاً إصدار المجلة يعني اعتراف إيطاليا بأنها لا بد أن تخاطب الليبيين بمستوى مرتفع، وأنها احتاجت إلى ليبيين ليقوموا بذلك. هنا نرى كما يخبرنا المفتى أن هذه المجموعة من المثقفين المتطللين كان لديهم أجندة قاموا من خلالها بتسريب خطاب تحريري، وفروا للبيبيين مواد أدبية وصحفية نادرة تصور حياتهم وسعت لتكوين مخيال جماعي خاص بهم، وفتحوا المجال لأقلام جديدة أصبحت من أهم أدباء ومثقفي ليبيا. هذه، بالإضافة لتكوين شبكة سرية تبادلوا خلالها مطبوعات ومعلومات مغايرة للدعائية الفاشية مخاطرين بأنفسهم في ذلك. كل هذا كان يحدث وهم يعملون تحت إمرة الحكومة الاستعمارية. ما يهمنا هنا أن نجد أن بعض الليبيين وجدوا حيّراً للمقاومة وثغرة في السلطة الاستعمارية نظرًا لتناقضاتها ورغباتها المتشابكة.

16 Claudio G. Segre, *Italo Balbo: A Fascist Life*. Berkeley: University of California Press, 1987 (297-298).

17 محمد المفتى، ”النغم الليبي.. من جوف النشاز الفاشستي: الهوية المهرية على صفحات مجلة ليبيا المصورة (1935-1940). مجلة الفصول الأربع، ص 54-26 ، العدد 91 ، أبريل 200.

لا ينطبق هذا الأسلوب من التاريخ الأوسع الذي نقترحه على فترة الاستعمار فقط، بل إن أي مؤرخ لفترة القذافي لا بد أن ينتبه لأنواع ممارسات المقاومة غير المعلنة لنظامه لأنها الوحيدة التي كانت متاحة حينها. لا يخفى على أحد أن حكم القذافي كان من أكثر الأنظمة قهراً واستبداداً في العالم، وأنه لم يترك أي حيز للمعارضة المعلنة داخل ليبيا، بل وسعى لمحوها خارج ليبيا أيضاً. لم تشهد ليبيا في عهد القذافي إلا القليل من المظاهرات التي قمعها بسرعة، واعتقل من قالوا الحقيقة في وجه سلطته، بل وقمع من شك في عدم ولائهم أو إمكانية أن يعارضوه في المستقبل، أي حتى الذين شعر أنهم يعارضونه في قلوبهم. ولكن مع ذلك هناك فترات عارض فيها الليبيون النظام بصمتهم وبسلبيتهم وأكثر من ذلك. ومما لا شك فيه أن عدداً لا بأس به من مثقفي ليبيا رفضوا أن ينضموا إلى جوقة النظام، وغيرهم ممن تحايلوا على النظام وعرقلوا بعض سياساته وممارساته بتحويرها أو عدم تنفيذها، لأن النظام بات يعتمد عليهم، وهكذا حازوا على حيز من الفاعلية والاستقلالية داخل منظومة قمعية. هذا النوع من المقاومة، والتي قد نسميها بأضعف الإيمان أيضاً، تتطلب جهداً ذهنياً ونفسياً وذكاءً سياسياً مذهلاً، وهي جزء كبير من تاريخنا لا ينبغي أن ننبذه أو نفرط فيه.



أغلفة بعض من إصدارات مجلة "ليبيا المصورة"

4. رصد السرديةات ووجهات النظر المغایرة

أين نخيء عن أعينهم... أجسادنا المكسورة
كالهشيم

ويليام بتر بيتس

إضافةً إلى توجيهه للبحوث التاريخية لأشكال المقاومة الشائعة، والتي فيها تكمن أغلب خبرة الشعوب مع الاستعمار، لا بد أن نسعى أيضاً إلى رصد السرديةات التي تخرج عن المسار المتفق عليه، فحينما تحاول أي دولة أو أي بيئة سياسية أن تقدم سردية متطابقة ومبسطة عن ماضيها تخفى فيها بعض حقائق، هذه الحقائق لا تختفي تماماً، بل ربما تتضخم بأكبر من قدرها. الحقيقة أنه في كل عصر، خصوصاً في أوقات الأزمات نجد الكثير من وجهات النظر المختلفة بين الأشخاص والجماعات والطبقات الفاعلة، وأن هذه الاختلافات تبقى في المجتمع ولو كسرديات شفوية تمارس ضغطاً على السردية الرسمية.

وعلى سبيل المثال: يهمني أن أعيد سرد حادثة هزّت فهمي للإبادة الجماعية في ليبيا ولتاريخ حقبة مهمة من فترة الاستعمار. في زيارة إلى إحدى المدن الليبية منذ عدة سنوات، قابلت شيخاً مسناً كان من ضمن العشائر التي تم أسرها في المعتقلات الفاشية في الثلاثينيات حيث كان مراهقاً في ذلك الوقت. في خلال الحوار معه ولتحفيزه ليسرد ذكرياته، سأله عمما يذكره عن جهاد عمر المختار واعتقاله واستشهاده، وأشارت أن موته كان من مأسينا المشتركة كليبيين. لكن الشيخ صدمني عندما قال عن اغتيال المختار: "يا له من يوم مبارك! كان هذا هو اليوم الذي بدأوا فيه بالسماح لنا بالخروج من المخيمات!" كانت إجابة الشيخ صادمة جدًّا لي، فلم أسمع أبداً وجهة النظر هذه عن

المعتقلات، ولم تتوّقَّع أبداً سماع أي وجهة نظر مغايرة نحو جهاد المختار. مستشعاً ذهولي من وجهة نظره، تحدّث الشيخ بتفاصيل أكثر، وبات واضحًا أن ما أدلّى به نبع من خبرته الشخصية، فترة عانى هو وأهله وكل من حولهم فيها الرعب والتوجيع والمعاملة الوحشية التي وثقها الشاعر رجب بوحش في "ما بي مرض"، وتضمّنها كتاب البروفيسور حميده. كان هذا الوضع المزري هو الذي أقنع ذلك الفتى حينها، وطيلة حياته فيما بعد، بأن انتهاء فترة الصراع المسلح ضدّ الطليان أدى إلى انتهاء فترة الاعتقال ورجوع الناس إلى مواطنهم التي حُرِّموا منها، وإن كانت الأمور لم تجرِ بذلك السلامة تماماً.

لا نستبعد أن موقف هذا الشيخ تأثر بالبروباغندا التي تعرض لها المعتقلون من قبل الإيطاليين، والتي حاولت أن تقنعهم "أن سبب شفائهم هو المقاومة وقيادتها، المتمثلة في شخص عمر المختار، وأنهم إذا ما أرادوا الخروج من هذا الجحيم، فعليهم التعاون مع إيطاليا من أجل القضاء على المقاومة".¹⁸ من المؤكّد أن المعتقلين لم يقتنعوا بذلك، وإلا لتعاونوا منذ البداية، فما نريد أن نتوّقّف عنده أن هذا الشيخ الذي قابله كان ضحية لظلم مروع، وأن موقفه الذي أصرّ عليه لما يزيد عن سبعين عاماً جزء من تاريخنا، وبسبب معرفتنا عن معاناة المعتقلات، لا أعتقد أن بإمكاننا أن نتجاهل وجهة نظر هذا الشيخ الجليل، وأن نجزم أنها حالة منفردة ونرجعها إلى الجبن أو الخيانة. السردية المغايرة ينبغي أن تثير أسئلة أخرى لدينا، وأن نبحث عن إجابات أعمق لها.

18 ناصر فرج بورحيل، "المعتقلات وسياسة الضغط على عمر المختار"، صفحة مركز المؤرخ للدراسات التاريخية والأدبية،

[https://www.facebook.com/228060660582202/
posts/607174749337456/?locale=ar_AR](https://www.facebook.com/228060660582202/posts/607174749337456/?locale=ar_AR)

والسؤال الذي تثيره وجة النظر المكبوة هذه هو: "ماذا كان يفكر ضحايا المعتقلات في جهاد المختار المستمر في ذلك الوقت؟ وماذا كان الشيخ عمر المختار وزملاؤه المقاتلون يفکرون عندما كانت تأييدهم أخبار ما يحدث لعشرات الآلاف من المعتقلين الذين يموتون من المرض والتعذيب والجوع في المعتقلات؟" ولنتبع ذلك بسؤال مهول: لماذا استمر الشيخ عمر المختار في الجهاد حتى "ننتصر أو نموت"، كما تقول عبارته المشهورة، على الرغم مما كان يحدث في المعتقلات ومعاناة الناس فيها؟ أو بسؤال آخر: هل كان الإيطاليون فعلاً سيوقفون سياسة المعتقلات والإبادة الجماعية لو توقفَ الجهاد؟

بالنسبة للسؤال الأول، إضافةً إلى الشهادات التي جمعها الأستاذ حميده وغيره من الباحثين فإن المعاملة في المعتقلات كانت بشعة بشكل لا يقارن، وفي هذه الحالات العصبية وكما يحدث في الكثير من حالات الاعتقال الجماعي، فمن المؤكد أن العنف المؤسسي في المعتقلات الفاشية سبب تفشي الصراع والفروقات بين الأفراد والجماعات على الموارد القليلة التي وفرت للمعتقلين¹⁹، هذا إضافةً إلى التهديدات ومحاولات الإغراء التي مارسها جيش الاستعمار نحو بعض المعتقلين، فمن المؤكد، وهو أمر ليس مستغرباً، أن التجويع والاضطهاد ومشاهد الموت قلل من عزيمة الأهالي، وربما جعلتهم يشكون في فائدة العمل الجهادي، ومن هنا قد نفهم موقف الشيخ الذي شعر بالخالص عندما

19 ليس لدينا معلومات تكفي عما جرى في المعتقلات الليبية، ولكن تاريخ المعتقلات النازية كتاريخ مقارن يوحى لنا بأن الجوع والتعذيب وقلة الموارد كانت تخلق صراعات بين المعتقلين. للمزيد من المعلومات راجع:

"Inmate Relations" in "Nazi Concentration Camps: A Teaching and Learning Resource": <http://www.camps.bbk.ac.uk/themes/inmate-relations.html>

Nikolaus Wachsmann, *KL: A History of Nazi Concentration Camps*. New York: Farrar, Straus and Giroux; Reprint edition, 2016

تم القبض على عمر المختار.²⁰

الجدير بالذكر أن حياة أجدادنا كانت صعبة أساساً، كما يخبرنا سالم العوكي الذي يكتب ”أن الحياة خارج المعتقلات لم تكن بأفضل بكثير من داخلها حيث مرت مجاعات وأوبئة فتكت بالكثيرين خصوصاً في العشرينية الأولى من الغزو الإيطالي.“²¹ أما عن المعتقلات ذاتها، وإن كانت كلها وحشية في العموم، فقد تضمنت بعض الفروقات مما قد يفسر بعض التباين في المواقف بين فئات المواطنين حينها. يضيف العوكي، ”انقسمت المعتقلات حسب طبيعة المعتقلين فيها: معتقلات العقوبة (العقيلة والبريئة) التي نقل إليها كل من يمتون بصلة لرجال المقاومة أو ساعدوهم وفيها كانت تجري المحاكمات والإعدامات، ومعتقلات عادية لمجرد تفريغ الأرض من السكان وعزل المقاومة، وبعض المعتقلات كانت إقامة إجبارية لبعض القبائل في موطنها... غير أن العسف والتعذيب والقتل كان فعلاً في معتقلات العقوبة.“²² هذه الفوارق النسبية في المعاملة الوحشية، والتي تشبه إلى حد كبير الأوضاع في معتقلات الهولوكوست النازية في العقد الذي تلى، توضح لنا أن حتى ممارسات الإبادة الجماعية كانت متنوعة كما

20 يستشهد إنزو سانتاريللي وآخرون برسالة لمتصرف الجبل الكوموندتور جوزيبي داودياتشي إلى الجنرال قرينتياني مؤرخة يوم 5 يوليو 1932 يقول فيها إنه أصبح ”لدى مختلف القبائل، حقد أسود، دفين بسبب شعورها بأئمهم (أي المجاهدين) كانوا مصدر هلاكها“، ولنا أن نتوقع أن ما سماه داودياتشي أن الحقد الدفين تكون داخل المخيمات ومن خلال التعذيب والتوجيع ضمن قبائل كانت قبل ذلك تناولت في مساندة المجاهدين. إنزو سانتاريللي، روين رانثرو، جورجو روش، لوبيجي قوليا: ”عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشي للبيبا“، ترجمة: عبد الرحمن سالم العجيلي، تقديم: الدكتور عقبة محمد البيرار، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (سلسلة الدراسات المترجمة 7)، الطبعة الثانية، 2005، ص 180.

21 العوكي، سالم. مراسلة خاصة مع الكاتب، 2023/6/18.
22 العوكي، 2023.

كانت خبرة الناس للاستعمار. هذه الفروقات في الخبرة تتحول إلى أنسجة مختلفة من الذاكرة بإمكانها، إذا سمح لها أن تُظهر تنويعها، أن تثري فهمنا لما حدث في الماضي. أما إذا كُتمت تحت ضغط سردية مهيمنة في إمكانها تبهم التاريخ بدلًا من أن تزيده وضوحا.

أما بالنسبة لمدى معرفة المختار والمجاهدين بما يجري في المتعقلات فمن الصعب التكهن بها وبخاصةً أن شبكة المعلومات التي كان يعتمد عليها المختار خلال الصراع المسلح مع الإيطاليين تم تدميرها عندما أخلي الجبل من سكانه، الأمر الذي “أفقد حركة المقاومة جهاز مخابراتها الفعال لأقصى حد”， بل وتمكن الإيطاليون “من العثور على عناصر استخبارات مأموني الجانب... من بين فرق صغيرة من (المتعاونين)”.²³ أما عن جدوى استمرار الصراع المسلح مع الإيطاليين، فيبدو أن إخلاء الجبل من سكانه أثر في قدرة المجاهدين في استمرار المقاومة. يخبرنا إنزو سانتارييلي ورفاقه أن زمام المبادرة تحول مع النصف الثاني لعام 1930 من المجاهدين للقوات الإيطالية، “فأفراد المقاومة لم يبادروا بالهجوم – طوال الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر 1930 – إلا مرة واحدة، وذلك عند انقضاضهم على قافلة من الإبل بالقرب من درنة، وأصبح من الصعب على المقاومة من التعويض عن خسائرهم، إذ أن جماعات عمر المختار – بعد انقطاع كل صلة لهم بالأهالي المحشورين في ميادين الاعتقال – أصبحت مضطربة إلى الاعتماد في تموينها على المساعدات التي تتمكن من استجلابها من مصر، بعد

23 إنزو سانتارييلي، روبن رائنيرو، جورجو روشا، لويجي قوليا “عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشي للليبيا” ترجمة عبد الرحمن سالم العجيلي، تقديم الدكتور عقبة محمد البريار، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (سلسلة الدراسات المترجمة 7)، الطبعة الثانية، 2005، ص. 140.

قطع مسافات طويلة ومسيرات بطيئة، محفوفة بالأخطار.”²⁴ في خلال هذه الظروف لماذا إذن استمر المختار، هل توقع النصر فعلًا، أم اختار أن يجاهد مدرگًا أن المعركة أصبحت محسومة لصالح العدو؟

ليس لدى إجابات وافية أو مريحة لهذه الأسئلة، وللإلحاظ القاري أنني لأجيب عنها اضطررت إلى اللجوء إلى مصدر إيطالي وإن كان بأقلام متعاطفة معنا تركيها أهم مؤسسة ليبية تعنى بتاريخ الفترة الاستعمارية. المهم في هذه القضية أن نقبل أنه كان هناك اختلاف في المواقف، وأن تفهمه لهذا أمر طبيعي جدًا في أي بيئه إنسانية وذاكرتها الاجتماعية. كما ينبغي أن ندرك أن الحوار والخلافات والصراعات الداخلية هي جزء لا يتجزأ من تاريخ وثقافة الأمة لا ينبغي تمويهها أو دحرها أو إخفاؤها. ول يكن حافزنا لهذا التعامل الصادق والواقعي في سرد تاريخنا وذاكرته المتشابكة وموافقه المختلفة هو أننا إذا لم نكتب تاريخنا بحقائقه وما يحتويه من أمور شائكة سيأتي آخرون ويكتبونه لنا، أو عنا، إذ إن التاريخ الليبي ما زال يعتمد على المصادر غير الليبية في الكثير من تدويناته، كما هو الحال في الكثير من دول منطقتنا، وهذا أمر لا بد أن يكون مقللاً لنا وأن نعمل على تغييره.

5. الإبادة الجماعية: تفاهة الشر والإرث المثير للجدل

ثمة ما لا يحصى من تجليات التفاهة، التي غالباً ما تناхض حد كوميديا هزلية رخيصة، وفي هذا الحد، بالذات، تكتمل كل عناصر

24 سانتارييلي، ص. 139.

المأساة.

حسن خضر

الإبادة الجماعية قد تعد استراتيجية خاصة بالاستعمار الاستيطاني، وهي كل معاذلات الاستعمار، مركبة جدًا. يخبرنا سانتاريللي ورفاقه مستشهادين برسالة أرسلها الجنرال بادليو صاحب تخطيط المعتقلات إلى الجنرال قراتزياني²⁵ يخبره فيها أن عزل المقاومة عن الأهالي الذي يدعمونهم بات أمرًا ضروريًا، وعلى الرغم من إدراكه بـ“فداحة مثل هذا الإجراء وأهواله وأبعاده... ولكن الطريق تحدّد لنا مسارها وعليها اتباعها إلى النهاية، حتى لو أدى ذلك إلى فناء أهالي برقة على بكرة أبيهم.”²⁶ ويضيف سانتاريللي ورفاقه: “إن جميع الدلائل تشير إلى أن قراتزياني وبادليو كانا يفكران في إبقاء ميادين الاعتقال قائمة إلى ما لا نهاية”， آملين أن يستقر الليبيون المعتقلون في بطحاء سرت، وأن تبقى منطقة الجبل الأخضر الخصبة للإيطاليين الذين كان الفاشيون ينونون أن يجلبوا لهم لها ليستوطنوا في ليبيا.²⁷ لكن الإيطاليين اكتشفوا مع بداية عام 1932، أي بعد أشهر من استشهاد المختار، أن مشروع استيطان المعتقلين في بطحاء سرت مشروع فاشل، لاستحالة “توفير سبل المعيشة وضمان تقديم رعاية صحية وطبية بصورة كافية، ولو في أدنى حد يضمن البقاء الطبيعي.”²⁸ والسبب الآخر لإنها مشروع المعتقلات هو “الحاجة إلى توفير يد عاملة رخيصة

25 يكتب أيضًا اسمه بـ“غريسياني”， استعملت هنا نفس التهجي الذي استعمله الأستاذ عبد الرحمن سالم العجيلي مترجم كتاب سانتاريللي الذي تقصيit منه بعض المقططفات.

26 سانتاريللي، ص 122.

27 سانتاريللي، ص 174.

28 سانتاريللي، ص 179.

لاستصلاح الجبل واستثماره.²⁹

يشير هذا التغيير في سياسة الفاشيين إلى الطموحات المتضاربة في كثير من الهياكل الاستعمارية، كما يذكرنا نقاد منهج ما بعد الاستعمار، ويبقى مصير حياة السكان الأصليين هو السؤال المتجدد أمام المستعمر: هل يجب على القوة الاستعمارية إزاحتهم أو التخلص منهم تماماً؟ أو تحويلهم إلى قوة عاملة مطيبة تعتمد على المستعمرات الاستيطانية في معيشتهم؟ أو في النهاية تحسين أوضاعهم عبر توفير بعض التعليم لهم وربط اقتصادهم باقتصاد الاستعمار بحيث يصبحوا مستهلكين لمنتجاته؟ على الرغم من بشاعته وعنته، فالاستعمار مشروع اقتصادي في الأساس، وكلما ازداد استثماره وتغلله في البلاد بات المواطنون الأصليون أكثر أهمية له، كيده عاملة يستغلها وكسوق احتكاري لبيع منتجه وليطور عبره صناعته وتقنياته. هذه العوامل تفرض علينا أن ننظر إلى العلاقة مع المستعمر بقدر ردود أفعالنا له، والتي أدت إلى مواقف وعلاقات متعددة معه.

يرجعنا تذبذب الاستعمار، من إبادة لأجدادنا كأداة ضرورية لمصلحته، ثم توفير العناية الطبية لهم لسبب مماثل، يرجعنا إلى ما سمته الفيلسوفة حنا أرنست بتفاهمه الشر، والمقصود بذلك في هذا الصدد أن القادة العسكريين الإيطاليين غيروا قراراتهم بخصوص من يموت ومن يبقى على قيد الحياة بدون أي شعور بالمفارة. تفاهم الشر التي تقصدتها أرنست تعني أن يقوم أشخاص بالقتل والتعذيب والتجويع من دون أي شفقة نحو الآخرين بعذر أنهم يتبعون أوامر قادتهم، كما أن هؤلاء الأشخاص ليسوا بالضرورة أشخاصاً

29 سانتاريللي، ص 179

شريرين أو عنيفين خارج نطاق عملهم والبيروقراطية التي تسير وظائفهم الشيطانية. وبصورة مماثلة، نسب أجدادنا الذين عانوا أهواه معسكرات الاعتقال الفاشية إلى الشر³⁰، أو إلى قوة استولت على عقول الجنود، لأن في عقليتهم ليس من المعقول أن يلحق البشر مثل هذا الألم بالآخرين بدون هوادة. في حالة أخرى يصف أجدادنا مرتكبي أعمال العنف بأنهم من "أقارب الشيطان"³¹، مما يوحي بأن ذلك كان شيئاً غريزياً فيهم خارجاً عن إرادة مقتفي الجرائم ووعيهم. في هذه التعبير البسيطة يكمن نوع الشر الذي نحن بصدده، شر يصنع من البشر أدوات وحشية تنزع منهم جزءاً من ضميرهم متى تشاء. وبمنطق الحديث النبوى الذي تحدثنا عنه سابقاً، قد نقول إن الدولة الحديثة المعاصرة بمقدورها أن تنزع آخر فتيل للرؤى والتقدير لدى الأفراد ليصلوا لمستوى أضعف من أضعف الإيمان، ألا وهو انعدام الإنسانية تماماً وعدم القدرة لتعيين المنكر مما يفقدهم الرغبة في تغييره ولو في قلوبهم. هذا التمسك بالبروتوكول البيروقراطي في النظام الفاشي وما يصحبه من انعدام أي إحساس بأي مسؤولية نحو ضحاياه، هو ما أدى إلى إصدار إجراء إداري اسمه "المذبحة الإدارية"³²، مارسته العديد من الدول العظمى، ابتداءً من البريطانيين في مستعمراتهم في القرن التاسع عشر قبل أن يمارسه الإيطاليون على أجدادنا³³ المذابح الإدارية،

30 Ahmida, 95.

31 Ahmida, 98.

32 أرندت تستعمل مصطلح "administrative massacre" وهو ما ترجمناه بـ"مذبحة إدارية". Arendt, Hannah, Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil (Revised and Enlarged Edition). New York: The Viking Press, 1964. https://platypus1917.org/wp-content/uploads/2014/01/arendt_eichmanninjerusalem.pdf

33 Edward Said, *Culture and Imperialism* (London: Chatto & Windus 1993), 162.

والتي بإمكاننا أن نعد منها مذبحة سجن بوسليم، هي الجريمة الأساسية التي اتُّهم بها قادة الهولوكوست، منهم أدolf إيخمان الذي حضرت أرنٰت محاكمته، والذي بنت على جرائمه مصطلح تفاهة الشر³⁴

بالنسبة لأهداف سياسة الإبادة في ليبيا، بالإضافة لإنها المقاومة العسكرية، كان الإيطاليون، بالأخص فريتزياني، يريدون إنهاء حياة البداوة تماماً في برقة³⁵، وهنا أيضاً نجد أن منبع هذه السياسة نوعين من الشر من الصعب وصفهما؛ أولهما العنصرية الفجة في الفكر الفاشي واستعانته بعلم زائف يسمى بتحسين النسل³⁶ (eugenics) الذي كان له دور كبير في بلورة الفكر الفاشي منذ البداية ليقي الجنس الإيطالي من الأجناس الأخرى.³⁷ في عام 1926 مثلاً، قبل أن يجتمع الاستعمار الإيطالي أجدادنا في معقلات الموت بأربع سنوات، سعت الحكومة الفاشية لطرد شعب الروما (الغجر) من إيطاليا "لتطهير البلد من قوافل الغجر التي... تشلّك خطراً على السلامة والصحة العامة"³⁸، وذلك لأنهم كانوا يعيشون

34 للأسف على الرغم من أنها من أهم منظري ومؤرخي الإبادة الجماعية والأنظمة الشمولية، إلا أن أرنٰت لم تمعن في تاريخ الفاشية الإيطالية وجرائمها ضد أهالي المستعمرات واعتبرت الفاشية الإيطالية عبارة عن "دكتاتورية عادية". انظر، Ahmida, p. 56.

35 سانتارييلي: 188-189.

36 أدى استعمال اليوجنكس خاصة بعد الحرب العالمية الأولى إلى سياسات بشعة في كل الدول الغربية تقريباً من تحديد هجرة بعض العرقيات، لتعقيم مواطنين ذوي العاهات، إلى الإبادة الجماعية.

37 Maria Sophia Quine, "Racial 'Sterility' and 'Hyperfecundity' in Fascist Italy: Biological Politics of Sex and Production." *Fascism*, 1(2), 133: <https://doi.org/10.1163/22116257-00201003>

38 *Human Rights of Roma and Travellers in Europe*. France, Conseil de l'Europe, 2013. الجدير بالذكر أن النظام الفاشي في إيطاليا سلم شعب الروما للنازيين، والذين نفوا منهم حوالي مليون شخص في المعقلات النازية.

حياة بدوية أو شبه بدوية، وكان هذا العامل الثاني في قرارهم.³⁹ حارب الإيطاليون البدواة في ليبيا، وفي بلادهم أيضاً لسبب أيديولوجي وهو إصرار الحكم الفاشي أن تكون كل فئات المجتمع وكل مواد الإنتاج تحت هيمنة مؤسسات موالية له، فالدولة الفاشية لا تقبل أي حيز من العمل الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي خارج نطاق نفوذها.⁴⁰ يُعدُّ هذا التبرير الإداري امتداداً لوسائل قمعية متعددة استعانت بها الدول المتقدمة بكل أنواع المعرفة لتكوين مؤسسات بيرورقراطية صرفة لتهيمن على شعوبها وكل شعوب العالم مهما أدى ذلك من اضطهاد أو عنف.

هذا التلخيص للسياق الإداري والأخلاقي الذي تبلور خلاله الاستعمار الإيطالي والتحولات العالمية التي كَوَّنته وأدت إلى اللجوء للإبادة الجماعية، يجعلنا نتساءل عن طبيعة هذا الإرث المؤلم، وآثاره في وعيينا وضميرنا. إلى أي مدى تؤثر فينا الفاجعة وما هو الدور الذي قد يكون

39 The Gypsies During the Second World War, Volume 2, Donald Kenrick, editor. United Kingdom: Univ of Hertfordshire Press, 1997, p. 15

40 قررت أن أترجم corporatism و corporativismo أو بالمؤسسة أو الشاركية نظراً إلى الخلط الذي قد تسبّبه في مفهومها، وهي كانت دائماً فكرة تسعى إلى تدخل الدولة في توجيه العلاقات الاقتصادية، وهي كنظرية سياسية أقدم من الفاشية، لكنها اعتمدت في إيطاليا لكي تتحكم الدولة في مصادر الإنتاج، حيث كونت الدولة الفاشية مؤسسات لكل قطاع إنتاجي تضم الشركات الرأسمالية ونقابات العمال. للمزيد عن المؤسساتية انظر: <https://www.britannica.com/topic/corporatism> يشرح موسوليني المؤسساتية وعلاقتها مع الإنتاج بهذا الشكل: "تعتبر الحكومة المؤسسية أن القطاع الخاص في مجال الإنتاج هو الأداة الأكثر فاعلية ومفيدة في مصلحة الأمة، وبما أن التنظيم الخاص للإنتاج هو وظيفة تتعلق بالآلة بأكملها، فإن مدير الشركة الخاصة مسؤول أمام الدولة فيما يتعلق بتوجيه الإنتاج،" ويضيف: لا ينشأ تدخل الدولة في الإنتاج الاقتصادي إلا عندما تكون مبادرة القطاع الخاص غير موجودة أو غير كافية، أو عندما تتطابق جهودهم مع المصالح السياسية للدولة. قد يأخذ هذا التدخل شكل التحكم أو المساعدة أو الإدارة المباشرة.

"Mussolini and the Corporate State," <https://politicalresearch.org/2005/01/12/mussolini-corporate-state>

لذاكرة الإبادة الجماعية في تكوين هوية شعب ما؟ عندما ننظر إلى بعض النماذج المتاحة، لا نجد العديد من الدول التي جعلت الإبادة الجماعية ركيزة أساسية لهويتها. ولعل أسوأ نموذج لاستعمال ذاكرة الإبادة الجماعية هي إسرائيل التي طوّرت ذكرى الهولوكوست حتى أصبحت نوعاً من الدين المدني،⁴¹ حيث يقوم الخطاب الإسرائيلي والمساند له في الغرب على تمويع الهولوكوست كجزء أساسي من تفرد الأمة. كما تستعمل إسرائيل ذاكرة الهولوكوست لتبرير اضطهادها للشعب الفلسطيني بوسائل لا تحصى، وهي حالة وصفها إدوارد سعيد بـ"الضحية الذي أصبح الجاني الذي يضحي بشعب آخر"⁴²، بل وتهם إسرائيليين بأنهم من اقترح فكرة الهولوكوست لهتلر ليحملوهم مسؤولية المحرقة! في الحقيقة لا يوجد أي مثال يشابه إسرائيل في سخريتها الصارخة عبر استغلال تاريخ الإبادة الجماعية التي أصابت اليهود لتبرير قمع وترهيب شعب آخر.

من حسن الحظ أن هناك أمثلة إيجابية للتعامل مع ذاكرة الإبادة الجماعية. في حالة رواندا، التي يحكمها الآن أبناء ضحايا الإبادة الجماعية التي فني فيها حوالي مليون فرد من قبيلة التوتسي ومن ساندهم، بذلت الحكومة الرواندية جهوداً جبارة في تثبيت الذاكرة من خلال متحاف ومراكز تثقيفية

41 العديد من النقاد اليهود يرون أن هناك مخاطر كبيرة لتحول الهولوكوست إلى أهم ركائز الهوية اليهودية المعاصرة. للمزيد من المعلومات راجع:

Alter, Robert, "Deformation of the Holocaust," *Commentary*, February 1981. <https://www.commentary.org/articles/robert-alter-2/deformations-of-the-holocaust/>

Esther Benbassa, *Suffering as Identity: The Jewish Paradigm*. Translated by G. M. Goshgarian. New York: Penguin, 2010.

42 Edward W. Said. "Identity, Authority, and Freedom: The Potentate and the Traveler." *boundary 2*, Autumn, 1994, Vol. 21, No. 3, p. 12.

وسائل متعددة لتشبع الوعي العام داخل البلاد. كما أن رواندا باتت أحد مراكز دراسات الإبادة الجماعية في العالم، إذ وضعت فجيئتها نصب أعين الباحثين والمؤرخين من حول العالم. في أرمينيا، سعى الشعب الأرمني لتذكير العالم بالإبادة الجماعية التي اقترفها الأتراك في أهاليهم، ومنذ الخمسينيات في الاتحاد السوفييتي التي كانت أرمينيا إحدى جمهورياته صمموا برامج طويلة الأمد، أعادوا نشر الأعمال الأدبية التي منعها ستالين ودونوا فجيئتهم من خلال بحوث مستمرة، كما أنشأوا نصباً تذكارية ومتاحف لهذا الغرض. خارج أرمينيا ذاتها ساهم الشتات الأرمني بشكل كبير في كسب تعاطف دولي لمساهمتهم على الرغم من الضغط الذي تمارسه تركيا في نفيها للإبادة أساساً. أما كمبوديا التي قتل فيها نظام الخمير الحمر حوالي مليون مواطن، إضافةً إلى جهود مماثلة لما قامت به رواندا وأرمينيا، فقد استعان الكمبوديون بالأمم المتحدة لمقاضاة مقتوفي الإبادة في محاكم مفتوحة تشهد عليها الأمة كلها. ولا يفوتنـي أن أذكر أن الجهود الجبارـة التي قام بها أهالي ضحايا المذابح الجماعية في إسبانيا والأرجنتـين وتشيلي للبحث عن رفات المفقودـين في الحروب والصراعـات التي واجهـوها وسعوا إلى محاكمة الجنـاه ولحفظ ذاكرة الضحايا وإـقـحامـها في ذاكرة الأمة، ولتصـبح أحد روافـد هويـتها الجـديدة. هذه الأمـثلـة الإيجـابـية تـوحيـ لنا أن ذاكرة الإـبـادـةـ الجـمـاعـيةـ بـإـمـكـانـهاـ أن تكونـ بـؤـرةـ لـتـركـيزـ الـوعـيـ الوـطـنـيـ والـتمـاهـيـ الجـمـاعـيـ حولـ ذـاـكـرـةـ خـاصـةـ بـشـعـبـ بـذـاتـهـ،ـ وـلـوـ أـنـهـ مـؤـلـمةـ.

6. الهوية الوطنية: بين التاريخ الداعي والتجوهر الاستراتيجي

الذكر ليس أبداً فعل استبطان هادئ، إنما إعادة
تشكيل مؤلمة، فهو تجميع
لأشلاء الماضي لفهم صدمة الحاضر.

هومي بابا

أنا القضية الكبرى، أكتب أعناداً لأخطاء اليوم من
أجل سراب الغد.

وولي شوينكا

الاستعمار الأوروبي لأفريقيا وآسيا، اختلف عما سبقه من احتلالات وغزوات، إذ إن التفوق العلمي للمحتل كان أكبر بشكل شاسع على الشعوب التي احتلها. في العالم العربي ما زلنا نتحدث عن حملة نابليون كعامل فارق في تاريخ منطقتنا نظراً إلى التجهيزات العلمية التي أتت بها جيوشه وللكلم الهائل من التقنيات التي أطلقتها في المنطقة. وهنا نحن نتحدث عن مصر التي كانت من أعلى المراكز الحضارية في العالم الإسلامي، والتي كانت تصارع أوروبا بضعة قرون سبقت مجيء نابليون، فما بالك عن مناطق أخرى في العالم التي كان فيها الناس ما يزالون في العصر الحجري. التاريخ أيضاً يشهد أنه كلما كان المحتل متفوّغاً مادياً (علمياً وعسكرياً، ومن ثم ثقافياً) زادت قدرته على التأثير في ثقافات المجتمعات التي يهيمن عليها. يخبرنا فرانتز فانون، طبيب علم النفس والنقد الاجتماعي، أن الاستعمار لم يكتفي "بمجرد إخفاء الناس في قبضته وإفراغ عقل السكان الأصليين بكل أشكاله ومضمونه"، بل سعى الهيمنة الاستعمارية على "إقناع السكان

الأصليين بأن الاستعمار جاء لتفتيح ظلامهم... إنه إذا غادر المستوطنون، فسيعودون في الحال إلى الهمجية والانحطاط.⁴³ وكما كان متوقعاً، كان رد المثقفين المحليين في المناطق المستعمرة أن يبحثوا عن "ثقافة وطنية" كانت موجودة قبل الحقبة الاستعمارية... للابتعاد عن الثقافة الغربية التي يتعرّضون فيها جمِيعاً لخطر الانغمام فيها⁴⁴، وأدى هذا "البحث الشغوف" إلى اكتشاف "حقبة جميلة ورائعة" في تاريخ الأمة تكشف "ما وراء بؤس اليوم، ما وراء ازدراء الذات والاستسلام"⁴⁵ لل المستعمر. يقر فانون أن المثقفين المحليين "اكتشفوا بسرور كبير أنه لم يكن هناك ما يُخجل منه في الماضي، بل الكرامة والمجد والوقار."⁴⁶ ويضيف أنه كان الأمل في هذا "الادعاء بثقافة وطنية في الماضي [أن] يؤدي فقط إلى إعادة تأهيل الأمة، بل [يكون بمثابة] تبرير للأمل في ثقافة وطنية مستقبلية."⁴⁷ لكن "جهود المثقف المحلي في إعادة تأهيل نفسه والهروب من براثن الاستعمار" بتاريخ تراث أمهاته وثقافتها بشكل دفاعي المقصود به دحض الادعاءات الاستعمارية "حمل بصمة منطق الاستعمار ووجهة نظره"⁴⁸ بما فيها من تعميم وغموض.

وفي هذا الصدد بالذات قد نجد مصطلحاً مفيدةً صاغته المؤرخة والناقدة

43 Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth*. Translated by Constance Farrington. New York: Grove Press, 1963, p. 210.

44 Fanon, p. 209.

45 Fanon, p. 210.

46 Fanon, p. 210.

47 نفس المصدر, Fanon

48 Fanon, p. 211.

غياتري سبيفاك، ألا وهو مفهوم "التجوهر الاستراتيجي"، وهو تكتيك سياسي تقوم به الأقليات المستضعفه عبر تقديم هوية جماعية بطريقة مبسطة لتحقيق أهداف معينة على الرغم من وجود اختلافات كبيرة في وجهات النظر بينها.⁴⁹ تضيف سبيفاك أن التجوهر الاستراتيجي تكتيك يستعمله المستضعفون بدقة عالية، وبشكل مؤقت للّم شملهم وللتفاوض مع قوة أعظم منهم، فهو ليس سياسة أو موقف طويل الأمد لأن التجوهر عموماً يقمع الحقيقة، ولكن جهود التجوهر الاستراتيجي، أو طرق أخرى لابتکار الهوية سواء كانت فردية أو جماعية، ليس من السهل كبحها في الواقع.

ولعل أكثر الجهود المعروفة نحو خلق جوهر وطني استراتيجي هي التي قام بها المثقفون الأيرلنديون في نضالهم لتبئنة الشعب الأيرلندي نحو الاستقلال من بريطانيا.⁵⁰ بقيادة الشاعر ويليام بتلر ييتس، استخدم هؤلاء المثقفون "مخزوناً هائلاً من النصوص الأثرية والتاريخية غير الموثقة والأنثروبولوجية واللغوية والأدبية بشكل استراتيجي لبناء صورة لأيرلندا (افتراضية إلى حد كبير) خارج نطاق الإمبراطورية البريطانية."⁵¹ وقد تضمن هذا الجهد كتابة تاريخ مغاير (وعموماً متخيل) لأيرلندا يرجع جذور أهاليها لشعوب من الشرق معتمداً على أساطير سلتبية قديمة. وبشكل

49 Spivak, Gayatri Chakravorty. *The Spivak reader : selected works of Gayatri Chakravorty Spivak*. New York : Routledge, 1996, p. 214.

50 Declan Kiberd, *Inventing Ireland: The Literature of Modern Ireland*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997.

51 Nicholas Allen. Review of *Irish Orientalism: A Literary and Intellectual History* by Joseph Lennon. *New Hibernia Review / Iris Éireannach Nua* , Spring, 2005, Vol. 9, No. 1 (Spring, 2005), pp. 157-159.

أدق، اعتمد ييتس على التصوف والرمزية الشرقية لصياغة خطاب أيرلندي مضاد للاستعمار، يرتكز على نقد المادية الغربية الحديثة يتشابه في حدّ كبير للنقد الذي كتبه أدباء الهند والشرق الأوسط عن الغرب.⁵² اجتمع هذا الجهد في إعطاء صبغة شرقية لأيرلندا لتوحي بأنها بلد ذات جوهر مغاير تماماً عن بريطانيا، بل وعن الغرب عامة. كان هذا الجهد للتجوهر الأيرلندي استراتيجيًّا بالفعل، إذ إنه لم يدم طويلاً، ولكن لا يزال يُعد بأنه كان له دور مهم لبناء خطاب قومي أيرلندي لمناهضة الاستعمار.

بالنسبة لتاريخنا، ليبيا ومنطقتنا عموماً، لنا أن نقول إن التجوهر الاستراتيجي كطريقة لمحاربة التاريخ الاستعماري والاستشراق، قد تغلغلت أكثر مما ينبغي كموقف أخلاقي وسياسي في أساليب كتابة تاريخنا. في تحليله المميز للتاريخ الليبي للفترة الاستعمارية وما مدى التجوهر الاستراتيجي الذي استعملناه لكتابه تاريخنا، يضيف د. المفتى ثلاث نقاط مهمة جداً في هذا الصدد: أولاً- بخصوص كتم الجوانب السلبية في تاريخ الأمة، وثانياً- حول سعي النخب الوطنية لسردية تاريخية تخلو من الشوائب وفقاً لتحليل فانون، وثالثاً- بخصوص كتابة التاريخ بشكل تتجوهر فيه صورة الأمة لخدم أغراض سياسية، ويتجاهلي عن عناصر وحقائق كثيرة في الخبرة الوطنية.

بالنسبة للتكلتم فيقرر المفتى عن الذاكرة الجماعية في ليبيا فيما يخصُّ

52 Jane Grogan, book review, Joseph Lennon, *Irish Orientalism: A Literary and Intellectual History*

Irish University Review, Vol. 35, No. 1, Special Issue: John McGahern (Spring -Summer, 2005), pp. 204-208.

الفترة الاستعمارية أنها كيَفَتْ “أَحْدَاثٌ وَشَخْصِيَّاتٌ الْمَاضِيِّ بِطْرَقٍ خَفِيَّةٍ لِتَوَائِمٍ هَمُومَهَا وَأَحْلَامَهَا وَطَمَوْحَاتِهَا الْحَاضِرَةِ، وَيُصْلِي التَّحْوِيرَ أَحْيَانًا حَدَّ التَّزْوِيرِ وَالْإِبَهَامِ عِنْدَمَا تَكُونُ إِعْدَادَةُ كِتَابَةِ الْمَاضِيِّ عَلَى حِسَابِ نَقْدِ الدَّازِّ وَتَعْرِيَةِ مَوَاطِنِ الْضَّعْفِ.”⁵³ ويُضَيِّفُ أَنَّ هَذَا التَّحْوِيلُ فِي السُّرْدِ التَّارِيْخِيِّ جَرِيٌّ عَلَى الْمَسْتَوِيِّ الشَّفْوِيِّ حِيثُ أَدَّى كَتْمُ الصَّدْمَةِ إِلَى إِبْقَاءِ فَقْطِ بَعْضِ الْجَوَانِبِ الإِيجَابِيَّةِ أَوِ الْمُفَيِّدَةِ فِي تَارِيْخِ الْأَحْدَاثِ، ثُمَّ أَجَّجَتِ الصَّحَافَةُ الْحَدِيثَةَ هَذِهِ السُّرْدِيَّةَ غَيْرَ الْمُنْصَفَةَ عَبْرِ مَقَالَاتِ الرَّأْيِ الَّتِي لَا تَرَاعِي التَّحْقِيقَ فِي الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي تَنْشَرُهَا.

فِيمَا يَخْصُّ الْبَحْثَ عَنْ سُرْدِيَّةِ رَائِعَةٍ وَنَقِيَّةٍ عَنْ تَارِيْخِ الْأَمَّةِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا فَانُونَ، فَيَخْبُرُنَا الْمُفْتَيِّ عَنْ كِيفِيَّةِ تَعَامِلِ كُتُبِ الْجَيْلِ الثَّانِيِّ مِنَ النَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ تَارِيْخِ الْأَمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، “أَمْثَالُ طَهِ حَسِينِ / الْمَازِنِيِّ / أَحْمَدِ أَمِينِ / الْعَقَادِ / خَالِدِ مُحَمَّدِ خَالِدِ، وَغَيْرُهُم مَمَّنْ قَدَّمُوا سُرْدًا جَدِيدًا مَلْحُمِيًّا لِظَّهُورِ وَانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ.. يَسْقُطُ كُلُّ مَا يَثْبِرُ التَّسَاؤلَ أَوْ يَحْرُجُ الصُّورَةَ الْمَثَالِيَّةِ.. وَيَغْفِلُ الْأَسْبَابُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلْأَزْمَاتِ وَالْفَتَنِ وَالْإِنْشَقَاقَاتِ.”⁵⁴ الْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ أَغْلَبَ هُؤُلَاءِ الْأَدْبَارِ الَّذِينَ يَذْكُرُهُمُ الْمُفْتَيِّ مَصْرِيُّونَ، وَأَنَّ التَّارِيْخَ الَّذِي قَدَّمُوهُ لِلْأَمَّةِ الْمَصْرِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ تَارِيْخُ الْإِسْلَامِيِّ خَارِجُ نَطَاقِ جُغرَافِيَا مَصْرٍ فِي أَغْلِبِهِ وَلَا يَخْصُّ مَصْرَ بِالْذَّاتِ، إِلَّا أَنَّنَا لَا نَسْتَغْرِبُ ذَلِكَ، فَكَمَا أَخْبَرُنَا فَانُونَ، أَنَّ أَدْبَارَ الشَّعُوبِ الْمُسْتَعْمِرَةِ كَثِيرًا مَا وَسَعُوا الرُّقْعَةَ التَّارِيْخِيَّةَ لِتَرَاثِ أَوْطَانِهِمْ، إِذْ “كَانَ رَدُّ الشَّعُوبِ الْمُسْتَعْمِرَةِ

.53 المُفْتَيِّ، ص 30

.54 المُفْتَيِّ، ص 31

قارياً في اتساعه⁵⁵ لتجمیع موارد ثقافتها وتاريخها. ومن هنا يصبح تاريخ مصر أو ليبيا أو اليمن تاريخ الأمة الإسلامية كلها، وكما نعلم اعتمدت فيما بعد الكثير من الدول العربية هذه السردیات كجزء من تاريخها وأصبح هذا التاريخ المنقى والمترامي الأطراف تاريخها الوطني.

وكمحاولة للتجوهر الاستراتيجي خلال الفترة الاستعمارية وبعدها، كما يخبرنا المفتی، رُكِّزت السردیات التاريخية على التاريخ الصدامي بين شعوبنا والاستعمار. يكتب المفتی: "خدمة لمعاركه السياسية.. دأب الفكر القومي المعاصر (بعثي / ناصري / قومي عربي) على التشديد على الجانب الصدامي في لقاء الثقافة العربية مع الثقافة الأوروبية الحديثة الوافدة في الأزمنة الحديثة، والتي رافقت جزئياً وصول جيوش الاحتلال، كما سعى بقصد أو بدونه إلى التقليل من عملية التفاعل الأعمق على مستويات المعاش والفكر والقيم، وكان كتاب حقبة الاستقلال.. ينتقدون قصص المقاومة ويضخّمون حجمها ومساحتها الزمنية، حتى لتوهُّم أن لا شيء كان يشغل أهلنا سوى نصب الكمان وبناء المدارس".⁵⁶ ويضيف الأديب عمر الككلي أنه في ليبيا في عهد القذافي، رُكِّز تأریخ المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطالي "على الجانب العسكري وحده ولم يولي أي اهتمام للمقاومة السياسية أو النضال السياسي".⁵⁷ كما يُقر الككلي أنه "لم نلحظ أي اهتمام بالنشاط السياسي المضاد للإيطاليين داخل ليبيا (وهو، في ما نعلم، قليل جدًا)، ولا بجهود

55 Fanon, 212.

56 المفتی، ص 31.

57 عمر بلقاسم الككلي، "عمر القذافي وتاريخ ليبيا، بوابة الوسط، 2016/1/17

<https://alwasat.ly/news/opinions/86921?author=1>

المعارضة السياسية بين أوساط المهاجرين الليبيين في تونس ومصر وبلاط الشام، كما تم تجاهل الحراك السياسي بتنظيماته المتعددة، والذي جرى في عهد الإدارة البريطانية في النصف الثاني من الأربعينيات لإدارة معركة الاستقلال⁵⁸ وبخاصة "الجهود السياسية لمحمد إدريس السنوسي (أمير برقة ثم ملك ليبيا لاحقاً)، والجمعيات والتنظيمات والأحزاب السياسية".⁵⁹ أما نظام القذافي، فيضيف الككلي، أنه أراد "أن يُظهر التاريخ الليبي المعاصر على أنه تاريخ جهاد وقتل فحسب، قائم على الحماس الديني والقومي فقط دون أي دعم سياسي" لأنه كان نظاماً "معادياً للعمل السياسي، ويرى فيه خطراً على نظامه، لذا لم ينشأ أن تنتشر ثقافة المعارضة السياسية والعمل السياسي المنظم".⁶⁰ هذه الممارسات التأريخية معاً توحى إلى حد كبير ما تقصده سيفاك بالتجوهر الاستراتيجي، ألا وهو تكوين سردية غير منصفة للحقائق لدعم هوية مقتضبة من أجل أهداف سياسية معينة. المشكلة هنا تكمن في التأثير الذي تضغط به سردية العنف على المجتمع وعلى شعور أفراده بالفاعلية وأشكال العمل السياسي المتاحة لهم، والتي بإمكانهم ممارستها.

7. التاريخ والهوية: من تطقيس العنف إلى ذاكرة انعتاقية

يخلق التاريخ والذاكرة ساحة لسياسات الحاضر
علي حميده

58 الككلي، 2016

59 الككلي، 2016

60 الككلي، 2016

إن الفتى من يقول ها أنا ذا
ليس الفتى من يقول كان أبي
علي بن أبي طالب

ما هي
الأشياء الثلاثة التي لا بد ألا تفعلها؟
أن تنسى.
أن تبكي صامتاً.
أن تقف بمفردك

موريل روكيز

أقدم هذه التأملات المشكالية المسهبة عن تاريخنا، قاصداً أن نرى تاريخنا وتأريخنا من وجهات متعددة، ولاقتراح أدوات نظرية إضافية تمكّنا من كتابة التاريخ بشكل جديد، وتنطوي هذه المقترنات التي أقدمها هنا تحت مصطلح "أنسنة" التاريخ، والمقصود بها أن نكتب التاريخ بقبول حقائق الإنسان كما هي، وعدم التعامل مع التاريخ كمجموعة من الدروس والمواعظ ينقسم فيها البشر بين الأبطال والشريين، وبين الطيبين والأشقياء. لهذا الغرض أقترح خمسة توجهات أراها مهمة ليس فقط في كتابة تاريخنا، ولكن أيضاً في تكوين هويتنا. أولاً- التوقف عن تطقيس العنف⁶¹؛ ثانياً- تنويع أدوات ومصادر كتابة التاريخ؛ ثالثاً- التعامل مع إشكالية البطل وسرد خبرة الأمة بكل قطاعاتها؛ رابعاً- الاعتراف بالتاريخ المكتوم وفتح المجال لسردها؛ خامساً- إعادة تمركز التاريخ نحو الضحايا بدلاً من المقاتلين. أرى أن هذه التغييرات بإمكانها أن تعيد توليف الهوية الوطنية بشكل أكثر إيجابية، وأن تلهم ابتكار آليات جديدة للعمل السياسي تبني السلام والتوافق.

61 أستعير هذا المصطلح من الأديب سالم العوكي. "تطقيس العنف ثقافياً"، بوابة الوسط، 24/1/2016. <https://alwasat.ly/news/opinions/87625?author=1>

إشكالية تطقيس العنف

يقول القول المأثور عن التاريخ إن ”من لا يعرفون التاريخ، من المحتم أنهم سيكرروننه“، فعدم معرفتنا بالتاريخ قد تجعلنا قادرين على أن نأخذ موقفاً مختلفاً نحو معاضل واجهها آخرون قبلنا. وقد نقول أيضاً إن الذين لا يعرفون إلا صيغة أو فلسفة واحدة للتاريخ سيتصرّفون طبقاً لما يعرفونه، فالذين لا يعرفون إلا تاريخاً مليئاً بالعنف، وبخاصة إذا تم تمجيده لهم، لن يكون لديهم مرجعية إلا العنف في خياراتهم السياسية. هذا للأسف هو الإرث السياسي الذي تركه نظام القذافي في ليبيا، وإن كان ليس وحيداً في ذلك. يسمّي الكاتب سالم العوكي هذا الإرث الفكري في ليبيا بـ”التطقيس الثقافي“ للعنف الذي تسرب إلى العقل الجماعي الليبي على ”متن الخطاب التعبوي المهيمن في ظل وسواس ثوري قهري، شعاره الكفاح المستمر ونشيده الأثير مدح الموت.“⁶² يضيف العوكي أن هذا التمجيد للحروب وـ”لاختزال مفهوم النضال في جانبه المسلح [كان له] دور مهم في تشكيل ثقافة الأجيال اللاحقة التي لم تتشكل لديها ذاكرة ولا خبرة نضال سياسي، فاختارت مباشرةً الأسلوب المسلح لانتفاضة فبراير.“⁶³ وهكذا، كما كان يرفض نظام القذافي العمل السياسي المسالم، رفضه أيضاً المناهضون له في فبراير، بل واستخفوا بأي تلميح للنضال السلمي، كما يذكر العوكي. وكما اختزل نظام القذافي نضال الليبيين للاستعمار بفكرة الانتصار أو الموت تمت مواجهته، بقصد وبدون قصد، بذات الموقف الحاد. لا يخفى

62 العوكي، 2016
63 العوكي، 2016

على أحد أن ما نجنيه الآن في ليبيا هو امتداد لهذه النظرة المحصورة للعمل السياسي التي أدى إلى احتكار أمراء الحرب المشهد السياسي، وأن الكوارث التي نتج عنها هذه المواقف التي تجتمع فيها الصراامة والانتهازية والاستهتار ما زالت تفتكم بالوطن وتقوده إلى التهلكة.

إشكالية البطل

وكما أن التركيز على جانب واحد من التاريخ (الصراع المسلح) يحدد وعينا بتنوع الخيارات أمامنا، ومن فاعليتنا في التفاعل مع المحن، فبطريقة مشابهة نجد أن التاريخ الذي يدّون فقط إنجازات الأبطال له سلبيات على تكوين الوعي السياسي لدى أفراد المجتمع. كل المجتمعات لديها أبطال يقصد بهم أن يكونوا قدوة لباقي الشعب يمثلون بهم ويتبعون خطاهم، وعادةً ما يكون هؤلاء الأبطال مفعمين بروح الشجاعة والتضحية والعطاء والريادة، والقصد من سرد حكاياتهم عبر القصائد الملحمية أو مناهج التعليم هو أن يعتبرهم مواطنون كباراً وصغاراً قدوة لهم، وأن يسعوا ليكونوا شجاعاً وشهمين مثل هؤلاء الأسلاف. أما عن مدى حقيقة عظمة هؤلاء الأبطال فأولى هذه السلبيات هي أن بطولات الأسلاف كثيرة ما تكون خرافية أو أن شخصياتهم عظيمة بشكل يجعل الناس العاديين يشعرون أن ليس لديهم القدرة بأن يكونوا مثل هؤلاء الأبطال لأن الفجوة بينهم قد تجعل الفرد عاجزاً أمام أي مسؤوليات اجتماعية أو سياسية، ويقول:

”أنا لست بطلاً، لا يوجد شيء يمكنني فعله.“⁶⁴ هنا تتجاوز الرغبة في إعطاء المثال هدفها، وبدلًا من أن تزيد الأمثلة النموذجية من طموح الناس تحبطهم وتفقدتهم الإحساس بالفاعلية.

في القرن العشرين سعت بعض الأنظمة الشمولية إلى هذا الأمر بالذات، أي أنها عظمت من شأن قائدتها الأوحد حتى بات مثل الإله والمواطنين عبيده، ومهما قيل لهم إن القائد هو مثال يقتدون به، فهم في الحقيقة يشعرون بأنهم أقزام أمام القائد الأعظم، بل وأنهم لن يستطيعوا العيش بدونه. في مثل هذه الوضعية نجد أن تقديس القائد يواكبه صلحيات مهولة لنظامه وسلطة شاملة في تحديد تصرفات المواطنين ومعاقبتهم إذا ما خالفوا إرشاداته. يكُون هذا الشعور بالرعب والرعب المكبوت علاقة أبوية تعجيزية بين المواطن والقائد الأعظم يجعلهم يبُرّون أي عقاب يصدره ضدهم ويسعون إلى إرضائه بأي شكل لأن رضا النظام عليهم بات الطريقة الوحيدة التي يشعرون بها بقيمة حياتهم.

في حالات أقل حدة أو شمولية، ولكن حيث البون يصل شاسعًا بين البطل النموذجي والأفراد، نجد أن الأفراد يتعاملون مع هذا الفرق بأن يكُونوا لأنفسهم شخصيتين منفصلتين: شخصية مثالية مرتبطة بالبطل وقيمه تسعى دائمًا إلى الأفضل وتزدهر فيها الروح الإنسانية، وهي ذات تسعى إلى العيش بالقيم العليا والفضيلة والترابط وصفات أخرى تنسب إلى البطل القدوة. ولكن تسكن بجانب هذه الذات المثالية في ضمير الفرد، ذات

64 “On the Downside of Heroism: Grey Zone Limitations on the Value of Social and Physical Risk Heroism,” *Heroism Science*, Volume 4, Issue 2, 2019. <https://scholarship.richmond.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1025&context=heroism-science>

واقعية تعامل مع الحياة برؤيه براغماتية تسعى إلى مصالحها الشخصية بكل أنانية وطعم، وترفض المثالية، وتتجاهل الاعتبارات الأخلاقية التي يمثلها الأبطال. الغريب في الأمر أنه هذا الانفصام الأخلاقي لا يصاحبه أي شعور بالتناقض، فقد نقول إن فهم الفرد لهذه المعادلة هو أن هناك عالمين فعليين: عالم مثالي يمثله البطل أو السلف حيث القيم النبيلة هي المعيار والفرد يتصرف على حسابها في مخيلته؛ وهناك عالم آخر، عالم الشارع والحياة اليومية الذي يعيش فيه الفرد أغلب حياته، وهو عالم صراع ومصالح مؤقتة لا يجدي فيه التمسك بالصدق والرحمة والعدالة.

يقول لنا علماء النفس هنا إن البطل يلعب دوراً مهمّاً في هذا الانفصام المتناغم في هوية الفرد، فحيث إن البطل في عقلية الجماعة تم تكليفه بمسؤولية تحقيق رغبة جماعية، مثل الشجاعة والكرم والتضحية، قد يقوم البطل القدوة ببعض الأعمال التي لا تتجزأ الجماعة على القيام بها، ومن هنا يمحو كل شعور بالندم أو الذنب في تقصيرها.⁶⁵ أي بلغتنا قد نقول إن البطل يؤدي ما يشبه فرض الكفاية في مسؤوليات مهمة ويسقطه عن الجماعة، وكذلك يدفع كفارة تقصيرها أو ذنبها في حالة قيامها بأعمال سيئة. ولعلّ أهم رمز للبطل هو أن مبادئه وتصرفاته توحّي بأنه لا يخشى الموت ولا يعيّره اهتماماً، وهو في ذلك مختلف عن أغلب الناس، وهم يقدّرونها ويمجّدونه لأنّه حّرّ نفسه، وبشكل ما حّرّرهم أيضاً، من الشيء

65 André Oliveira Costa and Adriana Simões Marino. "The hero in Freudian and Lacanian psychoanalysis: revolution and subversion." *Psicologia USP*, Volume 29, número 3, 2018, pp. 394-403.

[https://www.scielo.br/j/pusp/a/cMMFdttcWFjhtgWVs34y6Ns/?lang=en&format=pdf#:~:text=The%20hero%20occupies%20a%20place,guilt%20\(Freud%2C%201913%2F](https://www.scielo.br/j/pusp/a/cMMFdttcWFjhtgWVs34y6Ns/?lang=en&format=pdf#:~:text=The%20hero%20occupies%20a%20place,guilt%20(Freud%2C%201913%2F)

الذى يخشونه أكثر من أي شيء آخر.

كل مجتمع يحتاج إلى أبطال، وليس هناك مجتمع لم يحاول أن ينقي أبطاله الذين يقومون بإعفاء الناس من القيام بمهام لا طاقة لهم بها، إضافةً إلى قدرتهم على أن يلهموا الأفراد نحو الأفضل. ولكن بالنسبة لكتابه التاريخ حين يتم التركيز فقط على الأبطال، وحين يعتمد عليهم كركيزة أساسية في تكوين الهوية الوطنية، قد تتحول بطولات الماضي (أو حتى الحاضر) إلى وسيلة للناس ليعفوا بها أنفسهم من مسؤولياتهم الاجتماعية والأخلاقية. كما أن استعمال التاريخ لتحفيز عامة الناس ليتصرفوا بشكل بطولي يوحي بأن هناك إشكالية في البيئة الاجتماعية. ما السبب الذي يدفعنا أن نطلب من الناس العاديين أن يقدموا تضحيات أكثر من الأعمال اليومية التي تجعلهم مستقلين ومكتفين بذاتهم؟ ما هو الطارئ الذي يتطلب أن يقوم الناس بجهد إضافي ومن سيستفيد من هذه التضحيات؟ استعمال التاريخ البطولي إذن يدل على وجود عدم توازن في البيئة قد يؤدي إلى أن يقدم بعض الناس تضحيات أكثر من آخرين، وأن يقوم بعضهم باستغلال هذا الاختلال لمصلحتهم، وأن يدعى آخرون تضحيات لم يقوموا بها سعياً لرفع مكانتهم في المجتمع. هنا يتحول التحفيز للعمل البطولي إلى مساحة للرياء والنفاق، كما أن السعي وراء التكرييم والمكافآت قد يؤدي إلى صرف انتباهنا عن العمل اليومي لإصلاح المنظومة الاجتماعية حتى لا تحتاج إلى عدد كبير من الأبطال أساساً.⁶⁶

66 Shea, Gregory P. "The Problem with Heroes." *Knowledge at Wharton*: <https://knowledge.wharton.upenn.edu/article/the-problem-with-heroes/>

ما نقترحه هنا هو أن تخرج كتابة التاريخ من مأزق التركيز على الأبطال الخارقين، وأن تسعى إلى التعامل مع تفاصيل حياتهم بإنصاف بحيث نراهم كبشر، وهذا سيمكننا أن نتعلم منهم حقاً لأنهم مثلنا وإن كانوا أفضل منا. كما أقترح أن نسعى إلى رصد الفترات التي سعى فيها مجتمعنا إلى التوافق ورفع شأن عامة الناس حيث لم يلجم المجتمع إلى التناحر والصراع وإلى الأبطال ليتعاملوا مع الصعاب.

تنوع أدوات ومصادر التاريخ

هل للتاريخ دور في المستقبل إذن؟ نعم. الكيفية التي نتعامل بها مع تاريخنا توحى بالشكل الذي نتعامل به مع الواقع، كما يخبرنا الأستاذ حميده عندما يقرُّ بأن التاريخ والذاكرة يخلقان ساحة لسياسات الحاضر في مقولته المقتطفة من كتابه. التاريخ الذي نرَّجَ فيه على أنواع مختلفة للنضال السياسي والحوار وأشكال أخرى من ممارسة الفاعلية السياسية السلمية سيوحى لنا بخيارات عديدة للعمل السياسي في المستقبل، وهذا ما نريده. هذا يعني أن علينا إعادة كتابة تاريخنا لاكتشاف هذه الممارسات، مما قد يضطرُّنا أن نخرج من نطاق السياسة تماماً وعن الموارد التقليدية لكتابة التاريخ. مثلاً: إذا أردنا أن نعرف حياة الليبيين بداية السبعينيات إلى نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وهي الفترة التي اخْتَرَّ فيها القرار السياسي في يد القذافي، فلن نجد الكثير عن حياة الليبيين وردود أفعالهم لطريقة حكمه. قد نقتصر من الأرشيف الإداري وفي تسلسل بعض القوانين والإجراءات الإدارية الصادرة عن الوزارات ومؤتمر

الشعب العام ردود أفعال الناس لوضع سياسي ما، وقد نتفحص الصحافة الموالية للنظام لنستقر منها واقع حياة الليبيين على الرغم من أنها كانت تتکَّثم على حقائق الوضع السياسي والاجتماعي، وقد نجد في المطبوعات المستقلة القليلة جدًا وفيما كتبه الصحفيون العرب والأجانب عن ليبيا، مادة نستقصي منها بعض الحقائق، وبدون شك ستكون بعض النصوص الأدبية والأعمال المسرحية التي حاولت أن تمثّل الواقع بشكل ما مفيدة جدًا. من حسن حظنا أن بعض الكتاب والإداريين الليبيين كتبوا مذكراتهم بعد سقوط النظام ولكنها ما زالت قليلة. إذن سيقع الشغل الأعظم في تقصي الحقائق على اللقاءات مع الأشخاص الفاعلين، وكذلك عبر تدوين ذكريات الناس العاديين عن وضعهم الاقتصادي، مثلاً، في فترات معينة من تاريخ النظام، وكذلك عن قمع الخصوم السياسيين، وحرية التعبير، والفساد المالي والإداري، وعلاقة النظام مع التكتلات القبلية والجهوية والتكنوocrates، والتيارات الفكرية المختلفة. الكثير من تفاصيل هذه الأحداث لم يُكتب وسيكون العمل الإثنوغرافي مهمًا جدًا لقلة المصادر المكتوبة. إذن لا بد أن يُكتب التاريخ من الصفر، وذلك لعدم وجود أرشيف جيد، وأيضًا لأن النظام ذاته كان يعتمد الكذب على ذاته وعلى الشعب. مع ذلك تظل كتابة تاريخنا ممكنة وضرورية على الرغم من هذه العوائق، ولنا في كتاب الأستاذ حميده مثال مميز على كيفية استعمال تعدد التخصصات لكتابة تاريخ أكثر واقعية وأكثر إلهامًا.

الاعتراف بالتواريخ المكتومة

مثل الكثير من الليبيين، لم أعلم بوجود اللغة الأمازيغية إلا في سن المراهقة، وبالطبع لم أقرأ في فترة الدراسة في ليبيا أي شيء عن المواطنين الأصليين، الأمازيغ الذين يجري دمهم في دمائي، أو عن وجود لغات وثقافات غير العربية في ليبيا. كما أننا لم نتعلم عن التراث الفينيقي والإغريقي والروماني في ليبيا إلا بمجرد ذكرها كفترات في تاريخنا دون أي تفاصيل. وما زال الكثير منا يستغرب معرفة أن المسيحية واليهودية كانتا منتشرتين في ليبيا في تاريخنا القديم، كما أن معرفتنا ما زالت قليلة جدًا بشعراء وأدباء وفلاسفة ليبيا القدامى كالليماخوس وأريستيبوس وساينيسيوس وأبوليوس. نتحدث عنهم كإغريق ورومان بالرغم من أنهم كتبوا نصوصهم هنا في بلادنا التي ولدوا بها، وبالطبع لا تدرس كتاباتهم في المدارس ولا أظن بالجامعات. بدأت بعض الكتابات عن الثقافة الأمازيغية تصدر في ليبيا في الآونة الأخيرة، ولكن ما يمنع أن يتم تدوين وترجمة المزيد من هذه الأعمال، وتصحيح معرفتنا بهذه الثقافة التي وإن كان أغلب الليبيين لا يعرفون عنها إلا القليل فهي موجودة في حاضرنا النموي؟ أذكر هذه النقطة باختصار شديد لأجسد قلة معرفتنا، وقلة معرفتي بالذات، بالفجوات المهولة في تاريخنا، فلا يمكن أن نتحدث عن تاريخنا وإعادة توليف هويتنا دون التعامل مع هذه الفجوات.

التركيز على تذكر الضحايا

يخبرنا الأستاذ حميده، أن الإبادة الجماعية كممارسة حديثة تطورت عبر

عدة مراحل، وأن ليبيا كانت إحدى محطات هذا التاريخ المأساوي، لذا فإن دعوته لإعادة تمركز هذا التاريخ من تركيزه شبه الحصري على أوروبا وتجاهله للإيادات الجماعية في الدول التي استعمرها الغرب هي مبادرة تصحيحية مهمة لثبت الحقائق ولتحميل المسؤوليات التاريخية والإعداد الهياكل المؤسسية لإيقاف هذه الممارسة المأساوية في المستقبل. ولكن ماذا عنا نحن في بلادنا؟ مما لا شك فيه أن رصد خبرتنا والبحث عن كل ما بإمكاننا أن نعلمه عنها وتأطيرها ضمن سياقها التاريخي سيساعدنا على وضع هذه المأساة العظيمة ضمن ترابط بشري يوثقه التعاطف والتضامن، بدلاً من الحسرة والانزعال، أو الأخطر من ذلك، التجاهل والنسيان.

ما يهمني هنا ليس الإيادة الجماعية وحدها ولا الماضي فقط، بل الحاضر والمستقبل. من سنكون، أو ماذا نريد أن نكون، وكيف سيكون تاريخنا عوناً لنا في تشكيل هويتنا ووجهتنا في المستقبل؟ كلنا يعرف مدى العنف الذي أصاب ليبيا في العقود الخمسة الماضية، وخصوصاً بعد التمرد الذي أسقط نظام القذافي. وننظر إلى أننا تجاهلنا ولم نتمكن من رصد جرائم نظام القذافي وتسمية الذين ارتكبوا إرثه العنيف، لم نتمكن أيضاً من البدء في معالجة عنف السنوات الائتني عشرة الماضية، وأنا هنا أقصد بالذات العنف ضد الأبرياء والمدنيين. هل سنساهم مثلما تناصينا ضحايا الإيادة الجماعية الفاشية في بلادنا؟ والسؤال الملحق: هل إهمالنا لفجائع الماضي وعدم اكتراحتنا بضحاياه هو سبب عدم قدرتنا في الخروج من دوامة العنف والتحارب التي نحن فيها؟ أعتقد أن ليس شك في ذلك.

ساعدنا مثقفون الذين استعنت بهم هنا، المفتى والكلبي والوعكبي، في

شرح الأسباب التي جعلتنا نتمسك بما يؤجج العنف في تراثنا. الذي أريد أن أضيفه هنا، أننا لا يمكننا أن نتجاهل الذاكرة التي بإمكانها أن تُغْنِي وترسّخ إحساسنا بإنسانيتها والتي أيضًا بمقدورها أن تعيننا في إعادة تشكيل هويتنا وأولويات رؤيانا الوطنية. نريد أن نضع صحايا الإبادة الجماعية وصحايا صراعاتنا الآن نصب أعيننا لأننا لا نريد تكرار ما حدث لهم، وأن تكون ذكراهم ميثاًً نعتقد به أنفسنا من الشقاء والظلم الذي عاشهو في حياتهم. نريد أن نتذكر الصحايا لا لأننا نطلب القصاص من الماضي، فالقصاص لن يكون إلا مزيدًا من الموت، فيما أن الخروج من دائرة الموت هو سعينا الأول، ولا من أجل العزاء ولا لتأجيج الجروح، ولا لأن تكون الذكرى المؤلمة عرضة للأسعار والمكافآت وليقفل حسابها مثل الصفقات. نتذكر الصحايا لأن ذكرى الأبراء المؤلمة لها قيمة أخلاقية بحد ذاتها لأنها تذكّرنا بحقيقة الشر في الآخرين وفي أنفسنا، وتفتح مجالاً للتعاطف مع ألم الآخرين. نتذكّر الصحايا لنعيده ونذكّر أنفسنا لأننا لا نريد أن يحدث الشر ثانيةً، فيما بيننا ومع الآخر، وأننا لن ننسى الصحايا لأننا لا نريد المزيد منهم، كما لا نريد المزيد من الأبطال. نريد أن نحيي ذاكرة من غيّبه الموت حينما كان يبعي الحياة، وليبقى في ذاكرة الناس من أراد الحياة لنفسه ولغيره، وليس من حرم غيره منها. نتذكّر الصحايا لأنهم يذكّروننا بأن ننقد الضعفاء من ويلات الحرب ونوفّر لهم الملجاً والملابس والطعام لتنبّتهم في الحياة، وبهم ومعهم سنسعى إلى السلام أينما كنا. نتذكّر الصحايا حتى نتمكن من مواجهة المستقبل عندما يسألنا أبناءنا وبناتنا عما حدث في حياتنا. نتذكّر لأننا نريد أن يستجوبنا المستقبل، نريد أطفالنا أن يخبرونا أنهم مصدومون

لما جرى في حياتنا. ونريد لهم أن ينصدموا عندما يعلموا عن الصحايا الأبراء الذين سُلّبت حياتهم من بيننا، لأن يروا ما قاساه الصحايا كان طبيعياً. نريد أن نثبت في عقولهم أن السلام والحوار هو ما ينبغي أن يكون طبيعياً. نتذكّر الصحايا لأننا نريد أن تتخذ الأجيال القادمة خيارات أفضل من التي أخذناها. نتذكّر الصحايا لأننا نريد أن نقرأ تاريخنا بشكل مختلف، لنكشف النقاب عن الدماء التي أهدرت وراء المجد. ولنندون ونتذكّر كل ما قمنا به من بناء وتواصل وتفكير وإبداع ومقاومة من أجل أن نحافظ على الهمة الإلهية التي ليس هناك أي مبرر كان لأخذها.

8. خاتمة

في الأعوام المئة التي مضت شهدت ليبيا إحدى أعنف فترات تاريخها، من احتلال شامل، إلى صراع مسلح مع الاستعمار، إلى إبادة جماعية، إلى حرب عالمية، إلى دكتاتورية مسلطة أدت إلى حرب أهلية طفت فيها مصالح القوى المجاورة على المصلحة الوطنية. لا أجزم بأن هناك عاملاً واحداً يجمع هذه الأحداث المؤلمة، ولكن قد نقول إن فدانا لسردية تاريخية مؤثقة ومنصفة كان لها دور في انحلال الشعور بالانتماء وتفكّك الهوية الوطنية، والتي نرى نتائجها في الصراع الحالي. قد يقول البعض إن القضية عكس ذلك، فضعف انتمائنا وشعورنا بهوية موحدة هو ما أدى إلى عدم وجود سردية تجمعنا. وقد يرد آخر، أن الصراع هو على محتوى التاريخ، وكذلك فإن إهماله من العوارض الجانبية للصراع السياسي، فالكل سيستعين بالتاريخ أو يهمله حسب فائدته السياسية له. وقد يضيف آخر

أن الدول والمجتمعات المستقرة التي تتوافر لديها حرية الرأي والموارد العلمية والمادية الكافية هي وحدها التي تستطيع أن تواجه تاريخها بإنصاف، وأن تسعى إلى استقصاء الأسطورة من الحقائق، وبما أننا لسنا مستقرين وبدون الإمكانيات الكافية فلا ينبغي أن نتوقع ذلك أساساً.

كل هذه الردود منطقية، فنحن لسنا بلداً مستقراً، وما جرى للهوية والانتماء لدينا أمر متوقع، سبباً كان أم نتائجة لضعف حسناً التاريخي أو الصراع الحالي. ولكن لا بد أن نسأل، فيما يخص تاريخنا: ما الذي نستطيع أن نقوم به نحو سردتنا الوطنية بحيث أن يكون لها دور في بناء الحس الوطني عموماً وإنهاء حالة الصراع والتشرذم التي نحن فيها؟ ما حاولت أن أقدمه من تأملات ومقترنات هنا يمكن ضمها تحت فكرة أنسنة التاريخ، أول هذه العوامل هو طبعاً عدم تناسي التاريخ وعدم أدلجته؛ ثانياً توسيع رقعة تأريخنا لتضم كل الفئات الاجتماعية وكل ردود الأفعال للأوضاع السياسية والاقتصادية في الفترات التي ندرسها؛ ثالثاً رصد السرديةات ووجهات النظر المختلفة وعدم تنميط الأحداث لفرض سردية واحدة؛ رابعاً وضع تأريخنا في سياق الأحداث المتزامنة لها نظراً إلى تشابك التأثيرات الثقافية والأحداث السياسية في العالم المعاصر؛ خامسها تأريخ التاريخ ورصد التأثيرات السياسية والأيديولوجية التي تم خلاها كتابة تأريخنا؛ سادسها نبذ بعض التوجهات التي عرقلت قدرتنا على كتابة تاريخ منصف وموثق وتبني أساليب ومواقف نحو تأريخنا لصياغته بشكل أدق وأشمل يساعدنا على إعادة تشكيل الهوية الوطنية نحو المصداقية والتالف.

ولعل أهم ما أقصده بأنسنة التاريخ هو أولاً- أن نقبل الأنسان كما هو عندما

نكتب التاريخ ونرضى بإنسانيته بما فيها من قصور وفضيلة ومن صواب وخطأ سعيًا إلى المعرفة وليس إلى الحكم على الأحداث أو الأشخاص. ثانٍ- أن نؤنسن التاريخ بجعله لا ينسى ضحايا الظلم وعدم الاعتراف، وثالثًا- أن نؤرخ فترات السلام فيما بيننا لأنها أهم مكتسباتنا، وهي التي نريد أن نتعلم منها، ليس فترات التحارب. سيتطلب هذا جهداً منظماً ومختلفاً، وهنا كتاب الدكتور حميده بإمكانه أن يكون نموذجاً مهماً لدراسة التاريخ التي تسعى إلى تغيير مفاهيم تؤثّر في المستقبل. كل الشعوب، هويتنا تكمن إلى حد كبير في تاريخنا، وقد نقول إن طموحنا لمستقبلنا أيضًا مرتبط بالطموح والعمل الذي نضعه في كتابة تاريخنا.

المساهمات/ون

صالح السنوسي: روائي وأستاذ للقانون الدولي وال العلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة بنغازي، بالإضافة إلى كتبه البحثية العديدة في قضايا القانون والسياسة والمجتمع، أصدر عدة روايات، منها: ”متى يفيض الوادي؟“ (1980)، ”سيرة آخربني هلال“ (2000)، و ”الهروب من جزيرة أوستيكا“ (2018).

عائشة إبراهيم: روائية وقاصة، صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان ”العالم ينتهي في طرابلس“ (2019)، وثلاث روايات: ”قصيل“ (2016)، و ”حرب الغزالة“ (2019)، و ”صندوق الرمل“ (2022) اللتان كانتا ضمن اللائحة الطويلة لجائزة بوكر للرواية العربية.

مروان جبودة: كاتب ومدون وقاص، مهندس ميكانيكي، نشر نتاجه بصحف و مواقع ثقافية، أحد الفائزين بجائزة القارئ للكتابة الإبداعية 2018، شارك في كتابة مسلسل ”كيخ لاند“ رمضان 2018.

صلاح المنصف: ولد في مدينة الكويت، بالكويت. وهو مؤلف عدة كتب أدبية ونقدية باللغة الإنجليزية منها: ”من حين لآخر“، و ”بنغازي“، و ”عقاقير الفن“، و ”الهدية“. درس بجامعة تونس، وتحصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة إنديانا بالولايات المتحدة. حصل عدة مرات على منحة الفولبرايت البحثية، وعلى الجائزة الرئاسية للتميز في

العلوم الإنسانية. يحاضر في الأدب الإنجليزي والكتابة الإبداعية بجامعة نانت بفرنسا، ومحرر أول بدار نشر روتليدج / تايلور أند فرانسيس بلندن. "بن يتحمّص جزر ممكّنة"، و"الصدفة كل ما أنا"

ميرنا فكري صبحي حنا: طبيبة مصرية مبتدئة وجدت طريقاً للهروب مؤخراً إلى عالم الأدب. بدأت ممارسة الترجمة في عام 2019 كهواية تحولت لاحقاً إلى نشاط احترافي جانبي.

حسام الثنبي: مواليد بنغازي، كاتب، وباحث في مجال السياسات الثقافية والإدارة الثقافية، عضو مؤسس لمنظمة تاناروت، والمدير التنفيذي السابق لها.

علي عبد اللطيف حميده: أستاذ ورئيس مؤسس لقسم علم السياسة بكلية الآداب والعلوم بجامعة نيو إنجلاند بالولايات المتحدة الأمريكية. تخصصه هو النظرية السياسية والسياسة المقارنة وعلم الاجتماع التاريخي. وتركز اهتماماته البحثية والدراسية على القوة والفاعل البشري والمقاومة ضد الاستعمار في شمال أفريقيا، وبخاصةٍ ليبيا الحديثة.

محمد زاهي بشير المغirبي: أستاذ شرف علم السياسة بجامعة بنغازي، متخصص في السياسة المقارنة ودراسات الثقافة السياسية والمجتمع المدني والسياسة العامة. ألف وترجم، بمفرده أو بالتعاون مع آخرين، عدّة مؤلفات في مجال تخصصه وال مجالات ذات العلاقة.

فؤاد مغربي: أكاديمي فلسطيني متلازد، أستاذ شرف في العلوم السياسية في جامعة تنسيني في تشاتانووغا بالولايات المتحدة. له العديد من المؤلفات في الشأن الفلسطيني والرأي العام الأمريكي بالقضية الفلسطينية، كما أنه مؤسس ومدير سابق لمركز القبطان للبحوث التربوية والتنموية، برام الله، فلسطين.

نافع الطشاني: أستاذ ومحاضر في الترجمة التحريرية والفورية ودراسات الترجمة. حاصل على ماجستير الآداب في الترجمة من الأكاديمية الليبية، شغل منصب رئيس قسم الترجمة في جامعة بنغازي. مترجم قانوني ومتترجم فوري معتمد من محكمة بنغازي. له عدة مقالات مترجمة منشورة وأبحاث عن دراسات الترجمة.

أحمد يوسف عقيلة: كاتب قصة قصيرة وباحث في التراث والفلكلور الشعبي. صدر له العديد من المجموعات القصصية ترجم بعضها إلى الإنجليزية والتركية والفارسية، كما أصدر موسوعات الشعر الشعبي وغناوي العلم والأمثال والحكايات الشعبية.

فاطمة غندور: كاتبة وباحثة، أستاذة بكلية الفنون والإعلام، جامعة طرابلس، صدر لها عدة كتب منها: "الحكاية الشعبية الليبية.. دراسة سوسيولوجية"، و"حاملات السر (راويات براك الشاطي)"، و"محمد الزواوي متعة السخرية".

خالد المطاوع: شاعر وأكاديمي، صدرت له عدة دواوين وترجمات باللغة الإنجليزية، وأستاذ الأدب والكتابة الإبداعية بجامعة ميشيغان بالولايات المتحدة.

ميرنا فكري صبحي حنا: طبيبة مصرية مبتدئة وجدت طريقاً للهروب مؤخراً إلى عالم الأدب. بدأت في ممارسة الترجمة في عام 2019 كهواية تحولت لاحقاً إلى نشاط احترافي جانبي.

أنطونيو إم مورون: أستاذ مشارك في التاريخ الأفريقي المعاصر ومنسق درجة الماجستير في الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة بافيا. كتب مقالات أكademie عن التاريخ الاجتماعي الاستعماري وما بعد الاستعماري، الهجرات الأفريقية والمتوسطية، الذاكرة الخاصة وال العامة في السياق الاستعماري، والتحولات السياسية والاجتماعية في الدول الهشة. نشر مورون في الصحفة الإيطالية وظهرت مقالاته في كوريري ديلا سيرا، ونيغريزيا، وإلمولينو، وريفيستا دي كولتورا إي بوليتيكا.

سعد العشة: سينمائي ومترجم وكاتب مقال، نشرت بعض أعماله في عدة مواقع صحفية دولية. سيتم عرض فيلمه "السينما ولا شيء بسوها" (2023)، بمهرجان برلين للسينما المستقلة ومهرجان الدار البيضاء للسينما العربية.

فريديريك ويري: زميل أول في برنامج الشرق الأوسط في مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي، حيث تركز أبحاثه على الحكومة والصراع والأمن في ليبيا وشمال أفريقيا والخليج العربي. ظهرت مقالاته في نيويورك تايمز وواشنطن بوست وفاينانشال تايمز وول ستريت جورنال والعديد من المجلات الأكademية. وهو مؤلف كتاب "الشواطئ الحارقة: داخل المعركة من أجل ليبيا الجديدة" (2018) و"السياسة الطائفية في الخليج: من حرب العراق إلى الانتفاضات العربية" (2013).

ستيفن وات : أستاذ الأدب الإنجليزي متخصص في المسرح والأدب الأيرلندي في جامعة إنديانا بالولايات المتحدة الأمريكية. وهو مؤلف لعدة كتب بالنقد الأدبي، من بينها: "قصص برنارد شو: علم النفس المادي والتأثير الوجوداني" (2018)، "شيء مخيف وعظيم: الأدب الأمريكي واللاوعي اليهودي-الأيرلندي (2015)، "صموئيل بيكيت والأدب الأيرلندي المعاصر (2009).



لمة هي مجلة أكاديمية توفر منتدى لبحث وفهم بشكل نceği وممنهج للأفكار والقيم والتكتونيات الاجتماعية والتاريخ والحقائق المادية المركبة في ليبيا. وإدراكاً منا للحاجة الملحة لمثل هذا المنتدى، فإننا نرحب بمجموعة واسعة من التخصصات والمصادر والمناهج، في مقدمتها بشكل خاص تلك التي لم تحظى في السابق باهتمام علمي كاف. "لمة" هي مساحة تتفاعل فيها هذه المجالات وتستفيد من بعضها البعض، وهي منصة يجتمع فيها الباحثون والطلاب من داخل ليبيا وخارجها لإعادة تعريف وإعادة تشكيل مجال "الدراسات الليبية".

www.escholarship.org/uc/lamma

الغرفة 211

كتاب غير دوري يधق بالحقيقة والفنون في ليبيا



الغرفة 211، هي محاولة لبدء موسم جديد لتلك الحكايات التي ضاعت ذات يوم في ضجيج التقاتل والتي أسكنتها زحير الراردين. إنها دعوة إلى منح فرصة ثانية للاستماع دون تشويش إلى أصوات جيل جديد من مبدعين ومبدعين ما يزال أغلبهم يُطرد من منفى إلى منفى، وما تزال حكاياتهم ضائعة. إنها أيضاً مساحة و مجالاً لنقاش أرحب يسهم فيه جمُع من المبدعين الذين لا تجد أفكارهم منشورات جادة مختصة، ومسعى لتفعيل حوارات إبداعية متعددة بين الأجيال والأقران، وفضاء لطرح أسئلة أساسية أكثر اشتباكاً مع المجتمع، ومعنية على وجه الخصوص بشأن الوضع الحالي في ليبيا بمفهومه الأعمق.

ألبوم ليببيا

ALBUM LIBYA



ألبوم ليببيا هو مشروع متعدد الأدوات (كتاب مطبوع، موقع، معارض)، يقدم صوراً وقصصاً من السير الشخصية للعديد من الأدباء والشعراء والفنانين والمثقفين الليبيين، وهو فسيفساء سردية تغطي جوانب متعددة من حياة الليبيين منذ منتصف القرن الماضي.



www.albumlibya.ly



محترف الرواية الليبية

مشروع محترف الرواية الليبية أسس لمساندة الأدباء الليبيين الجدد لتطوير قدراتهم في فن كتابة الرواية الحديثة. يقدم فيه الروائيون الشباب مشاريعهم الروائية ويتحصلون على المشورة والتحفيز من نقاد وأدباء ومدربين، لديهم خبرة عميقة في مجالهم. كما يقدم المحترف منحة مالية للأدباء للشباب الذين يتم اختيارهم ليتفرغوا للتدريب وإكمال مشاريعهم.



www.qasaed-lilhayat.com

أطلقت مؤسسة أريتي مشروع قصائد للحياة بالتزامن مع اليوم العالمي للشعر 21 مارس 2019. الموقع معني بالشعر العالمي المعاصر ويهدف لتقديم مختارات منه على شكل قصيدة جديدة كل يوم للقارئ، وتتنوع هذه المختارات بوجهات نظر عديدة ونبرات مختلفة. بالإضافة إلى قصيدة مترجمة جديدة بشكل يومي يقدم الموقع أرشيفاً للقصائد يحتوي على ما سبق نشره من قصائد عبر الموقع، الذي تجاوز الآن ألف قصيدة من أكثر من ثمانين دولة من حول العالم.



**مؤسسة أريتي
للثقافة و الفنون**

Arete Foundation
for Arts & Culture

www.arete-foundation.org

منظمة ليبية وطنية غير هادفة للربح تسعى لدعم وتجييه وتسهيل الإبداع
الفني والتبادل الثقافي بداخل ليبيا، ومع الدول المجاورة لها. المؤسسة
مسجلة لدى وزارة الثقافة والمجتمع المدني وتم إشهارها في مارس 2012.